

٢٠١
-
محاضرات في

سفر القضاة

مكتبة
الكنيسة الانجيلية واللاهوتية
البروتستانتية
١٧٩٠١
١٧٩٠١
١٧٩٠١

١٧٩٠١

١٧٩٠١

١٧٩٠١



www.christianlib.com



صموئيل ريداوت

معاذك في

سفر القضاة

بقلم

صموئيل ريداوت

تعريب

أديب يس

الطبعة الأولى

٢٠٠٤

محاضرات في سفر القضاة

المؤلف : صموئيل ريداوت

المترجم : اديب يسى

يطلب من : مكتبة الإخوة

٣ش أنجه هانم - شبرا مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد إلكتروني: brethren_pub@writeme.com

٢٩٠٤٠٠٣: ت وفروعها: مصر الجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي - تيريمف

٥٤٦٥٣٦٦: ت الإسكندرية : ٦ش الفسطاط - كليوباترا

٣٦٤٤٠٦: ت المنيا : ٦ش الجيش

٣٤٢٠٢٨: ت أسيرط : ٢١ش عبد الخالق ثروت

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

طبع بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٣/٢٠٠٣

I.S.B.N. 977-321-073-1 الترقيم الدولي:

المحتويات

كلمة تقديم.....	٥
مقدمة	٧
الأصحاح الأول	
الخطاب الأول: خيبة واندماج	١٣
الأصحاح الثاني	
من الجبال إلى بوكيم: علاقات متغيرة مع الله	٢٥
الأصحاح الثالث	
عشنييل وإهود وشمجر	٣٩
الأصحاح الرابع والخامس	
دبورة وباراق: نصره الضعف	٥٣

الإصحاحان السادس والسابع (١٤٠-١٤١)

٧١ جددعون: إعداد الآلة

الإصحاحات السابع (١٥٢-١٥٣) إلح التاسع

٨٩ جددعون وأبيمالك: النصرة وما تلاها

الإصحاحات من العاشر إلح الثاني عشر

١٠٧ يفتاح: أسلافه وأخلافه

الإصحاح الثالث عشر

١٢٥ شمشون و الفلسطينيين: الانتذار

الإصحاحان الرابع عشر والخامس عشر

١٤٣ شمشون: أحلاف وصراعات

الإصحاح السادس عشر

١٥٩ شمشون: أيامه الأخيرة

الإصحاحان السابع عشر والثامن عشر

١٧٧ تطور الوثنية

الإصحاحات التاسع عشر إلح الحادي والعشرين

١٩١ الفساد والحكومة العاجزة

٢٠٩ شيء من ملامح المسيح

كلمة تقديم

يسر لجنة النشر أن تقدم للقراء الأعزاء كتاب محاضرات في سفر القضاة لخدام الرب الموهوب صموئيل ريداوت من أمريكا، الذي وُلد في ولاية مرييلاند عام ١٨٥٥ وتعرف على الرب مبكرًا في حياته، وانخرط في خدمة الرب في بداية شبابه، وظل يخدم الرب بأمانة متجولاً بين المدن الأمريكية بداية من الثمانينات في القرن التاسع عشر وحتى استراح من أتعابه عام ١٩٣٠. وللكاتب العديد من المؤلفات القيمة، تُرجم منها إلى العربية محاضرات في الرسالة إلى العبرانيين، وهي محاضرات يعلم بقيمتها كل من قرأها. ونتمنى أن يأتي اليوم الذي فيه تحتوي مكتبتنا العربية على كل ما كتبه قلم الكاتب الفاضل، الذي يتميز أسلوبه بالروحانية والعمق مع الوضوح والبساطة.

وأما سفر القضاة، الذي تدور حوله هذه المحاضرات، فهو أكثر أسفار الكتاب المقدس ظلمة، وهو يتحدث عن حال الشعب في أرض الموعد بعد موت يشوع. وإن كان سفر يشوع هو سفر الامتلاك، فسفر القضاة هو سفر الارتباك. نقرأ فيه عن فشل وعبودية وخسارة. لكن بين الفينة والفينة كان الرب يتنازل من فيض رحمته فيفتقد شعبه، وهو عين ما حدث في تاريخ المسيحية.

ورجل الله الفاضل، مقدّم هذه المحاضرات. يعلم عن يقين أن «هذه الأمور جميعها أصابتهم مثلاً وكُتبت لئذارنا نحن الذين انتهت بين أواخر الدهور» (١ كو ١٠: ١١)، ليس بالنسبة

لرحلة الفشل في البرية فحسب، بل بالنسبة لفشلهم في أرض الموعد أيضاً. فهذا السفر، رغم أنه من أهم الأسفار التاريخية، ويغطي حقبة من أطول الحقب مقارناً بباقي الأسفار التاريخية في الوحي؛ لكنه ليس مجرد تسجيل لدروس تاريخية، بل إن الله يتكلم إلينا الآن من خلاله. وكما فشل الشعب في أيام حكم القضاة، هكذا فشلت المسيحية في تاريخها الطويل. والكاتب يتخذ من هذا الفشل صورة لما حدث في المسيحية على طول تاريخها. ولقد كانت أيام القضاة بصفة عامة أيام ضعف، وهكذا أيامنا أيضاً. لكن من قال إن الله يمنعه الضعف البشري عن إتمام قصده. على العكس إن إحساس الإنسان بقوته هو الذي يعيق الله عن العمل، أما إذا شعرنا بضعفنا، فإنه يتخذ من هذا الضعف مجالاً لإظهار قوته ونعمته.

لذلك فإننا رغم الضعف نجد انتصارات مباركة. انتصارات على أعداء يكلّموننا عن أعدائنا الروحيين لمنع تمتعنا ببركاتنا الروحية. ترى ما هي المؤهلات الأدبية للنصرة؟ كيف نحصل عليها؟ إن النصر طعمها شهى في أفواهنا، والهزيمة كالعلقم في حلوقنا. ستجد في هذا السفر المؤهلات الروحية والأدبية التي تقود إلى النصر، وإلا فإننا لن نختبرها على الإطلاق.

والكاتب الحبيب يتوقف عند كل اسم لمكان أو لشخص، ويستخرج من الأسماء الكثيرة الواردة في هذا السفر، العديد من الدروس الروحية، فعنده لا شيء في كلمة الله خال من المعنى. كما أنك ستلاحظ تقديره الشديد للحق الذي أنار الرب به رجال النهضة الفيلاذفية، ولا سيما الاجتماع إلى اسم الرب.

في الختام أقول إن هذه المحاضرات هي أبعد ما تكون عن تفسير آية آية، وبحثك عن تفسير هذه الآية أو تلك ليس هو أفضل أسلوب للاستفادة من تلك المحاضرات. لكنك إذا قرأتها بذهن مفتوح ستجد أنها تتضمن الطعام الوفير لشعب الله، وستحصل منها على بركات جزية، وستجني العديد من الدروس الأدبية والروحية التي نحن في أمس الاحتياج إليها.

الناشرون

مقدمة

إن الأسفار التاريخية، التي يقع سفر القضاة هذا في المكان الثاني منها، تشكل المجموعة الكبرى من كتب العهد القديم. في الأسفار الخمسة الموسومة نجد أن مشورات الله هي الفكرة البارزة. فإذا ما عنَّ لأحدنا أن يتساءل: ما هي الملامح الظاهرة في تلك الأسفار، نجابه: هي مشيئة الله وسلطانه. وليس المعنى أنها، أي تلك الأسفار، خلت من الإرادة البشرية، بل مع وجود هذه فإن الفكرة المسيطرة على الأسفار الخمسة في جملتها هي أن الله يسيطر ويتحكم. لا منازع في أن السيطرة تنعقد لله في كل تاريخ الإنسان، غير أن هذه السيطرة يتجلى بروزها، على وجه خاص، في الأسفار الخمسة. فبحقِّ ندعوها: أسفار الشريعة، الأسفار التي تبرز وتؤكد مشيئة الله.

وبالطريقة ذاتها يقدم لنا القسم الثاني من العهد القديم الأسفار التاريخية، حيث نرى البارز فيها ليس الله بل الإنسان. ولا أعني أن هذه الأسفار لا تحدثنا عن الله إطلاقاً، بل هي ترينا أنه قد وضع مقاليد السياسة ومسؤولية الحكم بين يدي الإنسان لينفذ فيها مشيئته تعالى. لذلك يطلق عليها - وصواباً - أسفار التاريخ العهدي أو تقدُّم وتطور المشيئة الإلهية المعلنة في الأسفار الموسومة.

ونرى، إذ نتناول هذه الأسفار التاريخية، أنها ولو تشاركت جميعاً في الطابع العام الذي أشرت إليه غير أن لكل واحد منها سماته الخاصة التي تميزه. وسفر القضاة الذي نتناوله الآن يطبع

- في ما أرى - القسم التاريخي كله بطابعه الخاص. قل إن القسم التاريخي برمته هو سفر قضاة. ذلك بأنه هو سفر تاريخ الإنسان، تاريخ تقدمه وتطوره. أما ما هو أثر ذلك، فمن تحصيل الحاصل أن أشير إليه. تاريخ الإنسان؟ ماذا عساه يكون إلا تاريخاً للإنحلال، والانفصال عن الله، للتحلل دون التجمع والوحدة، للضعف دون القوة، والافتقار إلى تدخل الله للخلاص. ومع أن هذا هو طابع الأسفار التاريخية من يشوع إلى أستير، لكنه بوجه خاص طابع سفر القضاة.

ولكن دعنا أولاً نكتشف العلاقة بين سفري القضاة ويشوع لما في ذلك من أهمية بالغة. إن سفر يشوع هو طليعة الأسفار التاريخية، يمتاز - على الجانبين - بلامح معينة. فهو في بدايته على صلة بالأسفار الموسوية، وعلى صلة - في الضفة الأخرى - بسفر القضاة. خذ مثلاً خاتمة الأسفار الموسوية: هوذا موسى يودّع المشهد، فيدعو من يخلفه ويخلع عليه سلطانه من الله؛ وهوذا هذا الخلف - يشوع - القائد الإلهي المختار - يستكمل العمل الذي بدأه موسى. هو مجرد قائد جديد. ولكن تتبع السفر طويلاً وعرضاً حتى نهايته، وأنت تجد - بنفس الطريقة - ما يربطه بسفر القضاة. هوذا يشوع يستدعي الشعب، ويرسم قدامهم تاريخ طرق الله ورحمته في الماضي. ثم يحذرهم من خطر الارتداد والانحراف عن الله.

ولقد كانت نبوءة من فم يشوع - بالنسبة لتاريخ القضاة - أن يخبرهم في معرض التحذير، ليس فقط عن الخطر الذي سيهددهم، بل عما يصيبهم على وجه التحقيق إذا هم لم يَعمُوا التحذير. وهكذا ترى كيف يلتحم سفر القضاة بسفر يشوع. وفي يشوع نرى قوة الله، ورجل الإيمان، وفيه - في مثال - نرى القائد الإلهي. ورمزياً نقول إن يشوع - خليفة موسى - يمثل الروح القدس، حيث - يجعل المسيح عملياً - قائداً الذي يدخل بنا أرض ميراثنا.

إن ميراث إسرائيل في كنعان صورة رمزية لميراثنا في المسيح في السماويات، وكما نقرأ في رسالة أفسس أن الله قد باركنا بكل بركة روحية في المسيح في السماويات، هكذا نقرأ في يشوع أن كل شيء هو لنا؛ كل شيء للشعب؛ الله قد منحهم إياه؛ وواجههم الآن أن يضعوا أيديهم على ميراثهم في نشاط الإيمان.

لكن لا بد من قائد مُعيّن من الله حتى يمتلكوا نصيبهم، الأمر الذي من أجله تعيّن يشوع. وأريدك يا أخي أن تلاحظ أنه القائد المُقام للشعب كله. وفي السفر - طويلاً وعرضاً - لا نجد إلا قائداً واحداً. ويشوع - كما قيل سابقاً - هو رمز المسيح، المسيح القائد، في القيامة، كما أن موسى كان رمزاً للمسيح، قائد شعبه وهو على الأرض. ومن هنا كانت حتمية موت موسى

رمزيًا، موسى القائد الأرضي كان حتمًا أن يموت لكي يتسنى للشعب أن يدخلوا ميراثهم السماوي؛ وهكذا كانت حتمية موت المسيح حتى يتسنى له - كالمقام من الأموات - أن يقود الشعب للتمتع بميراثهم السماوي.

وأكثر من ذلك: أن يشوع رمز للمسيح المقام، كما أنه القائد الحقيقي لشعبه في الكفاح لامتلاك ما يخصهم. لذلك فإن المسيح ساكنًا في قلوبنا بالروح القدس؛ المسيح فينا، بالروح القدس، هو الذي يقودنا في ملء النشاط الإلهي لنضع أيدينا على ما وُهب لنا. إن الميراث لنا، ولكن يعوزنا أن نُمسك به، ونثبت عليه أقدامنا. يجب أن يكون ملكًا لنا عمليًا. وبالروح القدس وحده نتمتع بما هو لنا. أمامك فريق من المسيحيين، إلى أي حد تتباين درجة استمتاعهم؟ لجميعهم المورد الواحد المشترك؛ جميعهم للمسيح، وكل ما للمسيح هو لهم. فلا فارق بينهم من حيث النصيب المشترك؛ فإن لكل واحد منا نفس الممتلكات؛ ومع ذلك تتباين - كما قلت - درجة التمتع. إن ميراثنا هو في المسيح؛ غير أن تمتعنا بذلك الميراث لا يتم إلا بقوة الروح القدس الساكن فينا، وهو الذي يقودنا إلى امتلاك ما هو لنا. هذا هو يشوع.

في القسم الأول من السفر ترى الشعب وهم يدخلون الأرض منتصرين على مدى الطريق من أريحا حتى حاصور، إلى أن يُخضع لهم آخر ملك، وتستقر الأرض بين أيديهم في هدوء؛ لقد أصبحت كلها لهم. وفي قسمه الثاني تُقسَّم الأرض على الأسباط، ويستولي كل واحد منهم على النصيب المُعيَّن له من الله. وبهذه الطريقة ينعشنا أن نتبين أنه حيث يكون الله متسلطًا وحيث يكون روح الله عاملاً في قيادة الشعب، فإن كل شيء يتوقف عليه وعلى الإيمان الذي يهتدي بقيادته وإرشاده.

لكن فكرة أخرى تراودني، لما جاء الروح القدس حلَّ على الرسل كما على الكنيسة بجملتها. ونقرأ في الأصحاح الرابع من الرسالة إلى أفسس أنه عندما صعد المسيح أعطى الناس عطايا، في طليعتهم الرسل الذين هم أسس الكنيسة. وعندي - في ما يتصل بسفر يشوع - أن يشوع نفسه هو كذلك رمز للروح ساكنًا في الرجال وأواني الوحي بسلطانه الإلهي، كما هو رمز أيضًا للروح القدس مقدمًا لنا المسيح عمليًا. وفي عبارة أخرى نرى في سفر يشوع تاريخ الكنيسة الرسولية في طريقها إلى امتلاك ميراثها بنشاط الروح القدس عن طريق الرجال الملهمين. أولئك رسل، طبقة خاصة من الأشخاص لم يستمروا حتى الوقت الحاضر إلا في كتاباتهم. وهذه نقطة مهمة أشدد عليها لأننا نرى نقيضها في سفر القضاة. فليس من يشبه يشوع، لم يكن له خليفة، قائد مُعيَّن

من الله. ومن قام بعده من القادة، إنما أُقيم لمواجهة طارئ خاص، لمهمة خاصة، أداها ثم اختفى من المشهد. وهي نقطة يجدر بنا أن نتدارسها. وعلى الأشخاص الذين يعتقدون بالخلافة الرسولية أن يتبينوا الدلالة الروحية لسفر يشوع وسفر القضاة ويقارنوهما معاً، فيرون من ثم أنه وإن وُجد الرسل الذين يدخلون بالقدسين في الحق الخاص بالكنيسة وميراثها السماوي، فلن يجدوا الرسل الذين يصونون ويحفظون القديسين في ذاك المركز. وهذا هو تاريخ سفر القضاة.

التي نظرة على ختام تاريخ سفر يشوع، تجد القائد الشيخ متشوقاً إلى ميراثه السماوي في كامل اليقين بما هو أمامه. وهي صورة طالما أمعنت فيها النظر.

يقول الناس إن العهد القديم قد خلا من الإعلان عن الخلود، وهذا صحيح من ناحية. ولكن هلا فكرنا في موسى ويشوع وهما يواجهان الموت؟ هل نظن أنهما تخليا عن كل عزيز لديهما في العالم في شيء من عدم اليقين؟ هل في خوف وريبة ألقى كلا منهما توجيهاته للذين جاءوا بعدهما ومضيا، إلى أين؟ أيّ منا - ولدينا الإعلان الخاص بإبراهيم أنه «كان ينتظر المدينة التي لها الأساسات، التي صانعها وبارئها الله» - يبادره الشك بالنسبة لذئك القائدين؟ أئنا يرتاب في أن موسى ويشوع كانا يدركان - بوعي - إلى أين هما ذاهبان وهما يتركان العالم، وأنهما راحلان ليستوطنا عند الله المبارك الذي رأياه وعبداه بالإيمان وحده، وإذ يمضيان من طريق الموت فلكي يدخلوا في حضرته فعلاً؟ هذا شيء مهم يروقنا أن ندرسه لنرى من خلاله إشارات خلودية تتخلل العهد القديم طوياً وعرضاً. وإنها لدراسة أعتقد أننا نحصل من ورائها لنفوسنا القدر الكبير من الفائدة. وإنا أشير إليها عابراً.

هوذا القائد الشيخ يجمع الشعب من حوله ويحذرهم بما يقابلهم. يحدثهم عما يكمن في قلوبهم؛ فإنه بروح الله عرف ما فيها. ويكلمهم عن خطر الارتداد. ويستطرد ليقول «انزعوا الآلهة الغربية التي في وسطكم»، فإن تلك الآلهة كانت قد احتلت مكاناً في أذهانهم، وبذار الهلاك والتجنب عن الله ألقيت في أحضان الشعب. وهنا أريد أخي أن يلاحظ في العهد الجديد ما يشبه هذا الذي نتكلم عنه. فهوذا بولس يستدعي قسوس الكنيسة التي في أفسس ويجمعهم معاً. هو رسول، وفي طريق الرسولية هو مسئول، كما الرسل الآخريين. لقد جمعهم معاً وحديثهم عما يقع بعد ذهابه «لأنني أعلم هذا أنه بعد ذهابي» - ماذا يحدث؟ هل يقوم خلفاء للرسل؟ كلا. بل يحدث عين ما قاله يشوع، «بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية. ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمر ملتوية ليجذبوا التلاميذ

وراءهم» (أع ٢٠: ٢٩ و ٣٠). كانت هنالك نهاية ليشوع الرسولي كما كانت نهاية ليشوع الحربي. فبعد أن يرحل القادة الملهمون هناك الإنذار بالانحراف والتحلل.

وهذا يدنو بنا إلى سفر القضاة ذاته. وكنت أهدف من هذا الاستطراء المفصل أن ندرك - على صحة - القاعدة التي يقوم السفر عليها، حتى يتسنى لنا أن نغاشي الروح القدس في مسار أفكاره بشأن السفر. ولئن وجدنا في سفر يشوع امتلاك ما هو لنا، فإن سفر القضاة يزودنا بتاريخ الشعب وقد نجح، أو خاب، في التملك. والواقع أن سفر القضاة تاريخ للتقدم الذي كان مفروضاً أن يكون. ففي سفر يشوع - طولاً وعرضاً - تتردد هذه العبارة «بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك». فلم تكن الرحلة في ذلك السفر إلا غزوًا للأرض في مجموعها، لا في تفصيل. فقد خطط القائد العظيم تخم الأسباط، وفي واقع الأمر كانت هنالك أعداد ضخمة من الأعداء يحتلون المدائن والحصون في وسط الأسباط. لكن الفكرة المفتاحية لسفر القضاة - وهي واحد من الأفكار الهامة في تركيب السفر - هي الخيبة في طريق التقدم. وكنا ننتظر أن سفرًا إلهيًا - سفر القضاة - يكون تأريخًا للتقدم، غير أن التاريخ الحرفي - التاريخ الفعلي - لسفر القضاة ينبئ عن خيبة في التقدم صوب الأهداف. وربما أنت تتسائل: ما العلة في هذا الشيء الخطير؟ دعني أؤكد لك يا أخي الحبيب أن الخيبة في التقدم هي الأصل في كل خيبة، وفي انحراف شعب الله عن إلههم. ونحن الذين لنا دراية بسفر القضاة نعلم جيدًا كيف أنه مليء بالخيبة المريرة المخجلة؛ وكيف أن التاريخ - في استطراده - لا يكشف عن إشراق بل عن مزيد من الظلام حتى تنتهي - مع نهاية الصفحة الأخيرة - بأنين حزين واعتراف باك بأنه إذا كان هذا هو تاريخ الإنسان، إذا كان هذا هو تاريخ كنيسة المسيح المعترفة، بل إذا كان هذا هو تاريخنا نحن، فلا يليق بنا، والأمر كما نرى، سوى العار وخزي الوجه. أوليس هكذا يا صديقي؟

خيبة في السير إلى قدام! دعني أضغط على الكلمات بشدة يا شريكى المؤمن. أين أنت يا تُرى؟ هل ما تزال واقفًا، لا تتحرك؟ هل تراك قانعًا بأن بركاتك جميعًا في المسيح؟ هل قانع بأنك تتحدث عن كونك فيه في السماويات، مباركًا بكل بركة روحية، وبكل شيء من هذا القبيل؟ هل هذا يكفيك؟ هل ترتاح على ما قد فعل المسيح، بكل ما تعنيه هذه الكلمة؟ انظر. قلبَ الفكرة على كل وجه: شخصيًا وجماعيًا، في ما يتصل بكنيسة المسيح كمجموعة. فإن كنا - أفرادًا لا نزال واقفين، فقد جرفنا التيار بعيدًا عن الله. إن كان في قلبي اليوم - أو في قلبك - شيء من الانحلال، معنى من معاني البعد عن الله، ثغرة بيني وبينه، فاعلم أن

الأصل في هذا جميعه هو أننا لا نزال في موقفنا: أننا وقفنا منذ اللحظة التي فيها خلصنا، أو جيء بنا إلى المسيح. فبعدما تحققت من فيض بركاتك فيه، ارتخت يداك عوض أن تشدّ العزم سعيًا وفي مزيد من الخطي للتمتع بذلك المركز. وأعلم يا صديقي العزيز أنه في اللحظة التي يراك الشيطان تسلّم له أن يحتلّ ما تركته شاغرًا، فإنه في ذات اللحظة يستغل تسليمك ويوجد مدخلًا إلى قلبك، وعلى أرض قلبك المستوية يلقي بذار التجنب عن الله. ومنّ منا يتصوّر مبلغ ما يحدث خلال عام لإنسان مسيحي قد تباعد عن الله في نفسه؟ وقوف بدلاً من التقدم! أكتب هذا كعنوان لسفر القضاة. والنتيجة هي الخيبة التالية، أفرادًا وجماعة على السواء.

هذه كنيسة المسيح خارجة من أيدي الرسل. آه! حتى قبل رحيلهم، قبل أن يؤخذ بولس إلى المجد، لم يتنبأ فقط بما سوف يحدث للمؤمنين إذا هم لم يسيروا وبشبتوا، بل قال إن الانحراف كان قد بدأ طريقه بينهم. حتى في الرسالة الثانية إلى كنيسة الله في تسالونيكي يقول إن «سرّ الإثم الآن يعمل» (٢ تي ٢: ٧) كما يقول في رسالة تيموثاوس الثانية «جميع الذين في آسيا ارتدوا عني» (٢ تي ١: ١٥) ويكتب يوحنا في رسالته الأولى «قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون» (١ يو ٢: ١٨). وذلك في قلب الكنيسة المعترفة. الأمر الذي نتبين فيه كيف أن الكنيسة في بكور تاريخها قد فشلت في أن تمتلك - في صورة عملية - الميراث الذي هو لها، ولذلك تعرّض هذا الميراث لسلطان الشيطان. والمسألة - لا تنس - ليست أن العالم قد دخل ووضع يده على شيء ما، بل أن الشيطان هو الذي دخل وامتلك. ففي جميع التعاليم الشيطانية الزائفة وهجمات على كنيسة المسيح - مما نراه على صفحات تاريخها منذ البكور - نرى عمل الشيطان في استغلال ما فشلت الكنيسة في استغلاله والإفادة منه، وهذا هو تاريخ الانحلال والانفصال عن الله.

تلك نظرة على الموضوع إجمالاً. وأنت ترى ما له من خطورة بالغة على الفرد والمجموع. وأعتقد أن لنا في سفر القضاة هذا صوتًا من الله - لنا في الوقت الحاضر. ومن المحقق أننا إذا تلفتنا حولنا، فلا نرتاب في أن الخيبة قد حلّت بنا. بل يؤسفني أن أقول إننا إذا ألقينا نظرة على تاريخنا، فلا يخامرنا الشك في خيبتنا أفرادًا. فلنصغ إذاً إلى ما يريد روح الله أن يقوله لشعبه الذي تبدت خيبته وتكررت بصورة تدعو للحزن؛ شعبه الذي لا يزال مستعدًا أن يفشل مرة أخرى، ما لم يتعلموا الدرس الذي يريد الله أن يكتبه على ألواح قلوبنا ذاتها.

الأصحاح الأول

الخطاب الأول: خيبة واندماج

نظرة إلى السفر في مجموعته تكشف لنا عن تقسيماته المتميزة: ثلاثة أقسام. أولها يضم أصحاح ١ إلى أصحاح ٤:٣ وقد نعطيته عنوان «الاستقلال عن الله». والقسم الثاني من أصحاح ٥:٣ إلى أصحاح ١٦. يرينا آثار ذلك الاستقلال: العدو يدخل وفي ركابه الاستعباد. صحيح، استعباد تحت يد العدو، لكن في أعقابه خلاص بيد الله لشعب تائب. ثم في القسم الثالث، من أصحاح ١٧ حتى النهاية. الإعلان الكامل لحالة القلب التي لها علاج واحد. في القسم الثاني، وهو الأكبر حجمًا، نرى العبودية الخارجية ثم الخلاص. غير أنك في القسم الثالث توشك أن ترى - من أسف - حالة قلب الشعب، حالة تسهّل مهمة الانحراف، كما نتبين منها أنه ما لم يتدخل الرب ويمتلك القلب فلا خلاص فعلي حقيقي. ومن هنا فإن تاريخ هذه الإنقاذات المخلّصة ليس تاريخًا صاعدًا بل هو - كتاريخ الامبراطورية الرومانية - تاريخ الانحلال والسقوط. فهذا شمشون، آخر واحد في سلسلة المخلّصين، وأشدّهم بأسًا؛ أضعفهم جميعًا، هو نفسه كان يحتاج إلى من يخلّصه، لا أن يخلّص غيره.

ألا أن كل شيء يشير إلى مجيء المسيح؛ ومع أن كلامًا لا يدور حوله، لكنه حقيقة تزيدها تأكيدًا حقيقة أخرى، وهي أنه لما لم يكن المسيح موجودًا كان الشعب يسير إلى أردا، بمعنى ويمعن في التحلل. وإنها حقيقة واضحة كذلك أن الأمور لا تسير اليوم في كنيسة المسيح إلى أفضل وأصلح. لقد ظهر في تاريخ الكنيسة من أقامهم الرب لاستعادة الحق، وهؤلاء قاموا

بعد تدريب عميق من جانب شعب الله، وكانوا فعلاً بركة للشهادة إلى حد كبير. لكن ألعنا نحن اليوم نقف على مستوى أرقى من مستوى آبائنا، مع أن لنا امتيازات أسمى؟ لقد وقعت قرعتنا في أحلك ساعات التاريخ الكنسي ظلمة وعتامة، وكان هذا الموقف بذاته أدعى إلى توكيد تلك الصرخة الملحة، ليس إلى مزيد من الأعوان البشرية، بل صرخة ونداء لمجيء المنقذ المبارك ليأخذ الكنيسة إليه، وفي سلطانه الإلهي يمنحنا التمتع بتلك الحصاة التي وهبنا إياها والتي من أسف قلما قمتعنا بها.

والآن، هلم بنا إلى القسم الأول، ولنتعرف إلى خواصه. موضوعه كما أومأنا هو الاستقلال عن الله؛ أو قل إن شئت: هو التمرد، مع قسوة اللفظ؛ تمرّد من جانب شعب هم مختارو الله. وعن هذا القسم تتفرع أقسام أخرى صغيرة، اثنان منها رئيسيان، ونبدأ الآن بأولهما؛ من أصحاب ١ إلى أصحاب ٥:٢. وهنا نتبين وحدة أو اتحاداً كان ينبغي أن يكون اختلاقاً وافترافاً. فقد اتحد الشعب بأعدائهم، عوض أن ينفصلوا عنهم؛ وتلك - من أسف - وحدة لا تكشف عن قوة. ثم في القسم التالي - من أصحاب ٦:٢ إلى أصحاب ٤:٣ - نجد التاريخ الداخلي للانفصال عن الله.

خذ القسم الأول كما قلنا: وحدة الشعب مع أعدائهم، وهنا يطالعنا التاريخ الملهم بمراحل تلك الوحدة. وقد يتبين لي أننا هنا نجد فعلاً صورة مصغرة لسفر القضاة بجملته. إنه ليبدأ بداية صحيحة؛ يبدأ بما يربطه بسفر يشوع «وكان بعد موت يشوع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم. فقال الرب يهوذا يصعد. هوذا قد دفعت الأرض ليده». الجزء الأول يبدأ بالنصرة وستجد هنا قوة الله في شعبه في الصعود وامتلاك ميراثهم؛ ونتيقن من ذلك ببعض الملامح التي لا تنبئ بالنجاح والأمل. لقد سبقنا فأومأنا إلى ما يدور حوله الجزء الذي أمامنا، وهو الانحراف عن كلمة الله البسيطة الواضحة؛ على أن الروح يطالعنا أولاً بالجانب المشرق. القصة كما نلاحظ وثيقة الصلة بتاريخ، أو سفر، يشوع. وجلّى، في الواقع، أن بعضاً من القصة التاريخية قد تدون في ذلك السفر. ولاحظ هذا الشيء: العشرون عدداً الأولى تحدثنا عن سبط يهوذا وتاريخ نصراتهم. وعدد واحد، الواحد والعشرون، يحدثنا عن تاريخ سبط بنيامين. ثم لنا، ابتداء من العدد الثاني والعشرين حتى السادس والعشرين تاريخ سبط يوسف؛ ومن السابع والعشرين حتى نهاية الأصحاح نقرأ عن أسباط ستة، الواحد في أثر الآخر، ولا شيء - طويلاً وعرضاً - سوى الفشل. وهيا ندرس معاً، فإن لنا لدروساً بالغة الأهمية.

يهودا في الطليعة: الله نفسه يقول إن يهوذا هو مقدم الصاعدين للتملك، للمزيد من المقتنى. ودعني أعنون هذا الجزء «قوة الله من خلال الحق». ويقدر ما ندقق في دراسة مدلولات الأسماء السبئية، بقدر ما تتجلى أمامنا مفاهيمها الروحية. إن يهوذا يعني - كما تعلم - «الحمد». ولكن ما الحمد؟ في أي تربة ينمو ويزدهر؟ الحمد ليس فورة انفعالية كما يحسب الكثيرون. وكم نخطئ إذ نحسب هكذا؛ كم محاولة منا لإيجاد حالة الانفعال، ونطلق على ذلك «حمداً وعبادة»، بينما ليس الأمر كذلك. لقد تولى يهوذا الطليعة القيادية طوال رحلة البرية؛ وكان هو السبط القيادي في الأرض؛ والأكثر، أنه من سبط يهوذا خرج المسيح.

ميراث يهوذا كل الجزء الجنوبي من الأرض، الجزء الذي يرمق الشمس. وبالقياس عينه فإن كلمة الله تنير ذلك الميراث العظيم القيمة. وكما أن حق الله هو أساس كل حمد صحيح، فإن سبط يهوذا يشكل مجموعة الحق التعليمي. وتلك هي القاعدة الوحيدة التي يقوم عليها السجود. ولكنه حينما يضحي الناس بالحق، حينما توضع على الرف كلمة الله، حينما تفقد حقائقها فعاليتها في النفس، يتضاءل الحمد وتتعطل انتصارات يهوذا. وهذا ما يؤكد الجزء الأول. وكأن الله يقول لشعبه: "إذا كنتم ترمعون أن تتمتعوا بالنصرة التي حصلها لكم المسيح، إذا كنتم تشاءون أن تضاعفوا التمتع العملي بالميراث الكريم الذي حدّد معاملة الرسل في كتاباتهم، فالسبيل إلى ذلك هو معرفة الحق". كان على يهوذا أن يصعد أولاً. ويهوذا - كما قلت - يحمل بعض سمات الضعف إذ نراه يأبى أن يصعد بمفرده لامتلاك ما هو نصيبه. يسأل شمعون - شريكه في قطعة الأرض - ما إذا كان مستعداً أن يصعد معه ويساعده في النصر؛ وهو - يهوذا - في دوره يساعد شمعون، على ماذا يدل هذا؟ حينما يكلفني الله بعمل ما، هل أتحوّل لطلب المعونة البشرية؟ وحينما أمر الله عبده موسى أن ينزل ويخلص شعبه، هل كان يمجّد الله ويطيعه وهو يعتذر ثم يعتذر، حتى يمنحه معواً في هارون؟ أوليست في هذا نقطة ضعف موسى؟ وحينما تطالبك كلمة الله بالطاعة، فتتحوّل إلى الموازنة البشرية، فاعلم فوراً أن بذار الضعف قد تساقطت على أرضك، ولا بد أن تفرخ فشلاً ذريعاً. هذا درس نتعلمه على حساب يهوذا وهو يستجدي معونة أخيه شمعون.

كانت هنالك - من المحقق - نصرته؛ ولكن إذ نقرأ ما بعد نجد الافتقار إلى القلب الموحّد الذي فيه ضمان نضوج أكمل ونصرة لله أوفى. فيبدو أن النصره لم تكن مستكملة في أمر قوات أدوني بازق العسكرية. ذلك بأن عدواً مشوّهاً ليس هو حتماً عدواً مقهوراً بالتام؛ ومع أنه مات

بعد ذلك، ومع أن أورشليم أُخذت وأُحرقت، غير أن الهزيمة لم تكن ثابتة دائمة. وجزء من هذه القصة وارد في سفر يشوع - كما قلت - وهو الجزء الذي يحدثنا عن الانتصار في موقعة حبرون وديبر - التي كانت تسمى قبلاً قرية سفر - وها هو يُذكر مرة أخرى في سفر القضاة، بما يميز الجزء الذي نتناوله. إن الأعداد الثمانية الأولى تحدثنا عن انتصار يهوذا وشمعون. واعتباراً من العدد التاسع حتى الخامس عشر نرى الإيمان في أحلى إشراقات الاختبار، من جانب كالب وعثنئيل وعكسة: ذلك المظهر الذي يؤكد سيادة كلمة الله، سيطرة الحق. أعني أنه إذا شاء يهوذا أن يُحصّل النصر ويحتفظ بها، فليكن الحق سبيله؛ وإن كان شعب الله يريدون أن تُكتب لهم المعارك الانتصارية، فطريقهم إلى ما يريدون هو إدراك المزيد من المعرفة بكلمة الله. وهذا هو مدلول حبرون. إن حبرون معناها الشركة؛ وقرية سفر - الوثيقة الصلة بها - معناها مدينة السفر أي الكتاب. إنها بذلك تعيد إلى أذهاننا فوراً هذا السفر المجيد، الكتاب المقدس، الذي فسكه بأيدينا والذي علينا يا صديقي العزيز أن نكسب انتصارات في ميدانه. قد تقول وما معنى الانتصارات في ميدان الكتاب؟ المعنى أن تمتلكه، تضع يدك عليه، تقتنصه من أيدي أعدائه، أن نجعل منه لأنفسنا سفر مباح، سفرًا يتحدث إلينا عن الله. ولذلك عندما أخذت هذه القرية، تغيّر اسمها إلى دبير الذي معناها «كلمة الله» - سفرًا يصبح كلمة الله. هذا ما يطبع نصرته يهوذا: الكتاب وقد أصبح كلمة الله. ولت يهوذا سلك في ذلك الطريق! ليتة اقتنى وامتلك كلمة الله وجعل من تعاليمه حقيقة حية، صوتاً لله يتحدث إلى شعبه؛ يومئذ ما كان للحمد والسجود أن يتوقف، وكانت القوة تتجلى في المزيد.

غير أن الكنيسة - من أسف - لم تقبل هذا: فقد هجرت التعليم على طول الطريق. فعوض أن تتحول قرية سفر إلى دبير، إلى كلمة إعلان حية، سحبت الكنيسة الكتاب من أيدي الشعب، وأودعته مخازن الأديرة الرهبانية، ومنعت الناس على تداوله والانتفاع به. عوض أن تقدّم للشعب أقوال الله الحية، أبعدت عنهم تلك الأقوال، وماذا كانت النتيجة إلا ظلاماً وخيبة؟!

وكذلك الأمر في ما يتصل بنا أفراداً. هب أنني أنا، أو أنت، هب أيّا منا كان له هذا الكتاب مغلقاً؛ هب أصبح بالنسبة لنا مجرد حروف مطبوعة، مجرد حروف تتألف منها الكلمة، دون أن يكون الحقيقة الحية: ما النتيجة؟ لا تقدم إلى الأمام. لا نمو إلى قدام. لقد درجنا على أن نسمع هذه النصيحة في العالم "كفانا تعليمًا، فنحن بحاجة إلى الممارسة والعمل"؛ وانتقلت الصيحة إلى المقاعد الكنسية فأخذ نصارى الاعتراف يتصايحون "لا نريد وعظاً أو

كرازة تعليمية، إنما تعوزنا الكرازة العملية". وقد كان لهم ما أرادوا وعوضًا عن التعليم - أي المناذاة بحق الله - لم يأخذوا حتى الكرازة العملية، بل ما هو نتيجة محققة لإهمال كلمة الله: كل ما يحلو في مذاق الإنسان الطبيعي.

على أن هنالك استثناءات، وشكرًا لله من أجلها. ولكن تلك، يا أخي العزيز، هي الحالة المحزنة التي وصلت إليها الكنيسة وقد تحوّلت عن كلمة الله. فلا نعجب كثيرًا إذا ما رأينا أن موجات البهجة صغيرة هيّنة بين شعب الله، والاحتفال بصالح المسيح هزيل. وكيف يتأتى الفرح والاهتمام إذا ضلحت معرفة الحق وتضاءل التمتع به؟ إذا أفسحنا مكانًا لكلمة الله بين الأرفف، إلى جوار كتب التاريخ والأدب؛ ولئن نظرنا إليها كمجموعة من الأدب الرفيع، لكننا بهذا الوضع لا نعدّها أقوالاً حية لله الحي. ويا حسرة يا إخوتي إذا كانت هذه الكلمة قطعة من الأدب؛ إذا كانت من أدب الناس، كما ادّعى واحد من الأعلام والعمالقة الكنسيين في هذه المدينة (نيويورك) وهو يبرّر عدم إخلاصه للمسيح ولكلمته؛ إذا لم تكن سوى قطعة من الأدب فقد خسرنا - أنا وأنت - صوت الله، فقدنا كل قوة. لقد أضاعت الكنيسة كل مرساة لها، وأخذ التيار يجرفها بعيدًا بعيدًا، ومن هنا تعليل الظلمة والانحلال اللذين يغلفان الجوّ حولنا في النصرانية.

البقية في قصة عكسة وعشئيل غاية في الإبداع والجمال. إن عكسة معناها «خلخال»؛ وهذه الدلالة توحى بزيئة التعليم في السلوك والحياة الأمر الذي يُتمم إيمان عشئيل الذي معني اسمه «أسد يهوه» أو «قوة الله». لقد طلبت عكسة حقلاً، أي ثمارًا، ولأجل هذا علمت أنها لا بد لها من ينباع مياه. وأنت تعلم أن إحدى ميزات الأرض المذكورة في الثامن من التثنية وفرة المياه. ومعلوم أن الروح هو الذي يُكسب كلمة الله الطراوة والجدة وقوة الانتاج؛ وما كان لدبير أن تكون اسمها الحقيقي من غير مجاري أو ينباع الروح المنعشة. وفعلاً فازت عكسة بالينابيع العليا والسفلى، وهكذا احتفظ الحق - سواء الحق الأعلى أو الحق العملي - بجذته وطراوته وطلاوته. وشبيه بعكسة ذلك القديس الذي يشتهي الحقل المرتوي - الذي يحنّ إلى الثمر لله. والواقع، أنه ما كانت لتوجد أي شكوى من تعطيل كلمة الله وتعطيل فعاليتها، لو وُجد كثيرون من أمثال عكسة الذين يأخذون هذه الكلمة على أنها ملك خاص لهم.

الكنيسة في مطلع تاريخها كانت تتمسك بالكلمة إلى حد ما؛ وبالقدر الذي كانت تتمسك بها كانت تنتصر. غير أننا في الجزء التالي نتبين دلائل الضعف. ففي عدد ١٦ نرى بني

القيني، حمى موسى: رابطة جسدية خالية من الرابطة الإلهية؛ صعدوا من مدينة النخل؛ أو نراهم قومًا هم بقية من مدينة أريحا؟ ليس هنالك ما يدل على أي حق لهم في أريحا. ومعلوم أن لعنة خرجت على كل من له علاقة بأريحا. ولكن هوذا قوم يصعدون من مدينة النخل ويستوطنون في قلب أملاك سبط يهوذا. وهنا يكمن سر المزيد من التحول عن الله، حينما يجد العالم ومؤثراته الشريرة جميعًا - حتى لو توفرت الرابطة الجسدية مع شعب الله - مكانًا في حضن الكنيسة. وثق يا أخي أنك ستري لهم نفوذًا في ما بعد. على أننا نجد هنا استثناءً فاضلاً تقريبًا. فهوذا يا عييل، زوجة حابر القيني، قد ذاع أمرها في ما اصطنعت من خلاص. غير أن بني القيني تركوا ذويهم مستوطنين عراد واستقروا مع إسرائيل، ويتضح أنهم كانوا مندمجين معهم قليلاً. إن ترجمة اسم حابر "النزيل" توحي بهذه المحالفة.

ثم يأتي بنا التاريخ إلى «حُرمة». وعندها حصل يهوذا وشمعون إحدى نُصراتهما معًا، ويبدو أنها كانت نُصرة كاملة لأنهم أبادوها جملةً. وأنت تقرأ من العدد ١٨ وحتى عدد ٢٠ عن انتصارات أخرى. والواقع إن هذا الجزء الأول يطالعنا بصفة رئيسية عن انتصارات فاز بها شعب الله. غير أنها انتصارات تشوبها - كما حاولت أن أشرح - حالات من الضعف؛ فقد أُلقيت بذور الضعف - من أسف - في تلك التربة البهية.

فاذكر إذاً أن ما يضمن لنا النصر هو سيادة الحق. فلا بد من سيطرة الحق إذا شئنا قوة من الله أو رجوعًا إليه. لا بد أن نحصل مرة أخرى على الحق، كلمة الله، ونجعل منه حقيقة حية لنفوسنا. وعند العدد ٢١ نصل إلى بنيامين. وكما رأينا في يهوذا صورة لسيادة الحق الإلهي، ففي بنيامين صورة لسيادة المسيح. فإن بنيامين هو «ابن اليمين» وأنت تذكر أنه هو السبط المحارب، القوي، رمزًا للمسيح في نصرته، على فخذه السيف كما نقرأ في مزمو ٤٥. وهو المسيح أيضًا الذي هو الآن الحاكم، القوي في شعبه. في بركة يعقوب لبنيه، نجد إنه بينما يشكل يوسف الميراث الثمر الذي للمسيح في شعبه، فإن بنيامين - الذئب المفترس - يعطينا فكرة المسيح قادمًا في الدينونة. وفي العدد القصير هذا من أصحابنا نلاحظ أن بني بنيامين لم يطردوا البيوسيين سكان أورشليم بل «سكن البيوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم».. لم يطردوهم! السبط المحارب الذي إن كنا نتوقع لأحد الأسباط نجاحًا فذلك هو سبط بنيامين، يفشل في طرد العدو من المدينة ذاتها التي كان الله يزمع أن يضع اسمه فيها.

وهيا بنا نطبق هذا على ذاتنا كأفراد. إن المسيح يجب أن يتبوأ عرشه في القلب. وأنا إن كنت قد تكلمت عن كلمة الله بوصفها أساساً لكل شيء، إنما المسيح هو موضوعها، ولا بد من الخضوع له في قلوبنا وحياتنا. نعم، لا بد أن يحتل عرشه في أورشليم، في المركز. المسيح يحتل عرشه على شفاهنا، على ذكائنا؛ ولنعترب بأن كل شيء يتركز ويدور حول المسيح مركزاً. أما إذا تجلت خيبتنا في أن نخلي ونظهر قلعة نفوسنا من كل ما يرتفع ضد معرفة المسيح، كل ما يحول دون سيادة الرب على أعماقنا الدفينة؛ فلنكن على ثقة أن أورشليم في قبضة اليبوسيين. أو ما فكرت في هذا؟ هل حسبت أنك قد تستمع بكثير من الحق، وقد تكون لك حصة كبيرة من الشركة، ومع ذلك فالمسيح لا يحتل عرشه في باطنك؟

طبَّقه على أمة إسرائيل، تفهم أنهم فشلوا في امتلاك المركز ذاته الذي سيضع الله اسمه فيه. ثم طبَّقه على تاريخ الكنيسة؛ وكم يحزننا أن يكتب التاريخ على أولى صفحاتها "الخيبة في إعطاء المسيح المكان الرئيسي". ويا صاحبي، هل أورشليم الكنسية في قبضة بنيامين؟ هل هي تعترف بالمسيح جالساً في كرسيه رأساً ومركزاً لكل شيء لأجل الكنيسة؟ خذ تلك الصورة التي تدَّعي، في صيحة مدوية، أنها كنيسة المسيح على الأرض. من يحتل العرش فيها؟ إنسان، هو المضل وضد المسيح. إنسان يحتل مكان المسيح، وكيلاً له على الأرض. يأخذ مكان المسيح، ومكان الروح القدس؛ ومعنى هذا أن أورشليم هي بالتحقيق في قبضة اليبوسيين لا تزال، في ما يتصل بكنيسة روما.

وخذ القطاعات الكنسية الأخرى التي يتوفر فيها قدر كبير من التقوى، وقدر كبير آخر من الرجوع إلى كلمة الله. هل أورشليم - في ما يتعلق بهذه القطاعات الفضلى - في قبضة بنيامين؟ هل المسيح هو المسيطر والحاكم؟ أو ما نرى أن الإكليروسية واللاهوتية والعرف - وإلى ما جانب هذا - تحتل مكان سيادة الرب يسوع في وسط شعبه؟ وفي ما يتعلق بنا لنذكر هذه الحقيقة: إذا ما كان للمسيح أن يحتل مكانه، فليكن هذا لا بالإسم بل فعلاً؛ وإذا احتله تبارك اسمه فهو حينئذ - وبصورة عملية قاطعة - السيد في وسط شعبه المجتمع، بحيث أن مشيئته لها المكان الأول مهما يكن ذلك مؤملاً على الجسد، وبحيث أننا نعترب بكلمته الكريمة. أوليست الخيبة التي تغشانا تردت إلى حد كبير إلى هذه الحقيقة وهي أن المسيح ليس على كرسيه، وأن اليبوسيين لم يُطرَدوا بعد؟ إن معنى اسمهم هو «الدائسون»؛ وكل ما في النفس مما ليس من المسيح يدوس كلمته.

لقد طالما شاهدنا في وسط شعب الله قدرًا صحيحًا من التقدير لكلمته، دون أن يصاحبه خضوع لسلطانه. فقد تكون على درجة ملحوظة من النشاط في التلمذ في الكتاب. وقد يطيب لنا أن نعرف كلمته، ولكن قلما ندرك - الإدراك الصحيح الفعلي - معنى الخضوع لتلك الكلمة المقدسة في جميع التفاصيل. والخضوع لكلمة الله، خضوع لسلطان المسيح إذ هو الناطق في الكلمة. وما لم نخضع للكلمة، لا نقدر أن نخضع له. أنت تراني أكرر وأعيد؛ ذلك أن قومًا يدعون أنهم طائعون للمسيح، راغبون في الاعتراف بسلطانه، راغبون في الاعتراف برياسته وسيادته. ولكن ما السبيل إلى الاعتراف برياسته؟ سبيل واحد: الانحناء لكلمته. والعلاقة القائمة بين شخص الرب نفسه وبين الكلمة، علاقة قررها الله تبارك اسمه، في ذلك المميز الذي ميّز البقية في كنيسة فيلادلفيا وهو حفظ كلمته وعدم إنكار اسمه.

من اليسير يا عزيزي أن نعترف بالمسيح في الوسط، وأن نجعل من اعترافنا صيحة، أو عنوانًا لطائفة أو جماعة؛ لكن المسيح في الوسط هو المسيح المطاع، المسيح المُكرَّم، المسيح المتبوع مهما تكن التكاليف؛ المسيح في الوسط معناها سيادة كل ذرة من حقه، سيطرة كل قطعة من كلمته على سلوكنا وطرقنا. ألا فلندكر سبط بنيامين في خيبته، ولنتعلم منهم الدرس، يوم خابوا في امتلاك أورشليم. فنحن عرضة أن ننكر اسم المسيح وسلطانه.

لنعبر لحظة إلى جانب آخر من هذا التاريخ المحزن، إذ لا أريد أن أخفي أن خيبة بنيامين في امتلاك أورشليم هي خيبة جذرية؛ تحمل في طياتها أشياء وأشياء. ففي ذلك العدد الموجز محور الخيبات التالية.

من العدد ٢٢ حتى ٢٦ نقرأ عن بيت يوسف صاعدًا إلى بيت إيل، وامتلاك بيت إيل شيء ضروري. والقارئ المسيحي يعرف جيدًا تاريخ بيت إيل ودلالته: بيت إيل معناه «بيت الله». وكما توحى أورشليم بمعنى سيادة المسيح، يوحى بيت إيل بحضور الله، ببيت الله. كان اسمها أولاً لوز - أي انفصال - مجرد انفصال ظاهري. طبق هذا على تاريخ الكنيسة أو على أية حركة في الكنيسة، وأنت ترى كيف ينطبق.

قد نشدد على مجرد الانفصال فنقول: لا يجب أن نفعل هذا؛ يجب أن نتخلى عن ذلك الشيء؛ يجب أن نرفض هذا الأمر، وهكذا. وكل هذه سلبيات: تقطع هذا وتقطع ذاك. سلبيات لا تتصل ببيت الله من قريب أو بعيد. لأنك إذا رغبت في حضور الله فيلزمك لا مجرد الانفصال بل الإحساس المقدس بحضوره تعالى.

تأمل مظهر الضعف في امتلاك بيت إيل. إذا كان الله قد وهبها للشعب فلماذا يبعثون بالجواسيس إليها؟ إذا فتلك ملامح الضعف. يوم كان موسى يلتفت إلى هنا وهناك، قبل أن يقتل المصري، لعلَّ أحدًا يراه: دلَّ على أنه لم يكن يتطلع إلى الله. ولما أرسل الشعب الجواسيس إلى أرض كنعان، كان ذلك مجرد عدم إيمان تجاوز الله عنه في صبره. وهكذا أرسلوا إلى لوز جواسيس، واستولوا عليها إذ استحيوا الرجل الذي أراهم الطريق إليها.

واعلم يا أخي أنه في اللحظة التي يساوم فيها الإيمان الفردي أي مظهر من مظاهر الجسد رغبة في الحصول على قوة روحية، اللحظة التي فيها نساوم: الزوج مع زوجته، أو الزوجة مع أسرتها؛ اللحظة التي نصطنع فيها شيئاً من التراضي مهما يكن هذا التراضي؛ اللحظة التي نستبقي فيها الجسد ونشفق عليه رغبة في التمتع براحة في بيت إيل: في هذه اللحظة أنت تطلق عدوًا يمضي من قوة وبني مدينة أخرى ويدعوها «لوز» بنفس الاسم. وما أكثر ما مضى أولئك الأعداء الذين استحياهم شعب الله، وأعادوا نفس الأشياء مرارًا وتكرارًا، ونصطدم بها في ذهابنا ومجيئنا ونرى من الشاق علينا أن نقهرها. فأنت - أو أنا - قد نصطنع نوعًا من التراضي في حياتك الخاصة وتدعو ذلك شيئاً «صغيراً» كما قال لوط (تك ١٩: ٢٠)؛ قد يكون هذا الشيء مبدأ - بمفرده - من مبادئ عدم الأمانة أو عدم الولاء للمسيح، لكنك تستحييه، تستبقيه، فيتطور إلى مدينة عظيمة تتلف عليك حياتك الروحية كلها.

وما أكثر ما استحيته الكنيسة من مواطني لوز! ففي نظام الرهينة بقايا اللوزيين. مبادئ أتت من الشرق وازدهرت في الكنيسة. هي تعلم وتنادي: بالانفصال عن العالم، أو الاعتزال عنه؛ بفساد المادة، وبعديد من صور قمع النفس، مما يحفل به تاريخ الكنيسة. غير أن ذلك الذي استحيته الكنيسة من لوز أنشأ نظام الرهينة بجملته حتى أنه غطى على بيت إيل، مكان الإحساس بحضور الله. وما الدير إلا قلعة لكل ما هو غبي وشرير، وذلك لأنه يعالج الاعتزال عن العالم دون أن يعالج مسألة حضور الله. هذا مجرد مثل أقدمه؛ غير أن اللحظة التي تجد فيها الانفصال خلواً من حضرة الله، فهناك بذرة الخيبة، هناك عدو مُستحيًا.

وما أوجنا إلى ذلك، إلى الإحساس بحضرة الله، الروح القدس في وسطنا.

هل لنا بيت إيل؟ أم هي مجرد لوز؟ هل نحن شعب مُفرز نقيم في بيت الله؟ هل هي حضرة الله؟ بيت الله؟ هل روحه القدوس هو المسيطر؟ أم ترانا مجرد طائفة أعطت ظهرها لكثير من المساوئ. لكن دون التمتع كاملاً بحضرته المقدسة؟

وفي مقدورنا الآن أن نتحدث عن خيبة أخرى، تتجلى في الأعداد من ٢٧ حتى نهاية الأصحاح. فنرى، بصورة واضحة، خيبة الأسباط الستة. وفي المطلع نرى منسى، رمز روح وحدة الغرض، إذ ننسى ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام. ترجمة الاسم - أصلاً - هي «نسيان»؛ وإذا لا نحفظ بيت الله تمامًا لجلاله، فما أيسر أن نعدم هذا التكريس الفكري الذي يطرح كل ثقل ونسعى قدمًا في الجهاد الموضوع أمامنا لكي نصل إلى الجعالة؛ حاسبين الكل خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربنا. وهكذا تنشأ الخيبة في السعي للأمام.

وبالتالي خاب أفرام. هو سبط يوسف الذي كان مدار كلامنا؛ وأنت تذكر أنه إذا شاب النمو خيبة ما، انعدم الإحساس بحضرة الله. والآن نحن أمام خيبة واضحة في الإثمار. فإن أفرام هو السبط المثمر، الذي يمثل العمل بين شعب الرب؛ العمل الذي هو الثمرة الطبيعية للإيمان - الإيمان الذي تظهره الأعمال كما يقول الرسول يعقوب. ولئن فشل منسى، لئن تبدت الخيبة في وحدة الهدف للسعي والركض، فإن أفرام يفشل بالضرورة. تتوقف أعمال الحياة اليومية وبضع العدو يده على ما ينبغي أن يكون لله.

بالطريقة عينها زبولون الذي معناه التكريس لله؛ بمعنى أنه إذا بدت خيبة من جانب منسى وأفرام، فإن زبولون يصبح أضعف من أن يقبض على مقتناه.

ثم لنا أشير الذي يترجم «السعيد» وهل نحن في حاجة إلى القول بأنه إذا لم يكن المسيح هو الفكر الرئيسي الغالب المسيطر، إذا لم تتمتع بيت الله، فإن أشير يفشل في طرد العدو من تخومه؟ وقل لي يا صديقي: ما الحزن أو غلاظة القلب، ما افتقارنا إلى البهجة، الذي نعترف به جميعنا لله؟ أليس هو فشل أشير، السعيد؟ اسمك أشير، واسمي أنا أيضًا أشير. هذا ما نتصف به ومتاز. فهل هو وصفك الحقيقي؟ هل إليك ينطبق كلام الرسول بطرس «تبتهجون بفرح لا ينطق به ومجيد» (١بط ١: ٨)؟ آه يا إخوتي: فرح لا ينطق به؟ فرح لا تقدر أن تبدأ في وصفه؟ فرح مجيد - مملوء مجداً - هو الذي يا أخي ينتظرنا تفكر في المجد؛ في كل الغبطة التي هناك؛ في تحررها من دنس الخطية ولوثتها، ومن كل شيء من هذا القبيل. هل أشير اسمك؟ هل يملأ قلبك الفرح المجيد؟ أم تظن أن ذاك لا يتم إلا في السماء؟ أوليس خليقًا بنا أن نعترف - عن أنفسنا وعن كنيسة المسيح - أنه إذا كان هنالك ما تبدت فيه خيبتنا أكثر من غيره فهو قطاع الفرح الروحي الذي يطبع الاختبار الصحيح السليم على الأرض؟!

قرعنا أن نجوز بركة مزعجة، تكتنفنا التجارب المتنوعة؛ عالمًا تطغي الدموع فيه على البسمات، لكن من الكذب أن نقول إنه عالم لا يتسنى فيه لأولاد الله أن يكونوا سعداء. وإذا ما اعتبرنا ميراثنا ونصيبنا، فإنه لمن سوء التفسير أن نقول إن شعب الله لا ينبغي أن يكونوا شعبًا سعيدًا. هل أشير الذي تحمله بين حناياك خاب في مطاردة سكان الأرض؟ هل القرى التي هي ملك الفرح المسيحي لا تزال مسكونة بالعدو؟ وما هو اللص الذي يسرق سعادتك؟ والشعالب الصغار المفسدة لفعال كرمك؟ يسير - يا حبيبي - أن نعرف العلة؛ يسير أن نكتشف ما أدى إلى ذلك، في نفسك وفي الكنيسة مجموعة. إن بنيامين ويوسف وأفرايم يروون لنا الحكاية.

ومجيء نفتالي الذي يمثل رجل القوة والجبروت. ويترجم «المصارع». ولكن ليس المصارع البدني، الوثائق في قوته؛ بل المصارع القوي لله؛ هذا هو ما في فكر الله من جهة المؤمن، وطبقًا لبنوته لله. هو يمثل قوة الإنسان، روح تلك القوة مع الله، الضعيف مع القوي. وهنا تعاودنا قصة العجز والقصور بعينها. فقد نسي الضعيف ضعفه، ومن ثم نسي الله مصدر قوته. فلم تعد له قوة للصراع، لقهر العدو الذي يضع يده على نصيبه.

وتُختتم القصة بدان، الذي كان يجب أن يقود ويدين أو يقضي. لقد خاب هو الآخر، ليس فقط في طرد سكان القرى، بل زادت خيبته في أن الأموريين دفعوه إلى الجبال أما هم فأقاموا في الوديان الدسمة. يا له انحرافًا! العدو يتملك الوادي. والوادي - لا تنسى - رمز التواضع والإثمار؛ الإثمار بفضل التواضع. ولأن سيدنا المحبوب نزل إلى وادي الموت، فقد أثمر لنا؛ ويقدر ما ندخل بالإيمان في حقيقة موته، ونطبق حكم الموت على أنفسنا بهذا القدر عينه نكون مثمرين لله. وهنا عوض أن نجد شعب الله يقيم في الوديان، نجد الأموريين. معنى اسمهم «المتكبر - المتباهي - المنتفخ». الأموري هو الذي يتكلم متباهيًا منتفخًا. هم شعب يتكلم كثيرًا. مكانهم - كما يحدثنا علماء الآثار، الجبال؛ هم سكان الجبل. يتحدثون باستعلاء، ويطردون شعب الله من الأودية. وإذا ما وجدت شعب الله يستسلمون للحديث بدلاً من الحقيقة، يكثر من الاعترافات، وينطقون بأقوال المباهاة، فاعلم أنه لا يوجد ساكن أودية متواضع، ومن ثم لا يوجد ثمر.

فلنحذر مجرد الكلام. وإذا ما تعرضت للكلام عن الموت مع المسيح والقيامة معه. سل نفسك: هل أمور ي يسكن الوادي أم إسرائيلي؟ قد نقول إننا بوركننا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، وهل هذه حقيقة حية في نفوسنا؟ لنفحص قلوبنا ولا نسمح للأموري أن يطردنا من الوديان.

وإليك مثلاً آخر من واقع التاريخ الكنسي: الإصلاح. خذ المشاحنات، ما السبب في حروب الثلاثين سنة؟ إلى أي شيء تُعزي الصراعات بين البروتستانت، إلا لقعقة الحراب بين الأموريين الذين يطاردون الأتقياء من الأودية؟ خذ أوروبا البروتستانتية بعد استقرار الإصلاح بقليل، وأنت ترى كثيراً من علماء اللاهوت، وقلة من التقوى. وفرة من الكلام، وفرة من الصراع حول التعليم، ولكن ما أندر القلب المتضع، والروح الوديع الذي يقيم في الوديان حيث تملأ الأمطار البرك، وحيث يكثر الثمر لله.

هي نقطة طيبة أن نقف عندها الآن وفي بالننا هذا الفكر عن الوادي. فلنطبقه على أنفسنا. إن الله يسكن مع المتواضع والمنسحق القلب. فهل أنت مُبَعَد عن الوادي شخصياً؟ هل طُورِدَت إلى الجبال؟ هل طُغِيَ كلامك الكثير بحيث نسيت مكان الخضوع للمسيح؟ وهل أبعدك الأموري إلى جبل الاعتراف المُجَرَّد؟ دعنا - باسم الله - نهبط إلى الوادي. لقد كان للأموريين مركبات من حديد، أما نحن فلنا روح الله. وروح الله أقوى من مركبات العدو. فإذا ما تحولنا، نستطيع - أفراداً وجماعة - أن نفوز بمكاننا في الوادي، وهناك نجد ثمرًا للرب.

الأصاحاح الثاني

من الجبل إلى بوكيم: علاقات متغيرة مع الله

زودنا الأصاح الأول بمخطط تاريخي لامتلاك الأرض أو الخيبة في امتلاكها. فكان مداره الشامل حول تسجيل الانتصارات المختلفة وانتزاع الأرض من العدو، لكنها انتصارات أخذت تتناقص حتى انتهى الأمر بانقلاب الأحوال انقلاباً عكسياً شاملاً. بحيث رأينا الشعب مطروداً من الأعداء إلى الجبال.

تلك هي الناحية الخارجية، الظاهرة. لكن الجزء الذي تتناوله الأول يطالعنا بالجانب الداخلي، الدفين، لعلاقة الشعب بالله، مع ما صاحب انحراف القلب عن الله من نتائج. هو مرتبط بالأصاح السابق ارتباطاً وثيقاً. غير أنه لا يتحدث عن نصيب الشعب، وإنما يدور حول موضوع أعمق جذوراً: الولاء لله أو عدم الولاء.

والأصاح لا يدور حول نقطة معيَّنة خاصة، بل هو على شمول واضح، دقائق تشغل حقبة طويلة من الأزمنة ومناسبات عديدة. فهو بهذه الطريقة تلخيص للسفر بأجمعه حيث يقرّر مبادئ تمت فيما بعد تفصيلاً. من أجل هذا فسوف تطالعنا ملامح هامة يفيدنا أن نتناول بعضاً منها في استفاضة قبل أن تنتقل إلى تواريخ القسم الرئيسي من السفر الذي نتناوله فيما بعد.

«وصعد ملاك الرب من الجبل إلى بوكيم». لكل شيء في الكتاب دلالة ومعنى، ومن المحقق أن هناك دلالات للأسماء أو المسميات الحافلة بكثير من الأفكار. والجبل هو المدينة التي تميز سفر يشوع. فبعدما عبر الشعب نهر الأردن وأتوا إلى الأرض حلّوا في الجبل، قبل

أن يهزموا قرية واحدة. وهناك أمرهم الرب أن يصنعوا سكاكين حادة يختنون بها؛ ذلك أنهم كانوا قد أقاموا في البرية زمناً طويلاً ضاعت معه شارة التلمذة لله. من هنا كان لا بد أن يُختن الشعب، إذ أنهم بعد الختان - وبعده فقط - كانوا مؤهلين للدخول في الحروب في الأرض.

والدلالة الروحية لتلك العملية على غاية من البساطة والوضوح. إن نهر الأردن - كالبحر الأحمر بسواء - يرمز إلى الموت والقضاء. مع هذا الفارق وهو أن البحر الأحمر يصوّر الموت والدينونة في ما يتصل بنجاتنا من مصر. علاقته ترتبط بمصر، الأرض التي كنا في طريقنا للخروج منها. فعند البحر الأحمر تحطم سلطان الخطية وسيادتها، مثلاً في فرعون وجنوده. ومن ثم انفتح الطريق من خلال الموت والدينونة، بموت المسيح وقيامته.

وفكرة شبيهة بها يقدّمها نهر الأردن. منه نتعلم الموت والقيامة، ليس من مصر بل إلى داخل الأرض. فإذا كنا في طريقنا للدخول إلى الميراث، يعوزنا أن ندخل عن طريق موت ربنا يسوع وقيامته. ولكن لا تنسَ أن الشعب سار على اليابسة؛ فوهم يجتازون البحر الأحمر للخروج من أرض مصر، وهم يعبرون الأردن للدخول في ميراثهم، لم يتكلفوا شيئاً.

وأنت يا أخي، وأنا، ما الذي دفعناه أو تكلفناه لكي نتخلص من غضب الله؟ ما الذي تنازلت عنه؟ ما الذي كان عليك أن تفعله للخروج من عبودية الخطية والشیطان؟ لا شيء، فقد سرت على اليابسة. كان أمامك حينئذ بحر عجاج يهددك بابتلاعك. وما من قوة بشرية كان في مقدورها أن تنقلك إلى الضفة الأخرى: أن تنقذك من جنود فرعون المرعبين. فما الذي خلّصك؟ لقد أعدت لك طريق مستقيمة، لم تكلفك أي جهد؛ وتم لك الإفلات من الفخ واجتزت أعماق البحر آمناً كما لو كنت تسير طريقاً سلطانياً. تلك كانت طريق الله.

ولأحدثن - هنا - مَنْ لم يخلص بعد. إن طريق الله من البساطة والوضوح بقدر ما استطاع الله أن يبسطها ويجلوها. فلا غرم عليك من عمل صالح أو شعور صالح. الكل قد عمله المسيح. وقد أكمل العمل.

أنت تحت الغضب والدينونة، والعالم بأجمعه تحتهما بسبب خطاياهم. ولكن هنا علاج الله، لقد نزل المسيح من السماء ليطلب ويخلص ما قد هلك، وفتح طريق النجاة لكل من يؤمن به. وفي صليب المسيح أرى الدم الذي أُعدّ للوقاية من الدينونة. وفي الصليب أرى الطريق مفتوحاً للنجاة من استعباد الخطية.

تطلع إلى طريق الله المفتوحة. تأمل في طريق خلاصك البسيطة. لا غُرم عليك للدخول فيها، إلا أن تأخذ مكانك خاطئاً مجرمًا هالِكًا. وطريق البحر الأحمر ليست شاقة. قد يقول الناس إنهم لا يستطيعونها، هم يخشون ألا يكون في مقدورهم الاستمرار في الحياة المسيحية. لكن ليست هذه هي النقطة. النقطة هي: هل أنت راغب في اتخاذ الخطوة؟ في أن تقبل المسيح؟ في ذات اللحظة التي فيها تقبل الرب يسوع المسيح مُخلَّصًا لك، يأخذ على نفسه أن يفعل لك كل شيء؛ وهو قد أعد الطريق. ليس أمرًا شاقًا أن تحصل على نجاة من قوة الشرير الأقوى من قوة فرعون بلا أدنى جهد من جانبك.

قد تقول: هذا شيء خطر، هذا تناقض. بل إن بعضًا من إخوتي المسيحيين يعترضون على أقوالي بأنها استرخا ص لطريق الخلاص وتهوين بأمره. لكنني مقتنع يا إخوتي بما أقول. ما الذي يعطل كثيرًا من شعب الله الأعزاء الذين لم يتحرروا من قوة الخطية في نفوسهم. الذين لا يدركون ما معنى الحرية؟ لماذا لا يأخذونها قضية مُسلمة تلك التي يجلوها العدد الثالث من رومية ٨ «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت»؟ فُكِّر مليًا. أو ما ذهبت الليلة إلى الله وجثوت على ركبتيك قائلاً له: "أحمدك أيها الآب المبارك لأن ناموس الروح قد أعتقني مما كان يقيدني في أغلال العبودية" ألا تفعل؟ ألا تقوله في قرارة ذاتك؟ ليس فقط أنك خاطئ مغفور، بل قديس عتيق، متحرر. إن كان كذلك فأنت معي على اتفاق حينما أندد بخطية وغلطة شعب الله العظمى، إذ يحسبون طريق العتق وعرة المسلك. إن سبيل الخطية هو الوعر المسلك؛ عبودية السابع من رومية هي العبودية القاسية؛ ولكن اللحظة - يا أخي - التي تمسك بها بقوة الإيمان بكلمة الله - هي اللحظة التي تتحرر فيها وتُعتق.

دعني أخبرك أنه يسير أن تُعتق وتتححر في نفسك. لكنني لست أعني أنه لا يكون تدريب بعد ذلك؛ وإنه لا ينبغي أن نسلك الأيام كلها هادئين، غير متكئين أو واثقين في الجسد. غير أن هنالك خطأً فاصلاً بين عبودية الخطية وحرية وبهجة العتق الذي يُعتق به المسيح شعبه. وأنا أرى هذا الخط في البحر الأحمر؛ في يابسة البحر الأحمر.

الأمر لا يكلفك شيئاً. فليس أنك تحصل على بركة ثانية، أو أنك ترنو إلى حياة أرقى، أو أنك حاصل على اختبار عجيب نادر. ما أكثرهم، بين شعب الله، الذين ينشغلون بالاختبار دون المشغولية بالحق. إن ما يعوزك هو أن تسير على اليابسة من خلال المياه. إن المياه من كل جانب تغطي رؤوسنا، وتوشك أن تدفننا في أعماق اليم. وما الذي فينا، ما هي قوتنا، حتى

نستطيع أن نتصدى لحظة لتلك المياه الغامرة؟ إن يمين القوة - يا أخي - التي أوقفت تلك المياه قد أعدت لنا طريقًا ميسورًا مَرَّ فيه. هي طريق الحرية الكاملة. وأعتقد أنه يعوزنا في يومنا الحاضر أن نردّد مرة أخرى تلك الصيحة النابعة من فرحة الفداء: شعبك يا رب شعب عتيق". أجل شعب عتيق، متحرر، لم يعد في استرقاق للعالم، لم يعد في استعباد للخضية أو الشيطان.

لكن هذا يعود بنا إلى الجلجال. ليس هذا تعسفًا، بل هي حقيقة ضرورية للتمتع بما كنا نتحدث عنه. وها نحن نأتي إلى الجلجال مرة أخرى. لكن كيف أتينا؟ هو موقع في أرض ميراثنا التي دخلناها سائرين على اليابسة. نتلفت حولنا، وفي كل اتجاه، فنجد وثائق التملك باستحقاقنا في ميراثنا كله. ثم ماذا؟ «اصنع لنفسك سكاكين». أما هنا فقد جئنا إلى ما يكلفنا: ليس بطريق ناموسي، ليس بوسيلة الجهد الإنساني، بل الغرم فيها على الكبرياء، على الاعتداد بالنفس، على الذات بكل ما تتشكل إليه من صور. إن سكين الله تذكرنا الآن - وبطريقة عملية - بحقيقة ما هو لنا بطريقة روحية. لقد دخلنا الأرض؛ لقد تحررنا وأعتقنا؛ غير أننا إذا شئنا أن نسير كمنتصرين، كأحرار، فلا بد من قطع سمة العالم، وليس لغير صليب المسيح أن يفعل ذلك.

أنت تذكر كيف كان يتكلم بولس في رسالة غلاطية، رسالة العتق، عن صليب المسيح. في الأصحاح الأول يقول «يسوع المسيح الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير». ويقول في الأصحاح الأخير «حاشا لي أن أفخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم». وأنت ترى في الأصحاح الأول أن العتق قد صُنِعَ لنا بالمسيح في الصليب؛ وفي الأخير يطبق علينا عمليًا بقوة الروح القدس.

يعوز شعب الله - يا أخي المحبوب - أن يترددوا أبدًا على الجلجال. فلا قوة لواحد من أولاد الله ما لم يختبر ليس فقط ضعفه، بل الموت. فإذا وقع حكم الموت عليه، فإنه يطبقه في بساطة الطاعة والإيمان، ومن ثم لم تعد له بالجسد ثقة. ذلك بأن صليب المسيح ليس فقط شعارًا له، ولا شارة حرية وسمة عتق، بل قد أصبح له حرية للتحرر، حرية قاطعة أعتقته من سلطان العالم ومن نشاط الجسد. ما أكثر الذين منا يعرفون ماهية هذا العتق الكامل عمليًا بصليب المسيح - عتق النفس من خلال سمة الموت. وأنت تذكر أن الشعب صعدوا من الجلجال فاستطاعوا أن يواجهوا أريحا بلا أدنى خوف، وأمامهم سقطت أسوارها. ثم عادوا أدراجهم من أريحا إلى الجلجال ليستجمعوا القوة مرة أخرى ليمضوا إلى عاي، ليقاتلوا مدن الأرض، ليواجهوا كل أشكال

التحدي التي أعدّها العدو. كانوا يخرجون من الجلجلال ليكسبوا نُصرة، ثم يعودون إلى الجلجلال ليتمتعوا بشمار النُصرة ويبقوا في الاتجاه الذي يجعل النُصرات الجديدة أمرًا ميسورًا.

يعرف بعضنا ما هو الخروج من الجلجلال. ولكن هل نعلم ما هو الرجوع إلى الجلجلال؟ يستطيع بعض منا أن يعودوا بالذاكرة إلى اختبار اجتازوه، وضعهم حتى تراب الموت. ولكن هل تعرف ما هي العيشة هناك؟ لقد سقطت على وجهك أمام الله. دانك الصليب. أوصلك الاختبار إلى التراب ذاته، وأبصرت وخبرت الدينونة الكاملة للذات، ثم رفعك الله، فانطلقت وفزت بالنصرة بقوة الروح. فهل رجعت إلى الجلجلال؟ هل رجعت إلى ذات المكان. حيث تذلت واتضعت؟ هل رجعت ومكثت هناك مرتاحًا، هناك حيث كان حكم الموت على كل شيء؟

يحدثنا سفر القضاة - وما أروعه حديثًا - أن الله كان في الجلجلال، إن الله كان يمكث في الجلجلال. إنه لم ينقل مقره من هناك. كان هناك ليلتقي بهم في اللحظة التي كانوا يحبون أن يأتوا فيها إليه.

ولا يزال الله في الجلجلال. لا زال يمكث في الموقع الذي يتحدث عن موت المسيح في تطبيقه علينا؛ وإذا ما شئنا أن نعرف - تمام المعرفة - ماهية التعامل مع الله، فعلينا أن نتعامل معه في الجلجلال. ليس في ذلك شبهة من روح ناموسية. ليس فيه ما يخيفنا ويزعجنا. آه ما أحلى صليب المسيح! فالصليب هو الذي منحنا سلامًا مع الله. والصليب هو الذي نجلس لتأمل فيه أول كل أسبوع. هو إشارة خلاصنا الأبدي. فهل تخشى الصليب؟ لا داعي أن تخشاه طريقًا لرجلك، كما لم ترهبه سبيلًا لخلاصك.

غير أن الشعب في سفر القضاة لم يكونوا أهلًا لمقابلة الله هناك. ففي نعمة الله صعد ملاك الرب من الجلجلال حيث الله؛ حيث كان تعالى قد حدّد موعدًا لملاقاة شعبه، وحيث هو أبدًا على استعداد للقائهم. وصعد إلى مكان، إلى موضع يختلف كل الاختلاف. ولاحظ كلمة «صعد»: إنها مقياس المسافة بين الجلجلال وبوكيم؛ وهي التي تجلو الفارق بين الموضعين. لقد هجر القوم مكان التواضع، واتخذوا لأرجلهم أرضًا مرتفعة، زاوية رفيعة مستعلية. ومن اليسير جدًّا - على الأفراد أو الجماعات - ارتقاء ذلك المصعد. فيه العنجهية الروحية، وفيه الثقة في الذات. كانت في الجلجلال سكاكين، لكن لم تكن فيه دموع مريرة.

ماذا عند الله ليقوله لرجل في الجلجلال؟ التعبير؟ التذكير بالتقصيرات؟ كلا! فحينما

يكسر الصليب إنسانًا، فلا داعي أن يكسره الله؛ إن اتضع إنسان في حضرة الله هناك، فالله لا يضعه، لا يذله. وإن كنت أدين مسلكي وحياتي، فلا داعي أن يدينني الله من أجله. إذاً فما أحلى الجلجلال مكانًا للشركة الحلوة المقدسة.

ولكن إذا كان أمام الله أن يبرح الجلجلال، إذا كان أمامه أن يلاقينا على أساس آخر، فماذا عساه قائل لنا؟ أمامه - حينئذ - أن يكشف تعاسة خيبتنا وانحرافنا عنه؛ أن يقول إنه أخرجنا من مصر وأدخلنا الأرض، وقال إنه لن يتخلى عن عهده، وإنه باقٍ على الأمانة لشعبه. لكنه يقول: لقد ضللتكم عني؛ عبدتم آلهة أخرى. فلمَ فعلتم هذا؟ ويستطرد فيقول إنه لا يقدر أن يباركهم، لا يقدر أن يبقى معهم بصورة عملية ما داموا انصرفوا عنه. يقول لهم إنه لا يستطيع أن يطرد أعداءهم من أرضهم. إنه يتركهم وشأنهم في سوء الاستعباد طوال حياتهم لأنهم عجزوا، خابوا، في ملاقاته في المكان الذي هو علامة فراغهم وخوائهم، وعلامة سيادته تعالى في كل شيء.

أنت ترى كيف قادنا هذا إلى صُلب الموضوع - وذلك هو السبب في أنني مكثت طويلاً عند الجلجلال، واذكر يا أخي أنه الدرس الذي يجب أن يحفظه كل ابن لله؛ هو درس لنا أفراداً، ودرس - كذلك - نتعلمه جماعة. فليس في الشيء المهم درجات في الأهمية؛ فهو ضروري لشعب الله في مجموعهم، أن يوجدوا في مكان الحكم على الذات، بنفس ضرورته للقديسين كأفراد. والاثنان - في الواقع - مترابطان.

والخيبة في تحقيق هذا كانت علة خيبة الكنيسة إجمالاً في الدخول فيما أعدّه لها الله. ومن اليسير أن نتبين كيف انحرفت الكنيسة عن الجلجلال. أماننا جماعات شعب الله. خذ، يا أخي، أية جماعة: هل تظن أنه يسير عليها أن تبقى في حالة الحكم على الذات والتنذل قدام الله؟ العكس صحيح في الواقع: الميل متوفر للتقصير؛ والعلة في ذلك هي نفس العلة في ما رأيناه في جميع الأسباط وقد فشلوا في طرد العدو. العلة هي أنهم جميعاً خابوا في الحكم على ذاتهم.

ألا فلنرجع أفراداً إلى الجلجلال، أو في القليل لنأت إلى بوكيم، موضع البكاء. ليكون لنا زمن بوكيمي، وقت للبكاء، إذ نرى بأعيننا كيف أن الله لا يمكن أن يستمر مباركاً إيانا بعدما أبدينا من فشل ذريع في إطاعة مشيئته المقدسة. وعند بوكيم يلاقينا الله. ولعلنا نذكر بوكيم مقدسة مباركة، طالما تحدثت عنها: بوكيم في العهد الجديد، السابع من لوقا. هنالك نفس يائسة لم

يكن لديها ما تقدمه للمسيح سوى خطاياها، وقد أتت بها؛ سكبها في دموع حارة عند قدميه، في عار وحزن. وماذا فعل لأجلها؟ هل التقى بها ابن الله القدوس؟ لقد كان الموضع، يومئذ، بوكيم؛ محل بكاء للخاطئة المسكينة، حيث استطاعت أن تأخذ مكانها الصحيح، وأن تجد فيه ما هو ابن الله لنفسها كخاطئة تاعسة. فإن كان من القراء من هو خاطئ، من يتحقق أنه ليس له ما يأتي به إلى المسيح سوى خطاياها، فليأت بها للرب يسوع المسيح، وسوف يجد أنه سيلاقيه هناك. ففي بوكيم ذبيحة، ذبيحة نزع الخطية إلى الأبد من أمام وجه الله.

تلك هي الحكاية: الشعب انحرف عن الله، وبسبب خيبتهم ها هو الله يتركهم، يغادرهم. غير أنهم تفكروا في الأمر، تأثروا في أغوار قلوبهم، ومن ثم صدر منهم الاعتراف، خافوا الله، وقدموا ذبيحة عربوناً على ثبات رحمة الله، واستعداده لمقابلة الذين يتحولون إليه.

نواصل بقية الأصحاح، وسنرى الحق ذاته الذي وجدناه في الأصحاح الأول. وليس - في الواقع - ما هو جديد في أصحاحنا كله. فهو يقدم لنا التاريخ بعينه، ولكن - في هذه المرة - من الزاوية الداخلية بالنسبة إلى الله، وليس بالنسبة إلى ميراثهم: الخيبة في ناحية العلاقة بالله، دون الخيبة في قلمك الأرض، التي كان من نصيب الأصحاح السابق أن يطالعنا بها. أما هنا فنقرأ عن الخيبة في الاحتفاظ بما هو لله. وإذا كنت لا أفوز بما هو ملكي، في الأمور الروحية، فسوف لا أعطي الله ما هو له في الأمور الروحية. إذا كنت أفضل في الاستمتاع بنصيب، فسوف لا أعطي الله نصيبه؛ والجزء الثاني كله من القسم الأول يحدثنا في بساطة كيف أن القوم أسقطوا الله من حسابهم، كيف تجنبوا عنه لنقص في الإيمان والطاعة في السير معه في امتلاك ما هو لهم. وقد تقول في قرارة نفسك: إن كنت لا أتمتع بأرقى نوع من الحياة الروحية، فتلك غلطتي، وأنا الخاسر. ولكن ليس الأمر كذلك يا أخي: فالخسارة لله. إلهنا هو الذي يخسر. فالشيء الذي يتمنى أن يجده منك هو الطاعة والسجود من قلب فائض ببركته بحيث يُعبّر عن ذلك الفيض في السجود والخدمة. نعم يا أخي لست الخاسر الرئيسي في هذا الميدان، إلهنا المبارك هو الذي يخسر «أيسلب الإنسان الله؟».

لنتأمل ملياً. «وعَبَدَ الشعب الرب كل أيام يشوع وكل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعد يشوع». لقد كان يشوع يعيش في حضرة الله المقدسة. كان إنساناً امتلك الله نفسه بالتمام؛ فكان هيئاً عليه أن يمتلك ما هو له. وليمتلك الله نفسي، فأمتلك أنا له كل شيء.

إن يشوع - كما رأينا - يمثل ليس فقط روح الله في نشأته إذ يجعل المسيح قائداً، بل هو صورة رجل الإيمان أيضاً، الذي يتمسك بالله في إيمان حي. لقد استطاع الشيوخ ويشوع - الذين عرفوا الله وتبعوه - أن يمسكوا بزمام الأمة معاً طوال حياتهم. ومن رحمة الله أن يقوم مثل هؤلاء الأشخاص ليحفظوا القديسين في حزمة الولاء لله. ومن أسف أنه ليس بيننا يشوع اليوم، فقد رأينا أنه لم يكن له خلفاء. فأنا أعتقد أنه يمثل الروح الرسولية في الكنيسة. وخذ بالك لزمان الرسل: فقد كان بولس والرسل الآخرون يربطون القديسين معاً؛ ومن ثم فقد صان الله الكنيسة عن الخيبة العامة المكشوفة وذلك باستخدامه قوة وسلطان الرسل في وسطها.

لكن الرسل ماتوا جميعاً، وليس لهم خلفاء. والجيل الثاني لكل حركة ونهضة، جيل خائب فاشل. فقد كان إسرائيل في زمن يشوع والشيوخ أمناً - ظاهرياً على الأقل - يعيشون في مخافة الله. لكن قام جيل ثان، أناس لم يشاهدوا أعمال الرب، وإنما أخذوا الحقائق عن الشيوخ، حقائق مستعملة، قديمة. لم يتقبلوها من الله مباشرة، وإنما تعلموها عن طريق غير مباشر، بطريقة ذهنية وليس في قلوبهم.

وما أيسر، على الجيل الثاني الذي يأتي في أعقاب أية نهضة، أن يختزن الحق في الدماغ دون القلب. ولدينا نحن الآن هذه الحقائق جميعها فوق أرفف مكتباتنا. استطعنا أن نبتاعها بالقليل من القروش؛ حقائق ثمينة عن الجلال وغيره من الحقائق التي كنا نتحدث عنها. لكن شراء شيء بنقد من جيبك أمر يختلف عن شرائه بشيء من ذات نفسك. أن تضع شيئاً في دماغك، وأن تضعه في قلبك، أمران مختلفان. وكذلك فيما يتصل بيشوع والشيوخ: امتلاكهم للأشياء، وهم رجال ذوو إيمان شخصي حي، أمر يختلف عن امتلاك الجيل الثاني لنفس الأشياء. ولقد جاء وقت - يا أخي - أرسل روح الله فيه صيحة وصراخ نصف الليل «هوذا العريس مقبل»، وكيف استولت هذه الصيحة على النفوس وجعلتهم يخرجون للقاء العريس! ما كان أدنى المجد وأقربه! ما كان أغلى الرب وأعذبه! ما كان أتفه العالم وأغربه!

اعتبر، تفكر، في البركات التي أعلنها روح الله: مسيح مجيد في يمين الله؛ كنيسة سماوية؛ والحقائق الثمينة كلها التي تتفرع عليها وتقترب بها. فأن نتحدث عن هذه الحقائق الكريمة شيء؛ وشيء آخر أن نخترنها في قلوبنا وهي التي أعلنها لنا الروح القدس. لقد مضى الشيوخ؛ الجيل الأول لهذه النهضة قد ولى، وقمنا نحن في مكان آبائنا، فهل لي أن أسألكم وأسأل نفسي: هل

الحقائق التي بين أيدينا مجرد حقائق تسلمناها من أناس أمناء، أم أننا نتعامل مع الله في شأنها؟ هل هي بيننا وبين الله؟ هل اختلينا مع الله في أمرها؟ هل وُجدنا في الجلبال شخصيًا بخصوص تلك الحقائق؟ أم أننا تعلمناها لأن فلائًا من الناس علمنا إياها وكان يعتنقها؟ القادة - أيها الإخوة - عطايا الله لنا، وإننا لنبارك اسمه من أجلهم؛ غير أننا لا نقدر أن نتبع القادة إلا أن يكونوا هم تابعين للمسيح. فلنتبع مسيحيًا حيًا في قوة الروح القدس وحضوره.

قد يستطيع لوط أن يتبع إبراهيم أينما ذهب. وهو لوط الذي لم يكن يسلك بالإيمان في حياته. لكن إبراهيم الذي ظهر له إله المجد وهو فيما بين النهرين، كان يتبع يمين المجد ذاتها خارجًا من بيته ووطنه وعشيرته، بل خارجًا عن كل شيء. ولماذا كان لوط يتبعه؟ لأنه ثبت عينه على إبراهيم. وإبراهيم - بدوره - سار لأنه ثبت على الله عينه. ولماذا خرجنا نحن يا إخوتي؟ لماذا اعترفنا بأننا حاملون العار من أجل اسم المسيح؟ هل تبعنا يد المجد الإلهي؟ أم قريبًا لنا أو عزيزًا؟ هل تبع الأبناء آباءهم، والزوجات أزواجهن أو العكس؟ هل تبعنا مَنْ نحب ونُكرم بحسب الجسد؟ أم تبعنا المسيح؟ هل سمعنا لإرشاد روح الله أو لإرشاد رجال الإيمان؟ يستطيع رجال الإيمان أن يقودوا، لكنهم لن يقودوا حقيقة إلا إذا تركزت العين على المسيح؟

دخل إبراهيم إلى الأرض وفي صحبته لوط. وتجرّب إبراهيم في ساعة شريرة ونزل إلى مصر؛ وأين ذهب لوط؟ إلى مصر معه. وذلك هو الموضع الذي ينقله إليه الجسد. فأنت تتبع واحدًا من رجال الإيمان، ولكن عوض أن تتبع إيمانه، فأياه شخصيًا تتبع. فإن يمينًا ذهب، فألى يمين تذهب أنت؛ وإن نزل إلى مصر فأليها أنت نازل! ثم عاد إبراهيم من مصر - أعادته يد الله الشافية؛ لكنني ما قرأت أن يد الله كانت على لوط لترجعه من مصر. ما قرأت أن الله تعامل مع لوط. والواقع أننا لم نقرأ أن لوطًا أخطأ وخاب خيبة محزنة مثلما خاب إبراهيم في مصر. لقد كان لوط مجرد شبح، ظل، يتبع إبراهيم هنا وهناك حتى جاء الوقت الذي لم يعد في إمكانه أن يتبعه بعد، يوم وقف يختار لنفسه كما نفعل نحن إذ نختار لأنفسنا. وأين اختار؟ نعم. إلى أي موضع ذهب اختياره يا إخوتي؟ وما اختيار الجسد؟ سهول سدوم الخصبة، حيث يد قضاء الله عليها. إن لم يكن إيماننا إيمانًا حيًا، إن كنا قد ورثناه تقليدًا بأي معنى، فسوف يجوز الامتحان إن عاجلاً أم آجلاً ويومئذ يواجها السؤال: إلى أين نسير؟ هل في طريق معبّدة سهلة؟ هل في طريق تستهوي الطبيعة والحاسيات الطبيعية؟ أم في الطريق الموحشة، طريق الانفصال لله كما سلك إبراهيم مع الله منفصلاً عن لوط؟

هذا هو الدرس الذي نستطيع أن ننقشه على هذا القسم الثاني: لقد عبد الشعب الله طالما كان لهم رجل إيمان يقودهم، وحينما أتت ساعة الامتحان كشفت عما كان مخبوءاً في قلوبهم؛ فانفصلوا، تحوّلوا، ارتدوا. ألا ليت الله يجدّد في نفوسنا هذا الدرس التاريخي. ألا ليتته يحفظنا من أن نتناول الحق كبضاعة (نصف عمر). ويجعله حقيقة حيّة لنا.

ونلاحظ أن هذا هو ما يطبع السجل الذي أماننا بتمامه. فنراه مطبوعاً في حادث دفن يشوع. فأنت قد تذكر أن يشوع دُفن في تمّة سارح كما يسجل سفر يشوع؛ وفي تمّة حارس بحسب تسجيل سفر القضاة. ففيما يتصل بالميراث الذي بالإيمان دخل إليه ممثلاً شعب الله، هو «تمّة سارح» «ميراث فائض». والواقع أن حصة الله، نصيب فائض. وإذ الأمر متصل بخيبة الشعب وانحرافهم عن الله، ففي أي حصة يقع قبر يشوع؟ في «تمّة حارس» نصيب من الفخار. فالوفرة، الفيض، تحولت إلى حفنة من التراب. وهنا الفارق بين الإيمان الحي والاعتراف الأجوف. فهل تقتني نصيباً من فخار، أم أن ميراثك ميراث كريم؟ هل هو حقل مخصب أم طين مجذب لا ثمر منه لله، ولا غذاء فيه لنفسك؟

لكن انظر إلى الجزء التالي. لقد مات يشوع فتحوّل الشعب عن الله؛ هم لم يفشلوا فقط في الحصول على ما لهم، بل بدأوا يعبدون البعل؛ يعبدون آلهة باطلة كاذبة؛ آلهة من صنعهم، آلهة الأمم الذين حولهم. ومن شعب لا يعرف الله أخذوا أفكارهم عن الله!

طالما تأثرت بختام رسالة القدس، رسالة حضن الرب، رسالة يوحنا الأولى؛ كما يروني أن أسميها. أقوالها الختامية، أقوال رسالة تخصّصت لإظهار المسيح والله أمام عيوننا، الله الذي هو محبة ونور. أعني بها قول يوحنا «أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام» (١يو ٥: ٢١). أو يقال لإنسان أراح رأسه على حضن الرب «احفظ نفسك من الأصنام»؟ أو يقال لإنسان كان يسلك في النور، كما أن ذاك في النور، أن يحفظ نفسه من الأصنام؟ أو يقال لإنسان يعرف الآب والابن أن يحفظ نفسه من الأصنام؟ أو يقال لمسيحي أن يحفظ نفسه من الأصنام؟ أو نحن بحاجة إلى التحذير من الأصنام؟ مادام روح الله قد حذرنا منها، فهناك خطر منها.

وما هو الصنم، الوثن؟ فالإنسان قد يخلق من عمله صنماً، أو من العالم، أو من أمه أو من ولده. ولكنك، إن تذكر، تعرف أن الوثن في عُرف الكتاب له صلة بالعنصر الديني. فهو الذي يستهوي الضمير، ومن ثم يدخل التكريس بالطاعة. فما هو الوثن؟ لما صنع بنو إسرائيل

وثناً، صنماً، في البرية، ماذا كان وثنهم؟ سمّوه الرب؛ حيث يقول هارون «غداً عيد للرب». ولما صنع العجل الذهبي قال «هذه آلهتك التي أخرجتك من أرض مصر». فكان هارون التاعس يحاول أن يربط الحق الذي عرفه عن الله بالوثنية التي كانت في قلوب الشعب. فكان ما صنعه هارون خليطاً من الإثنين، خليطاً يستهوي حاسيات الشعب الدينية. فالوثنية، فيما أفهم، سواء للمسيحيين أو غير المؤمنين؛ هي ما يستهوي العنصر الديني فينا.

تلقت من حولك: هل بين شعب الله وثنية من أي نوع؟ هل هناك خليط مع حق الله؟ يقال عن الشعب هنا أنهم عبدوا البعليم؛ أي "الأرباب - الأسياد". وروبية الله وملكيته حقيقة؛ فهو تعالى يمتلك البشرية. هو إله كائن عليهم؛ ولكن كم هناك من آلهة وأرباب، أقامها الناس لأنفسهم؛ ببعض عناصر الحق الإلهي - هذا صحيح - ولكن بعنصر فقط. وما هو أن تنحرف عن الله وتبعد البعليم؟ أن تلغي إحدى صفات الله وتستبدل بها صفة بشرية في مكانها.

خذ مثلاً: أنا قد أعبد إله القوة كما هو معلن في الكتاب؛ لكن إذا لم أضف قداسه تعالى إلى قوته، فأنا إنما أعبد وثناً. قد أعبد إله الحكمة والمعرفة كما يعلنه الكتاب؛ ولكن إذا لم أضف إلى هاتين الصفتين محبته وبره، فأكون قد وضعت أركاناً لإقامة وثنية لنفسي. وهكذا أفهم الوثنية؛ فهي ليست كما نظن: إنغماساً مطلقاً وانحداراً إلى الظلمة من النور الكامل؛ بل إقحام العناصر المظلمة على دائرة النور. وأنت تذكر لأحد المزامير وصفاً له قيمته «آلهة الأوثان». أي أن الأمم الوثنية لهم - في الظاهر - ما يتحدث عن الحكمة والقوة والفطنة، بدون الحقيقة. أوثانهم لها عيون ولا ترى، وآذان ولا تسمع، وأيدي ولا تلمس، ولا تتكلم بفمها. وفي عبارة أخرى، هناك تشابه في الظاهر ينبئ عن القوة والحكمة وعن كل شيء، لكنه على أي حال شيء قد تجرّد من الحقيقة. إذاً عبادة الأصنام معناها وضع القلب والضمير تحت سلطان ما هو ليس حقيقة إلهية معلنة للنفس. ليس هو إله الكتاب، ليس هو الله الذي يعلنه الروح القدس. فيه شيء مضاف من أفكار الإنسان، وبذلك صار بعللاً، وثناً، صنماً.

وأى إله تعبد هذه المدينة (نيويورك)؟ وما هي الصورة الإلهية التي في مخيلة الناس في هذه المدينة أو في هذه البلاد؟ هل هو الله في كل صفاته التي تحدثنا عنها؟ هل هو الله الحي؟ هل هو الحي ربي (الله الحي والذي يراني) الذي واجهته هاجر؟ آه على أن الإله الذي يعبده الناس هو صنم بهذا المعنى، صفوة من أفكار الناس بدلاً من إعلان الله.

ملحد شهير، سقط تحت ضربة يد الله منذ بضعة أسابيع. كن قد أقام تمثالاً مهيباً ليعبده الناس. هل كان هو إله ربنا يسوع المسيح؟ الإله المعلن في كلمته؟ كلا؛ كان بعلاً؛ سيداً على شهوات الإنسان؛ هو ما يروق الإنسان: فهو إذاً إله كاذب.

أما فكّرت في علة الاتهامات التي يعدها الأصحاح الأول من رسالة رومية، عن فساد الإنسان؟ ما السبب في ذكر تلك الاتهامات المرعبة؟ فهو - الأصحاح - ينطوي على مجموعة من الفساد الذي لا يُنطق به، الفساد الذي لا يمكن أن يصدقه سوى مَنْ يعرف ما هو قلب الإنسان. لكن لماذا تُذكر هذه الاتهامات في سياق رسالة تتعامل مع الناس الذين لهم معرفة الله؟ إليك السبب يا أخي: إن أضاع الناس معرفة الله، إن تحوّلوا عنه، إن أفسدوا الله، أفسدوا أنفسهم. وقد أسلمهم الله لذهن مرفوض لأنهم أفسدوه تعالى، ولم يستحسنوا أن يبقوه في معرفتهم. ومن هنا ازدهار تلك الرذائل والمساوئ الوثنية.

تفرّس - مع النبي - من خلال ثقب الحائط وتطلع إلى مخادع تمثال الغيرة في الهيكل. وانظر الرجاسات المرعبة التي لا يمكن تصورها: رجاسات بشرية في دركات من الإسفاف لا حدّ له. أنت تقول: كيف لشعب أن يرى في ذلك عبادة دينية؟ ولكن لا عليك يا أخي فذلك عين ما يفعله الناس أجمعون؛ هم يرتدّون عن الله المعلن في المسيح ويضعون إلهًا من مادة تصاويرهم، تخيلاتهم، لينفسوا عن شهوات قلوبهم. ومن هنا كثرة الفساد باسم الدين. وإنه لأمر يربنا أن نتصور أنه إذا كنت - أنت أو أنا - أتحول عن طاعة الله، وأبتدئ أعبد إلهًا من تصاويري وخيالاتي، فإن الله يسلمني لشهوات قلبي الفاسد.

وبقية الأصحاح تطالعنا بخطوة إلى طريق الشفاء؛ وذلك من رحمة الله. لقد تحول عنه الشعب، وأقاموا أصنامًا من صناعتهم، أصنام الأمم الذين حولهم. فأسلمهم الله لعدو أقبل عليهم كالطوفان ووضع يديه عليهم وأخذهم. ثم استصرخ الشعب رحمة الله تحت حكم أعدائهم القاسي فأقام الله لهم في رحمته قضاة يخلّصونهم. ومن هنا دخول القضاة. كان الانحلال أولاً؛ ثم العبودية، ثم طلب العون. ثم إقامة منقذين - في رحمة الله - يردونهم وقتياً، ليعودوا للشر ذاته.

هذا هو الدرس الذي سوف يلاقينا بين وقت وآخر في الأصحاحات التي أمامنا. ولست أنوي أن أبقي عنده طويلاً في الوقت الحاضر، وإنما أشير إليه كفكرة خطيرة. إن الله لا يقيم

يشوع آخر، لا يسترد ما تحطم. إنما يقيم قاضيًا لغاية محددة يتمها القاضي فيمضي في طريق الأرض كلها، ثم ينزل الشعب بقلبه إلى الشر مما يقتضيه منقذًا آخر، شفاء ثانيًا عن طريق قاضي آخر، ثم تسوء الحال: من ضعف إلى ضعف أشد، حتى تقارب الحال الظلمة الحالكة، الظلمة بتمامها.

من ختام الأصاح الثاني ومطلع الأصاح الثالث نتبين نتيجة هذا العبث بأمور الله. نحن لا نلمس أثرًا لنصرة واضحة. وحتى الإنقاظات لم تكن إلا جزئية إذ يبقى العدو في وسط الشعب كأحجار وأشواك شهادة لنتائج عدم إيمانهم ولامتحان قادم.

وما أصدق أن تكون حقائق الحال في النصرانية شهادة ضد الكنيسة. ولا يعوزنا الكثير من الأدلة - أيها الأحباء - على أن الكنيسة قد انحرفت عن محلها ومكانتها الأصلية. فوجود الشر الأدبي والتعليمي داخل حدود الاعتراف المسيحي، والخبث الروحي الذي يبدو جليًا كقوة شيطانية، يعلن الحقيقة الواضحة: وهي أننا قد فشلنا في الاحتفاظ بالوثيقة التي تنطوي عليها النعمة الممنوحة لنا كلها.

وفضلاً عن ذلك. ولعله لا يفوت الإيمان (وكم نحتني عزاء من هذا الفكر) إن وجود هذه الشرور في الكنيسة المعترفة امتحان للطاعة والإيمان. ولا ينبغي أن تدهمنا أو تطوينا الحالة التي تكتنفنا. فإن اشراقات الإيمان تزداد ضياء في الظلام. وفي السفر الذي أمامنا أمثلة عديدة على الإيمان الذي يلمع عن طريق المفارقة مع المحيط الذي حوله. فليتنا نتعلم ألا تنهزم قلوبنا بسبب الخراب الذي حولنا، بل بالحري نتدرب تدريبًا صحيحًا. وليتنا نتبين غرض الله إذ يترك الشر حولنا، ليس لكي يغمرنا بل لكي نهزمه. وليكن لنا من القائمة التي تسجل - في الأربعة الأعداد الأولى من الأصاح الثالث - الأعداء الروحيين: ليكن لنا حافز منها، لا مثبط يفشلنا. وليكن لنا إيمان كالب، الإيمان الذي لا يشيخ ولا يهزل. وفوق الكل، ليكن لنا الاتجاه النفسي الصحيح القوي: متجنبين كل استعلاء، غير متكئين على الجسد.

وأستودعكم هذه الكلمة ختامًا: لرجع إلى المكان عينه الذي نستطيع أن نلتقي فيه بالله كما هو، في الجلجال. وليت الرب إلى هنا يهديننا، وهناك - يبقينا.

الأصحاح الثالث

عشائيل و إهود و شمجر

رأينا في الأصحاح الثاني كيف أن الله - بسبب عدم إيمان وعدم أمانة بني إسرائيل في ما أبدوه من نكوص في التقدم لمطاردة الأعداء - قد أعلن أنه سوف لا يطرد الأعداء من الأرض، بل يتركهم أشواكاً في جنوبهم، شهادة دائمة على عدم أمانتهم وعدم طاعتهم. وفي الوقت ذاته يكونون تهديداً مستمراً لشهادتهم ووجودهم القومي. ولك أن تتصور أمة - أمة - تقيم فيما بينها وتحتل قسمًا من أقاليمها أمم أخرى ليست فقط عديدة بل تناصبها العداء إلى التمام: ليس فقط عداء لأشخاصهم بل لمنظمتهم وصور حكومتهم، ولكل من يذهب إليه فكره؛ وإنك لتفهم أن وجود أمم معادية من هذا الطراز - حتى من الجانب السياسي - من شأنه أن يهدد أي كيان قومي.

هذا من وجهة النظر السياسية؛ ولكن في التطبيق على أمة يقوم كيانها شهادة دينية، شهادة لله؛ وإذ تدخل الله في الحساب، فما أشد الخطورة على شعب أن يستقر وفي وسطه أخلاط من الأمم، وأشد خطراً أن يندمج معهم. وكما كان مستحيلاً على إسرائيل أن يُظهر الولاء والإخلاص لله وأن ينفذ ويتمم ناموسه ويخضع لحكومته. كان ذلك استحالة؛ ولذلك فقد كان بقاء هذه الأمم غير المقبورة في أرض كنعان ليس فقط شهادة على خيبة إسرائيل بل تهديداً متصلاً لاستقامتهم وأمانتهم. مما كانت نتيجته في النهاية سبيهم إلى البعيد النائي. وها نحن في الواقع نتدارس النتائج في هذه الدروس التي أمامنا في سفر القضاة. تلك ناحية؛ والأخرى تجدها في الأصحاح الذي أمامنا. فقد ترك الله تلك الأمم هناك

لامتحان أمانتهم. وهذا درس هام وخطير. فأمامنا شعب كان وجوده شهادة على فشل ماضي. ولكن تبارك الله، فإنه لا يقف هناك. فإن كان شعبه، بسبب عدم إيمانهم وعدم طاعتهم، قد أساءوا إليه وإلى ذواتهم، فإنه لا يتخلى عنهم. إنه إله الصبر التام والاحتمال الطويل المدى. فهو يدهمهم لنتائج عصيانهم: هذا شيء أول؛ ومن خلال النتائج عينها يستخرج امتحانات جديدة لطاعتهم في المستقبل.

وهكذا كانت تلك الأمم التي تُركت في وسطهم لتجربهم وامتحانهم، يوم كانوا يختلطون بإسرائيل في المدى الطويل، اختباراً مستمراً لوفاء وطاعة الأجيال المتعاقبة لإثبات ما إذا كانوا يبتغون أن ينفذوا الآن ويتمموا مشيئة الله ويطردوا العدو القابع هناك. وبعبارة أخرى: كان بقاء أولئك الرجال - طالما بقوا - شهادة دائمة على فشل ماضي ودعوة لرجوع في الحاضر.

لنطبق هذا، فإنني شديد الاقتناع بأن شعب الله العزيز يخور في غالب الأحيان بسبب نتائج عصيانهم - وبالصواب يخورون. فيقول أحدنا: لقد أهنت الرب، وتحالفت مع العدو؛ وانحنيت تحت نير لا أقوى على التحرر منه؛ وأنا في مركز لا أستطيع الخلاص منه. فلا جدوى - إذا - من محاولة طاعة الله فيما بعد. والخير في أن أستسلم. وتلك يا أخي طريق الشيطان. فهو أولاً يقيد، ثم يقول لك إنه ليس في مقدورك الفكاك؛ يَجْمَلُ لك سبيل العصيان، ثم يوحى إليك بأنه لا جدوى من فعل شيء بذاته في طريق الله. فأنت إذاً عبد حتى الممات.

وهنا دعنا أيها الحبيب نضرب بالبوق انتصاراً، بوق المعركة. ليقبل كل منا لأخيه إن لا مكان للاستعباد أو السقوط والعصيان إلا ولنا أن نعتمد فيه على قوة الله لخلاص يتجدد. قد لا تحصل الثُصرات الكاملة بذاتها التي كنت تحصلها من قبل، ولكن لا تنس أنه ليس من الصواب ولا من الإيمان أن ترتخي يدك وأن يأخذ منك اليأس. فإذا التمسست إله الجنود، فأنت إذاً تلتمس من لا تعرف الهزيمة سبيلاً إليه. فالنصرة على راياته حتى إذا كنت جندياً يتراجع. وإذا كنت - مثل سبط أفرايم - قد نكصت على عقبيك في يوم القتال، فهو - ذاك القائد الجبار - لا زال يستجمع شمل قواته المتفرقة ويعود فيقودهم لملاقاة العدو. وتلك سبيله ولو لم يبق لك في الحياة على الأرض سوى يوم واحد.

إن الرب يستنهضنا أيها الإخوة الأحباء. وذار أن نخضع لما يبدو ضرورة حتمية. فليس أمام الإيمان ما هو حتمي إلا قوة الله التي تلبسنا الثُصرة. ولنباعد اليأس فإن وجود العدو ذاته الذي تركناه - يقيم من حولنا في عدم الإيمان والعصيان - هو مجرد اختبار جديد. فهل نشق

الآن في الله؟ هل نعلم عليه؟ هل من هذه اللحظة نجد الشجاعة ونمضي قدماً في تنفيذ المخطط الذي رسمه لنا منذ البداية؟

وهذا ينطبق على قطاع الاختبار الروحي للفرد؛ على روابط الحياة جميعاً، على كل تحالف صنعناه مع العالم، مع العدو، على كل ما يسيء إلينا وإلى شهادتنا. كما ينطبق علينا كجماعات، على شهادتنا المتحدة إذا كنا قد فتحنا الباب فدخلت في وسطنا وأقامت مبادئ وعادات تنكرها مشيئة الله وحق كلمته. وإن كان يصدمك ظرف امتحان، أو مقاومة من العدو، فاذكر هذا، أولاً وقبل كل شيء: فقد تركت هذه جميعاً لتتعلم ما هي الحرب، لتتعلم الآن معنى أن أحارب حروب الرب؛ لأتحدث - حتى في هذا اليوم المتأخر - بالسلاح الكامل وأمضي إلى ساحة الوغي لأكسب المعركة التي كان يجب أن أكسبها منذ زمان، زمان طويل. ليس في هذا ما يشجع؟ أليست هي طريقة جميلة يختطها الله؟ أليس أسلوباً مؤثراً أن يكلمنا عن وجود العدو فيما بيننا؟ كما لو أراد أن يقول: قد سمحت للعدو أن يبقى هناك لأختبر إخلاص طاعتكم لي.

وكيف واجه إسرائيل يا ترى هذا جميعه؟ كيف تجاوزوا مع دعوة الله، لامتحان أمانتهم؟ يخبرنا العدد الخامس أن بني إسرائيل «سكنوا»، استقروا. واستقروا أين؟ في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. قائمة من الأسماء لا ريب عندي في أن كلاً منها يؤدي معنى خاصاً. ولنحاول أن نتبين ما تنطوي عليه من دلالات. فالكنعانيون "تجار"؛ والحثيون "بنو الرعب"؛ والأموريون "كلاميون"؛ والفرزيون "متسلطون"؛ والحويون "قرويون"؛ واليبوسيون "دائسون".

وكلها تمثل مبادئ روحية تحكم السلوك؛ إذا أنت سكنت حيث السيطرة لواحد من هذه المبادئ الروحية، فاعلم أنك في الظروف عينها التي وُجد فيها إسرائيل. إن صدمتك في روابطك أو موافقتك - شخصية كنت أم كنسية - بعض هذه المبادئ، ثق أن الله فيها امتحاناً لمزيد من طاعتك. فانظر إليها لحظة.

خذ الكنعانيين أولاً؛ «التجار». أولئك الذين يتنون الأشياء لمغرم فيها. هم تجار، لا يعنيه الحق الإلهي؛ وإن تناولوه فلأسباب متنوعة: لبعض نكسب مادي. والبعض لمغانم اجتماعية، والبعض الآخر لمجانبة الصراع البغيض؛ الصراع مع من يحير. وكل هذه الصور من تناول الحقائق الإلهية،

متاجرة كنعانية، تداول لكلمة الله ينطوي على المخادعة. هب أنني أتعامل بها بطريقة ذهنية؛ هب - مثلاً - أنني كالأثينويين أحاول أن أحصل من كلمة الله على ما هو جديد، ليس لمواجهة مطالب الضمير والقلب، بل لمجرد المتعة الفكرية؛ إذًا فهذا مبدأ كنعاني. فإذا ما تبين لنا أنه في وسطنا شيئاً من هذا - ويؤلمنا أن نُقر بوجوده - فلنطرده هذا المبدأ، مبدأ المتاجرة في حق الله.

وهناك قدر كبير من هذا الصنف. فنقرأ في النبوءات أنه سوف لا يوجد كنعاني في بيت الرب (زك ١٤: ٢١). وهو اسم يطلق على مختلف أشكال وجود العدو في أملاك الله؛ الكنعاني هو التاجر الذي يتعامل في الحقائق الإلهية من غير اهتمام حي بها.

ونقطة أخرى: قلت إن تلك مبادئ شر. ولكنك تذكر أن رسالة أفسس تعلمنا أن مصارعنا مع أرواح شريرة؛ فحيث تصطدم بمبدأ شرير، فأنت إذًا أمام شخصية شريرة. خذ مثلاً تلك الشخصية التي استهوت الناس فصدقوها إلى الآن. هو يود أن يحو نفسه من أذهان الناس. هو الصورة المتجسدة لكل صور الكبرياء والعظمة الذاتية. ومع هذا فإن هدف الشيطان هو أن يشكك المسيحيين في وجوده. أو - حتى لو صدقوا - يرتابون في حضوره أو في صورته الحقيقية. ذلك بأن الشيطان يريد الناس أن يتصوروه كائنًا فاسدًا. وقد كدت أقول إن الشيطان لم يكن كائنًا فاسدًا بالمعنى المتعارف. فالجسد - من أسف - هو بكل شهواته واحد من خدام الشيطان المنتجين المثمريين، لكن الجسد ليس هو الشيطان ذاته. والإنسان الذي يمضي في فساد له ليس بحاجة إلى الشيطان ليعاون في هلاكه.

الشيطان يتحول إلى ملاك نور. هو يتاجر في المبادئ، وحيث تجد مبادئ مغلوطة فهناك الشيطان نفسه: هنالك الشخصية، وهنالك أيضًا المبدأ. فإذا وُجد بين شعب الله روح المتاجرة الذهنية في كلمته. فأنت إذًا لست فقط أمام مبادئ كنعانية، بل أمام أرواح شريرة؛ أمامك قوة الشيطان تتصارع معها. وهكذا الحال مع هذه المبادئ التي نتأمل فيها.

أما الامبراطورية الحثية فقد كانت واحدة من أعظم الإمبراطوريات في الأزمنة الغابرة. ونعلم من الآثار أنهم كانوا جنسًا قويًا صلب المراس يختلف عن سائر الأجناس، وقد انتشروا فوق رقعة كبيرة من الأرض. وهكذا كانت الإمبراطورية الحثية ضخمة في زمن من الأزمنة. وقلنا إن الاسم يترجم "بنى الرعب". مبدأ الخوف، والجبن، والإحجام عن التقدم للأمام حيث يريدنا الله أن نتقدم - ذلك هو المبدأ الحثي. وغريب أن نصفه بالقوة الجبارة ذلك الشيء الذي يحدثنا عن الضعف. ولكن - في أسلوب يوحنا بنيان - الخجل هو الرفيق الذي لا يستحي، كما أن الخوف هو الشيء

الذي لا يخاف ولا يتهيب. ولعلنا لا ندهش فإن أول مطلب بعد الإيمان - في رسالة بطرس - هو شجاعة الجندي (٢بط ١: ٥). والخوف - لا تنس - هو الخوف من الإنسان، ومن النتائج، ومن السير على الماء. ومن السلوك في طريق الطاعة الضيق. وما أقسى ما يملك الخوف على شعب الله ويباعد بينهم وبين القتال من أجل الله، القتال بروحه وفي قوته.

والحثيون في كل مكان، لو سمحت لهم لأقاموا في وسطنا. فيغلقون أفواهنا فنهاب الكلام. وإلا، فما الصمت القاتل الذي يتفشى بين شعب الله الحبيب؟ لماذا الشهادة الباهتة الضئيلة في الإنجيل، في الكرازة؟ لماذا الخدمة الواهنة بين القديسين؟ لماذا الأصوات القليلة - والخافتة على ندرتها - في الصلاة والتسبيح في الجماعات؟ أليس لأننا أجزنا للحثيين المقام في وسطنا؟ فأنت تخاف أن تنطق بكلمة للرب يسوع، تخشى أن ترفع صوتك شاكراً، أن تكون في طليعة المصلين والمسيحين للمسيح يسوع. أنت ترهب أن تقف بجانب المسيح، وأن تعترف به تماماً؛ تخشى أن تفعل هذا الأمر أو ذاك مما يقنعك به الضمير وكلمة الله. إلا إن امبراطورية الحثيين طويلة وعريضة، تمتد إلى كل مكان؛ وإقامتهم في وسطنا شهادة على خيبتنا في طردهم. ولكن - والحمد لله - وجودهم ذاته فيما بيننا دعوة منه إلينا للنهوض لمطاردتهم؛ ولنفعل ذلك لتتخلص من الخوف، وكل رعب، وكل تخاذل، وأن نتقوى في الرب وفي شدة قوته.

والأموريون بعد الحثيين: وهم على نقيض؛ "خوف" ضده أو مقابله "كلاميون". الأموريون كلاميون باستمرار، فخورون بالكلام الكثير. كلام هو إذاً بلا قوة. أوليس صحيحاً أن الكلام لعبة يسيرة؟ نعم ومن الهين الكلام حتى والشعب يخشى الاعتراف الصحيح؛ هين أن نتحدث عن أفكارنا. ولكن حين كنت أتكلم عن سبيل الإيمان في الاعتراف بالمسيح والشهادة له، لست أعني الأسلوب الأموري الذي هو مجرد صوت كله خواء، كلام والسلام. ومن السهل أن تنطق كلاماً لا يستند الاختبار، وذلك هو الأموري. وحيثما وجدنا المبدأ بيننا، مبدأ الكلام والسلوك الوضع، كثيراً من الكرازة وقلة من الاختبار؛ فلنتحقق يومئذ أن بيننا عدواً لا بد من طرده.

ثم لنا في الفريق التالي، الفرزين، روح القوة البشرية المتسلطة. لكنه ليس التسلسل الإلهي، ليس هو الخضوع لله، لمشيئته، لكلمته، لكل ما يعبر عن تلك المشيئة. بل هي الروح المتعالية، العنجهية، والترفع، ذلك أن الفرزين يمثلون النبالة، الطبقة الحاكمة، المسيطرة، الواجبة الطاعة والتطلع إليها، ليس لفضل ما يعلمونه بل لفضل ما هم أنفسهم عليه.

وعلى الضفة الأخرى الحويون. وفريقان يشيان معاً. فالنبالة تصاحبها الطبقة الدنيا،

الأقل. فأنت إذًا أمام نبيل ومزارع: طغمة الكهنوت والعلمانيون كما يقال بين الناس. والنتيجة أنك تصطدم باليبوسيين الدائسين لكل ما من الله، يطأونه بأقدامهم.

أولئك هم الأعداء الذين يقيمون وسط شعب الله؛ وما زالوا ليومنا، ولعل لهم مكانًا في قلوبنا، مستقرًا دائمًا. والشيطان يستغلهم للإيذاء قدر ما استطاع: فماذا عسانا فاعلون إزاءهم؟

هنا نأتي إلى أول بيان مفصل عن العبودية؛ والعجيب أن واحدًا من هؤلاء الأعداء يذكر في هذا الاسترقاق غازيًا منتصرًا. فيحدثنا تاريخ أصحابنا أن بني إسرائيل تزوجوا مع تلك الأمم، ارتبطوا بهم بأوثق الرُبط، تعاملوا معهم كأنهم قطعة أصيلة من أمتهم. والنتيجة إنهم اتخذوا آلهتهم معبودة، وكل معتقداتهم الدينية وممارساتهم وعباداتهم. وبالجماهير القديسين الذين وقعوا في الشرك بالتزواج من أهل العالم. «وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟». وغير المؤمن هنا لا يعني بالضرورة ملحدًا علنًا، لكنه على أية حال غير مؤمن بخلاص النفوس. وبأحزنًا على البيوت الخالية من المسيح، القلوب المتوجعة، والحيات المحطمة: وكلها جاءت نتيجة لإغفال كلمة الله البسيطة. ولكن عودًا إلى القصة. فمن أجل هذا باعهم الرب لأيدي أعدائهم. والعجيب في الأمر أن العدو - كما قلت - ليس واحدًا يقيم بينهم، بل هو بمبعدة عنهم، من مكان قصي، من بين النهرين. فقد بيعوا لأيدي كوشان رشعتايم ملك آرام الذي حكمهم بقضيب من حديد طيلة ثماني سنوات حتى صرخوا للرب عونًا، استصرخوه فأرسل إليهم مخلصًا في شخص عثنييل.

وتلك خطوة أولى في طريق العبودية الفعلية. ولمن أُستعبدوا؟ لو عرفنا طبيعة السيطرة الفعلية الأولى على شعب الله - ليس العدو الأول الذي اتحدوا معه، العدو الأول الذي استحيوه بل - العدو الفعلي الأول الذي عني بأمرهم: عندئذ نقطة الابتداء لجميع القديسين في الظروف المماثلة. فمن هو؟ أليس واضحًا أنه خارج الأرض إطلاقًا؟ هو بعيد عن المكان الذي منحه لهم الله؛ وهذا يوحي بفكرة الانفصال عن الله والبُعد عنه. هو يا أخي ملك آرام الذي يترجم اسمه "رفعة" وكبرياء. وفي مناسبة أخرى يوحي اسم «آرام» برفعنا في المسيح. وإن كانت هنالك رفعة، بدونه، فإن الشخص الذي يأخذ مكان المسيح هو من المحقق أشرّ عدو يوجد؛ تمامًا كضد المسيح المقاوم والمرتفع، فإنه الأشرّ والأردأ. وبحق يسمى ملك آرام هذا، ملك الرفعة والارتفاع، بحق يسمى كوشان رشعتايم، الذي يترجم "سواد الشر المزدوج" الشر المتعاضم. فإن كوشان: أسود. وأي شخص، أي مبدأ، يأخذ مكان المسيح هو أسود مضاعفًا. تلك هي

الفكرة. فليست المسألة مسألة فساد أدبي، أو فساد في التصرف، بل في المبدأ. وحيث رفعة المخلوق بعيداً عن المسيح وسيادة الله نفسه، فهناك العبودية تحت ملك آرام ما بين النهرين. وآرام هي مذود البشرية. تقع «فيما بين النهرين»: دجلة والفرات. ففي آرام تطورت وترعرعت قوة بابل؛ وإلى أرض آرام سُبِّي شعب الرب، لأن بابل وثيقة الصلة بآرام.

كل ذلك حافل بالمعاني. وتحضرني الذاكرة الآن بالخطاب الموجه إلى كنيسة أفسس في الأصحاح الثاني من سفر الرؤيا، في ذلك الخطاب نرى - جنباً إلى جنب - فكرة انفصالهم عن الله، استقلالهم عنه، وحقيقة ترك المحبة الأولى. ومعناه إحلال شيء آخر محل المسيح، وهذا الشيء هو رفعة الذات. والحكم موجه ضد تلك الكنيسة «أزحزح منارتك من مكانها». ومعنى آخر السبي الأخير نتيجة لهذه الخطوة الانفصالية الأولى عن المسيح.

هكذا آرام ملك بابل - هنا - يستعبد الشعب؛ وهو أول من يتسلط عليهم نتيجة لارتفاعهم واستقلالهم عن الله. والسبي البابلي هو الأخير، النهائي، يوم سُبِّيت بقية يهوذا إلى بابل، وبدأت أزمنة الأمم. أي أن حكومة الله قد انتقلت بتمامها من بيت داود إلى ملوك الأمم. وفي عبارة أخرى: الخطوة الأولى تتضمن الأخيرة. وهذه قاعدة في طرق الله، ذات أثر تطبيقي يكاد يكون عالمياً شاملاً: الخطوة الأولى تتضمن الأخيرة. وهذه السيطرة، سيطرة ملك بابل على الشعب، هي نهاية الارتفاع والاستقلال عن الله. فالاستخفاف ومهادنة المبدأ الباطل - وفوق الكل الاستخفاف بما هو أصل لكل صور الشر - علامة محققة على أنك لا بد أن تصيبك النتيجة التاعسة كلها، نتيجة ذلك الشر. خذ قضية أبونا الأولين. لست أجادل في أن الثمرة ذاتها - ثمر الشجرة - لم يكن بها ما يخلف هذه النتائج التي جاءت بعد الأكل منها. إنما عصيان الله هو الذي أنتج الويل جميعه، والتعاسة والانفصال عن الله، مما كان ولا يزال.

طبقه على المسيحي. فإذا ما تعطلت شركتك مع الله، فقد تحوّم مرفقاً على مملكة شعب الله، قد تبقى فترة أطول وسط القديسين وكل ما له صلة بأجوائهم؛ أما إذا لم يكن لقلبك علاقة بالله، إن ارتفع قلبك بالكبرياء، فأنت بعيد عنه. مثلك مثل سفينة مراساتها جبل قوي، لكن الجبل انقطع. قد تبقى السفينة - بعض الوقت - إلى جانب الشاطئ؛ لم يجرفها التيار بعد، وللنظرة العابرة هي آمنة كغيرها من السفن؛ ولكن ما دام الجبل الذي يربطها قد انقطع، فإن قليلاً من ريح، قليلاً من ريح تعليم مثلاً، قليلاً من المد يكفي لإبعادها. ولماذا يضل شعب

الله فجأة - على ما يبدو؟ ذلك لأن الحبل الذي يربطهم به تعالى؛ حبل الشركة، كان قد انقطع من قبل. فإذا حدث ربح تعليم، وتجارب العالم، فلا شيء سوى الجرف.

والآن لنرَ علاج هذا الاستقلال عن الله. مَنْ الذي استرجعهم؟ ماذا من مبادئ الحق أنقذهم من مبدأ عدم الإيمان هذا؟ هو عثنييل الذي أقامه الله مخلصاً لهم. ولاحظ أمرين متصلين به، يذكرهما الكتاب بهذا الترتيب «قضى لإسرائيل وخرج للحرب». القضاء أولاً، ثم الصراع مع العدو. ولعلك تذكر أنه في ميادين كثيرة، في معارك عديدة، ترك الله العدو يهزم إسرائيل. ذلك أنه لم يشأ أن يرتبط اسمه بهم يوم لم يكن من جانبهم قضاء، حُكم على الذات. فإذا لم يحكم شعبه على ذاتهم، لن يستطيعوا الخروج للحرب. ونقرأ في سفر التثنية: أنه حينما يخرج الشعب للحرب، فليحفظوا ذاتهم من الشر. وهذا ما فعله عثنييل. فالشخص الذي كان عتيدياً أن يحررهم من قوة وسلطان الاستقلال عن الله ينبغي أن يأتي بهم على وجوههم؛ أن يقودهم كما إلى بوكيم، مكان البكاء، وهناك يقضي لله قبل الخروج للحرب.

ولماذا - حينما يتصدى لشعب الله مبدأ شرير يناوئ الله - تكون لديهم قوة يسيرة لمعالجة الشر؟ لماذا يرفع الشر رأسه فلا نقدر أن نمضي لمواجهة كما ينبغي: بقوة الله؟ أليس لأننا نخرج قبل إدانة ذاتنا؟ لأننا فشلنا في أن نضع وجوهنا ونسأل الله أن يمتحن قلوبنا ويستأمر كل فكر لطاعة المسيح أولاً؟ وبعدها نتعامل مع الشر. الإنسان الذي يدين نفسه - يا إخوتي - في حضرة الله هو الذي يستطيع أن يخرج ويحصل نُصرة لله ويهدم الظنون وكل علو يرتفع ضد معرفة المسيح. أليس هذا صحيحاً؟

لكن لندرس عثنييل أكثر. لقد رأيناه من قبل بطلاً في معركة دبير، بطلاً في ذلك الصراع المرير في الجنوب، ذلك الصراع الذي أكسب الشعب قوة الشركة مع الله. فقد استولى على قرية سفر «مدينة السفر» وأطلق عليها اسم «كلمة الله الحية».

عثنييل معناه أسد الله: قوة الله لا قوة الإنسان؛ وهو الذي أخذ هذا الكتاب، الذي نؤمن أنه الموحى به من الله، وجعل منه - عملياً - كلمة الله. فالرجل الذي يقضي لإسرائيل أو يحكم عليه، المبدأ الذي يأتي بشعب الله للحكم على الذات، هو المبدأ عينه الذي يدرك ويوقن أن في هذا السفر الكريم لنا كلمة الله التي تفحص قلوبنا وتمتحنها. وبها، ككلمة الله، نخلص من الاستقلال عن الله. أليس هذا صحيحاً؟ هب أن الكبرياء قد رفعت رأسها، والاستقلال ظهر بين شعب الله، كيف السبيل إلى الخلاص منهما؟ أليس بأن كلمة الله حقيقة حية بالنسبة إلينا، وأن

نخضع لسلطانها؟ كم أتمنى أن أسمع عن نهضة بين شعب الله؛ بل بالحري عن إيمان ناهض. ولكن ما ميمز النهضة؟ هل هو الانفعال، والرغبة في جمعنا معًا بنوع من المحبة الطبيعية؟ تلك ليست أركان وعناصر روح النهضة الصحيحة. من أمثال ما طبعت به عصور التاريخ الكنسي العظيمة. فالنهضة لا تتم بهذه الوسيلة، ولا على هذه الصورة؛ إنما سبيلنا إليها تذكير الضمير والقلب والذهن بكلمة الله؛ سبيلنا إليها خضوعنا لسلطان تلك الكلمة المقدسة.

إذا كان لشعب الله أن يتحرر من مشيئاته، هل هناك من سبيل سوى الخضوع لكلمة الله؟ أنا لا أستطيع أن أفرض إرادتي على أخي. قد أرى أنه يتصرف ضدًا لمشيئة الله؛ فكيف أهدم مشيئته؟ ليس بإقحام مشيئتي، فهي - كمشيئته - تالفة رديئة. ولكن بتوسيط كلمة الله؛ وإخضاع أخي لها؛ وعندئذ يزول سلطان الشر المضاعف، اسوداد الشر، شر الانفصال عن الله؛ وعندئذ يريحنا الله من تلك الروح: روح الأنانية، والإرادة الذاتية. هذا هو الدرس الذي نراه هنا مكتوبًا على هذه الهزيمة الأولى؛ فإن أول استعباد للذات والاستقلال قد هدمته الطاعة لكلمة الله وقوة الإيمان الحي.

لكن دعنا نتجه لحظة إلى عدو آخر ونُصرة أخرى: قوة على النقيض تمامًا من القوى التي درسناها. قوة وثيقة القرب، ذات جانبين. وبقيّة الأصاحاح تتناول أحدهما حتى العدد قبل الأخير؛ كما يحدثنا هذا عن الجانب الآخر، الفلسطينيين. فأنت إذاً أمام عدوين: أحدهما - موآب - على الجانب الشرقي عبر الأردن؛ والفلسطينيون على الجانب الغربي، عند البحر الكبير. إنما لنا عن الفلسطينيين لمحة قصيرة.

موآب، كما نعلم، تربطه بإسرائيل صلة الدم. فهو سليل لوط قريب إبراهيم. فالموآبيون إذاً ذوو قرابة مع الإسرائيليين. لكن علاقة لوط بإبراهيم كانت كما نعلم أيضًا علاقة جسدية - في معظمها - وجسدية إطلاقًا في ما يتعلق بأنسالة. ومع هذا فلم يكن لإسرائيل عدو أشد مرارة وعنادًا من الموآبيين والعمونيين أقربائهم.

وأنت في بالك ما قاله سيدنا مرة: إن أعداء الإنسان أهل بيته. بمعنى أن أوثق روابط الطبيعة بدلاً من أن تكون معوانًا في أمور الله، تصبح في الغالب عائقًا. على أن هذا ليس هو الدرس الوحيد. فإن موآب يعني شعبًا كما يعني مبدأ، مرتبطين ظاهريًا بشعب الله، دون رابطة حيوية أو إلهية. ولقد يستطيع موآب أن يقول: نحن ذوو قرابة، فلماذا يناصب أحدنا الآخر العداء؟ وقد استطاع موآب بذلك أن يتسلل بالتدريج ويمتلك، حتى تسنى له آخر الأمر أن يتسلط

على إخوته حسب الجسد. ومع أن العدوان كان أول الأمر بالتدريج، واستهانة الشعب نفسه سهّلت طريقة، فإنه أخيراً ضرب إسرائيل. واعلم - حماك الله - أن العداوة الروحية لا مفر منها ولا بد للشيطان أن يضرب ضربه أخيراً، ولو بدأ - في أول الأمر - بالتغريب والملاطفة. ومعنى هذا - إذاً - أننا هنا أمام مبدأ يُذلّ شعب الله، ولهذا المبدأ صلة وثيقة بالأمر الإلهية. والاعتراف - الاعتراف خلواً من الحقيقة - يحمل كثيراً من ملامح الحقائق الإلهية. قد يدّعي أن له علاقة طبيعية بالإيمان؛ فيقول أصحابه إنهم شعب الله، منفصلون عن العالم، وللمسيح. غير أن هذه جميعاً قد تُحدّد ملامح الاعتراف الأجوف، وهكذا يتسلط ملك موآب على شعب الله. وترى أن الاعتراف يخدعهم وينحدر بهم إلى مستوى العالمية.

تحالف عجلون مع عمون والعمالقة. وثلاثتها صور منوّعة للطبيعة والجسد. وعمون سوف نراه قريباً في معركة يفتاح؛ وعماليق يحدثنا عن «أعمال الجسد» التي هي توأم الاعتراف الأجوف الميت.

والشيء المُلفت أن يغزو موآب أرض شعب الله حتى أريحا. وأريحا - أنت تذكر - رمز لهذا العالم في كل عطره وفتنته؛ وهو العدو الأول الذي كان على شعب الله أن يحطمه. هنا يحطّ موآب - الاعتراف - رحاله في العالم. أليس كذلك؟ تطلع اليوم عن يمين وعن شمال: أليس العالم مليئاً بالاعتراف؟ أليس الاعتراف نخراً في عظام شعب الله؟ أين يقع مقر قيادة الاعتراف؟ في أريحا. إن الإعتراف موجود في العالم، والعلة في سيطرته القوية على شعب الله أنه يخلق رابطة لطيفة، هينة، بينهم وبين العالم.

وإنه لأمر محزن وخطير في آن معاً أن نلقي اعترافاً - مجرد اعتراف - من جانب أولئك الذين يتشدقون باسم المسيح بينما قلوبهم في العالم: ذلك في الحق مرعب ومخيف. وأقصى منه إيلاماً أن نرى شعب الله بجملته واقفاً تحت سلطان ذلك الشيء الذي يقيدهم بالعالم. ليس بأريحا لأن العدو أذكى من أن يسمّي الأشياء بأسماء واضحة سهلة؛ بل بمدينة النخل - كما سموا أريحا. فهناك أشجار النخيل الجميلة الباسقة المليحة القدا! أولسنا نقرأ في الكتاب أن الصديق كالنخلة يزهو؟ إذاً فلا يوجد ما يسيء إلى موآب، وهو يرسى قواعد عرشه في مدينة النخل، أي في منطقة البر والأخلاق الأدبية والإصلاح واستقامة السلوك والأمانة، ولكن خير لنا أن نذكر أين يقيم موآب عرشه. إن قوة موآب، قوة الاعتراف، هي في الإصلاح

الظاهري، الخارجي. والإصلاح لفظ رنان: يحفز السكير أن يهجر الخمر ويصبح مواطناً موقراً. الإصلاح يرفع عقيرته قائلاً: لتكن لنا سياسة الأمانة، والأخلاق الكريمة والنزاهة وروح الإحسان. وتلك سلعة موآب التجارية. نعم، فيستطيع الاعتراف الخالي من المسيح أن يعيش في مدينة النخل، ويتحدث عن نزاهة السلوك وما إليها، لكنه لا يقدر أن يجعل حامله يحب المسيح أو يربطه بالمسيح. ويا حسرتاه من أن ملك موآب استقر في أرض الله وامتلكها!

نقرأ أن عجلون كان رجلاً سميئاً جداً. وهذا يعني تجرده من الحيوية، من القوة، التي حالت بينه لكي يصبح شخصاً متين العضلات، متحرّكاً نشيطاً. والاعتراف كتلة من اللحم الميت، يفترش الأرض. وبثقله يبلد الروحانية في شعب الله. اسمه - عجلون - يترجم «دائري»؛ هو شخص يدور في حلقة، كعقارب الساعة، أو فصول السنة الأربعة. يأخذ الأمور على علاتها، والمعترف كهذا. هو شخص مستكين، لا يسعى إلى عمل يرهقه، يستكده. ذلك عدم اكتراث، وما أشد ما يعوق النفس في السعي وراء الله، في التمتع بالله، في الشهادة لله.

ومن ذا يحرر شعب الله من كابوس مثل هذا؟ مَنْ ذا يخلصنا من سلطان الاعتراف الأجوف؟ بنياميني اسمه أهود. وبنيامين رأيناه - لا تنسَ - يشكل روح الخضوع المطلق للمسيح، روح المسيح فينا مسيطراً على قلوبنا وعاملاً في حياتنا. فإن بنيامين هو ابن اليمين، وهو مكمل مقامنا أمام الله. نحن في المسيح، والمسيح فينا كالقوة اللازمة هنا. أو لا ندesh إذاً حينما نعلم أن هذا البنياميني، ابن اليمين، رجل أعسر؟

مقامنا تام؛ نحن كاملون في المسيح أمام الله، والمسيح فينا له السيطرة الكاملة. ولكن هذا معناه أنه لا قوة لي من ذاتي. أهود ابن يمين الله؛ أما يمينه هو فقير ذات نفع! هي يمين القوة الطبيعية؛ وصاحبنا عديم القوة، أعسر، عاجز في ذاته. ذلك أهود؛ وهنالك بنيامينيون كثيرون نقرأ عنهم، عُسر عاجزون. والفكرة التي نستوحىها هي أننا نفتخر في ضعفنا لكي تحل علينا قوة المسيح. كان بولس بنيامينياً، سليل سبط بنيامين حربيًا. لكنه - إلى جانب هذا - كان بنيامينياً روحياً استطاع أن يقول إنه يفتخر في ضعفاته لأنه حينما هو ضعيف فحينئذ هو قوي. إذ اختطف إلى السماء (١٢كو٢) أصيبت بالعجز يمينه. فنزل إنساناً ضعيفاً، أعسر، ليكون شهادة لله شهادة لقوة المسيح. أما إهود فيعني ما يعنيه يهوذا: الحمد أو بالحري «الإقرار» هو إقرار - يختلف عن مجرد الاعتراف المؤبّي.

فهو - إهود - يقرّ بضعفه وبقوة المسيح. ومثله يخلص شعب الله. وأنت ترى أنه أتى من الجلجال: الجلجال الذي تحدثنا عنه في أصحاح سابق. ومجيئه - هكذا - يدعم الدرس الذي تلقيناه من ذلك الموضع: انعدام القوة في ذاتنا، الموت للعتيق. وأقبل على ملك موآب بسيف ذي حدين، طوله ذراع. والذراع - مقياساً - تبدأ من المرفق حتى اليد؛ وفي رأيي أن الذراع معيار الكفاية البشرية. فهنا إنسان يُعدّ سيفاً، ونعلم أن سيف الروح هو كلمة الله: كلمة الله مطبقة على الاعتراف. وليس المقصود أن الكتاب كله سيف، بل السيف هو العدد - الفصل - من الكتاب الذي بحديه يقطع.

لقد أقبل صاحبنا وفي يده السيف، سيف بذراع طويلاً. يخترق، يمزق، على كلا الجانبين؛ وكلمة الله تخترق على كل جانب. وأنت لا تستطيع أن تستخدم جانباً، حداً، من السيف على فريق من الناس، وتترك فريقاً آخر يفلت. فإن السيف يخترق على الجانبين. كلمة الله لا تحابي الوجوه.

وجاء إهود، وأقبل على ملك موآب وهو في مصيفه يستجم وينعم؛ ويقول له «لي كلام سرّ إليك أيها الملك». وهكذا التقى بالرجل، بتلك الكتلة الشحمية الضخمة. نعم، وما أحقره ذاك الاعتراف، ذلك الكابوس الذي يجثم على شعب الله. «لي كلام سر (من الله) إليك أيها الملك» ما هو؟ إنها الكلمة التي امتلكها، السيف حتى المقبض؛ السيف بمقبضه ويكلّهُ. لقد أغمده كله في الكتلة التي أمامه. السيف بطوله الإنساني، الذي يمثل إدراكي، إدراك القديس لكلمة الله، مطبقة في نشاط الضعف البشري، ولكن في القوة الإلهية - وإذا بملك موآب صريع، ذبيح.

هذه الكتلة الاعترافية، وشعبه جميعاً الذي كان يأسر إسرائيل الله؛ صريعة. ثم أخذت مخاض الأردن، وتنبه شعب الله على صوت البوق، وهكذا لم يفلت موآبي واحد، وتحرر ميراث الله من كابوس الاعتراف؛ ولو إلى حين.

ألا نعرف - عملياً - شيئاً من الانتصار على الاعتراف، على هذا الوجه؟ ألا نعرف - في انتصاراتنا جميعاً - قوة وفعالية كلمة الله؛ التي - بوصفها أفعل من سيف ذي حدين - تطعن في مقتل كل اعتراف؛ الكلمة التي تخلصنا من التصنع؟ ليعطنا الرب أن نختبر - عملياً - معنى ذلك.

وكما وجدنا في أفسس صورة مشابهة - في الاستكفاء الذاتي والجمود القلبي - لسيادة آرام؛ نجد في برغامس صورة للاعتراف الموآبي والاختلاط بالعالم. فيها نرى العالم داخلاً في الكنيسة عاملاً على إخماد الشهادة وإماتة روحانيتها. ذلك تزاوج بين الكنيسة بالعالم،

استقرار في أريحا « حيث كرسي الشيطان ».

وهناك - في برغامس - حديث عن إهود والسيف ذي الحدين: المسيح - في شعبه - الذي من أجلهم يحارب الاعتراف بسيف فمه. ففي اليوم القادم على عجل، يرفع على المعترفين سيف القضاء ذاك. أما الآن فإن كلمته للمستعبدين، ليخلصهم ويحررهم.

في العدد الأخير نرى العدو على الضفة الأخرى، ولا أطيل عنه الكلام إذ سنراه فيما بعد. لكنها ليست نصره قومية، بل نصره فردية: شخص واحد قهر ستمائة من الفلسطينيين. وفي شمشون نرى الفلسطينيين مرة أخرى؛ ولكن حتى بعد شمشون لا نقرأ عن نصرته تامة. لقد كان الفلسطينيون على الجانب الآخر وثيقي الصلة بمصر. كانوا - كاسمهم - تائهين؛ تائهين دخلوا الأرض من غير تدريب أو خبرة. لم يعبروا النهر، نهر الأردن؛ بل دخلوا الأرض بطريق مختصر (تخرية). إذاً وهم في الأرض هم معترفون. لكنهم أكثر من ذلك. إن موآب لم يعمر في الأرض على المدى المستمر، أما الفلسطينيون فبقوا بها باستمرار. ادعوا السلطان عليها، وحققوا فيها؛ ولو أنهم هناك دون عبور الأردن، أي دون اجتياز الموت والقيامة. ومرة أخرى نصطدم بالاعتراف؛ وهو هنا أكثر من مجرد اعتراف أجوف. هو اعتراف عن طريق التقليد. وفيهم - من غير إفاضة - نقرأ عن مبدأ الخلافة والطقوس والفرائض وما إليها. هم الطقسية، التي تجسدت آخر المطاف في روما. وهنا نراها في بداية نشأتها، روح طقسية الاعتراف بأشكالها ودعاؤها.

وأنت تجد صورة تمثيلية لها في رسالة غلاطية، حيث نفهم أن القوم هناك أرادوا أن يدخلوا اليهودية إلى المسيحية، ليخلطوا طقوس العالم بأمور الله. ونراها - أيضاً - في الرسالة إلى العبرانيين الذين أرادوا أن يعودوا إلى شكيلات اليهودية الجوفاء - التي منها كانوا قد تحرروا. "التائهون" والمتغربون قد يشبه أحدهم الآخر؛ غير أن التائه شخص يختلف كل الاختلاف عن الغرب النزيل. فإن الغرب والنزيل يضع أمامه هدفاً معيناً. أما التائه فإنه مجرد إنسان يتنقل هنا وهناك من غير هدف. أو ما خطر ببالك أن كنيسة روما لا تضع أمام الناس رجاء محدداً؟ فالذين تسيطر عليهم لا يسعون إلى ميراث سماوي. وفي رأيهم أن أفضلهم لا بد ذاهب إلى المطهر. فهم مجرد أناس يتيهون في أرض ليست لهم، ومصيرهم غامض.

والأمر مختلف مع نزلاء الله: هم هنا غرباء، لكنهم معروفون هناك. غرباء في طريقهم صوب راحة محققة، يحدوهم رجاء محقق. وشمجر "الغرب" هو الذي يواجه جحافل التائهين الذين كانوا قادمين لإخضاع شعب الله، وإدخال تعاليمهم العالمية الجسدانية. شمجر هو الذي

يمسك بمنساس البقر، الذي يمثل عصا النزول، وبه يقتل الست مئة من الفلسطينيين التائهين الذين لا يعرفون أين يضعون أقدامهم. والدرس على غاية البساطة. فأى شيء بين أيدينا، ويستخدمه الله، يفوز بنصرة الله. فإذا كنت - يا أخي - نزيلاً مخلصاً لله، فذلك يكفي. ومجرد تحريض - يفعل كمنساس البقر - يكفي كثيراً. إنه يلهب البقر على المزيد من سرعة السير؛ أو يعيدها إلى الاتجاه الصواب إذا ما انحرفت. منساس البقر الذي ينخس الضمير يهدم الاعتراف الذي يبدو قوياً. ألا ليتنا نعرف قدر منساس البقر.

الفلسطينيون مرتبطون هنا بموآب: ومن كليهما تتألف كتلة الاعتراف التي تتحكم في الكنيسة. وبالصورة ذاتها نلاحظ أن ثباتها وثيقة الصلة ببرغامس. وكما أن المبدأ الفلسطيني يتخذ في روما آخر أشكال التطور، هكذا ثباتها.

والغالب في ثباتها قد أعطى - كقوة للنصرة - رجاء الغرب، رجاء مجيء الرب، مشابهة بالغرب شمجري.

لست أقصد أن هذه الكنائس الثلاث صورة تجسدية لأولئك الأعداء الثلاثة الذين نتحدث عنهم، ولكن لا رب في أن هناك شبيهاً لمبادئ كل منهم. كلا ولست أقصد أن أقصر المقارنة على هذه الكنائس وحدها. ولكن إذا كنا نجد تاريخ فشل الكنيسة في هذه الفصول، أليس لنا أن نتوقع نفس المطابقة التي لمسناها؟

إذاً نقدر أن نقول إن دروس هذا الأصحاب للكنيسة هي التحذير ضد الكبرياء والاعتراف. ولئن كانت - من الوجهة التاريخية - تحدثنا عن أولى خطوات الكنيسة الأولى في طريق الانحراف، أليس لنا منها صوت واضح ليومنا هذا؟

هي ساعة آرام، ساعة رفعة الإنسان واعتراف الإنسان. وجدير بنا - بحق - أن نندب حالة الكنيسة المؤلمة، من هذه النواحي. فليت لنا مزيداً من الإذلال النفسي الذي يصرخ إلى الله الحي ليطلب العون والخلاص! وليت بيننا رجال إيمان؛ وليت لنا في أنفسنا مبادئ الإيمان لننهض ونضرب أولئك الأعداء في المقتل. أين منا الإحساس بسيادة الله، الذي يحطم كل كفاية في نفوسنا؟ أين منا ذلك الضعف الذي يضرب - بكلمة الله الحادة - كل اعتراف أجوف؟ أين منا تلك الروح، روح الاغتراب التي تضع في التراب عنجهية الديانة الجسدانية؟ لعلنا - لعل كل واحد منا في هذا اليوم - نجاب على هذا التساؤل.

الإصحاح الرابع والفامس

دبورة وباراق: نصرّة الضعف

استعباد القوى الثلاث التي كنا نتأملها أخيراً، انصبّ على يهوذا؛ أو في القليل على الأسباط الذين استوطنوا الإقليم الجنوبي: يهوذا ومعه بنيامين وشمعون. وقد رأينا في موآب والفلسطينيين صورة الاعتراف سواء في شكله الكبير في موآب، أو في شكله المتدين اللطيف في الفلسطينيين. ومع أن الأمة كلها عانت من العبودية، ولكن واضح أن الأرض كلها لم تكن تحت سيطرة أحدهما سيطرة كاملة. وهكذا نرى موآب والفلسطينيين يحتلون الجزء الجنوبي؛ ومن دور عثنييل الذي خلّص يهوذا من تحت نير ملك آرام النهرين، نستخلص أنه من المحتمل أن الآراميين - أول مضايقي إسرائيل - استوطنوا الإقليم الجنوبي.

والطابع الذي يتسم به كل خلاص، وثيق الصلة بالإقليم الذي يتحرر ويُخلّص كما سنرى. وفي الثلاث حالات تبرز كلمة الله؛ عثنييل يمثل الكلمة الحية - دبّير؛ وإهود يمثل سيف الروح الحاد القوي؛ كما يذكرنا منساس شمجر "بكلام الحكماء" الذي - كالمناسيس - يخترق بتحريضاته الحافلة. وهكذا تبرز كلمة الله على المدى بطوله.

والآن نتأمل في قطاع إقليمي آخر - الإقليم الشمالي حيث يوجد عدو له طابع مغاير، تقهره وسائل حربية مختلفة. ولكن أود - أولاً - أن نتحدث عن الشمال والجنوب على الطريقة الكتابية، إذ لكل شيء في كلمة الله مفهومه الواضح.

فالجنوب هو الأرض التي تواجه الشمس. وهي - الشمس - تغمر الإقليم الجنوبي شتاءً

وصيقًا. هو إذاً - إقليم يألف ضوء الشمس. أما الشمال فهو أرض أعطت للشمس ظهرًا. وكلمة شمال ذاتها - ومعناها مكتوم أو مخفي مستتر - توحى بانعدام النور. والفكرة هنا هي ظلام الطبيعة البعيدة عن الله؛ الظلام كنتيجة السقوط. إن الله نور، وإذا يتحول عنه الإنسان فهو ظلمة في فكره واختراعاته.

وأنت ترى فارقًا بين مختلف طبقات الجنس البشري. فهناك من كانوا يومًا تحت ضوء حق الله؛ عاشوا يشرق عليهم نور إلهي من الكتاب. وهناك من أعطوا ظهورهم لكلمة الله، يعيشون على الجانب المظلم من العالم، بعيدين عن كلمة الله والإعلان. فهناك إذاً جانبان، نتعرض فيهما لغزوات الأعداء الروحيين وسلطانهم؛ لنا على الجانبين أعداء. فقد أمسك بيدي كتابًا مفتوحًا، لكن ذلك ليس ضمانًا بعدم وجود أعداء روحيين سيئون استخدام تلك الكلمة. فقد يملك الناس كتبًا مفتوحة - كما في هذه البلاد (أمريكا) - ومع ذلك فإن الاعتراف هو لهم سيد الموقف؛ إذ قد نرى الطقسية - مع الكتاب المفتوح - تدعى السيطرة على شعب الله. ومن الناحية الأخرى قد نجد من ينكر على الكتاب مكانه وسلطانه لكلمة الله؛ ذلك هو الإلحاد.

هذا ما يلاقينا الآن. هو العدو الشمالي الذي يستوطن الظلمة، ويستجمع سلطانه في الظلام، بعيدًا عن إشراقات النور الكاملة؛ العدو الذي يبغى حرماننا من النور، ويريد أن يضع يدي عدم الإيمان الباردتين على كل ما نعتز به، وبذلك يحرماننا نصيبنا. هو قوة الفطنة الإنسانية بالمباينة مع سلطان وقوة كلمة الله. هو قوة الإلحاد في جميع أشكاله، ليس فقط الإلحاد السافر من جانب غير المؤمن، بل أي شكل من أشكال الإلحاد أعطى ظهره لكلمة الله. أنت تعطي النور القفا، فأنت تواجه الشمال. تتنكر للكتب المقدسة، تواجه الشمال الروحي. تتحول عن إعلان الله، فأنت متروك إذاً لنور فهمك الباهت.

تلك هي القوة التي نتأملها الآن: قوة الفهم البشري في سيطرتها على الأمور الإلهية. وإنها لقوة مخيفة مرعبة. تبسط تأثيرها في كل مكان؛ وحيث يمتد التأثير، وحيث يملأ خياشيم الإنسان، يعمل على تعظيمه على حساب حق الله.

اسم ملك حصور - ملك هذا التحالف الشمالي - له دلالتة؛ اسمه يابيين وترجمته "فهم"، وهو اسم واضح الدلالة على الشخص الذي يكون قد ألقى جانبًا إعلان الله. إنه لا يريد الشمس، قانعًا بما لديه من استنارة فهمه؛ وبابيين، ملك حصور، ملك "المحصور، أو الحصار" هو الذي يطرد الإعلان الإلهي مستكفيًا بذاته. وهذا أمر ملفت.

وجميل أن نذكر أن يشوع كان قد هزم يابين هذا منذ أكثر من مائة سنة. ففي خلال غزوات الشعب التي قاموا بها في مطلع تاريخهم واستولوا بها على الأرض، قهروه وشعبه وكل مركباته الحربية. أبادوا حاصور من على وجه الأرض ولم يشاءوا أن يعمروها كما عمروا غيرها من المدائن. وقد تتسائل قائلاً: إذا كان يشوع قد كسب المعركة وأباد حاصور إلى التمام، فلماذا نعود ونسمع بخبرها، وبملك له ذات الاسم؟ إذا ما وضعنا في بالنا الترجمة الروحية للاسم، وذكرنا أن الرسل في ما أعطونا من حق قد هزموا يابين الروحي أي الفهم البشري، قد نكون عرضة أن نتساءل: أو يستطيع الفهم البشري أن يعود فيبسط نفوذاً كاسحاً؟ وفي ما يتصل بتاريخنا كأفراد، إذا كانت حكمة اهتمام الجسد، الذهن الجسدي، قد انهزمت، وأننا قد امتدنا ما كان قبلاً مقيّداً في الظلمة، فهل يعاودنا الخطر؟

إن الشيطان - يا أخي - يعرف، كما نعرف نحن، ما هي القيامة. هو يعرف معنى قيامة قوة الشر التي تستطيع هدم المؤمن، وإلقائه بين فكي القوة ذاتها التي كان يارسها قبلاً. قد تعرف معنى تحطيم بعض قوى الشر الروحي التي كانت لها عليك سيطرة، وقهرتك يوماً ما. إذا هُدمت تلك القوة فأنت تفترض أنه سوف لا تقوم لذلك الشر قائمة. ألم تختبر ذات يوم أنك تنبّهت فوجدت العدو على حاله من القوة، نفس العدو القديم، نفس الخطية القديمة!!

يقيناً نحن نعرف شيئاً من ذلك. كنيسة المسيح تعرف شيئاً منه. وإنه لدرس على قدر كبير من الدلالة أن كنيسة المسيح كثيراً ما تقع في أسار قوة الشر التي قهرتها يوماً قهراً كاملاً. أو ليس ذا دلالة روحية أن العدو العقلي، الاستنتاجي؛ أن كبرياء الفهم الذهني هو الذي يعود فيأسر، ثم يعود فيأسر؟ إننا نبدي ولاءً ملحوظاً للذكاء والعلم والفهم. وحيث يتحدث روح عدم الإيمان بحكمة قليلة وبثقافة، ما أيسر على شعب الله أن ينحني لسلطان الفهم ويتحول عن النور الذي يضيء الإقليم الجنوبي، وفيّاً لظلمة الشمال الباردة!

من المهم أن نذكر هذا. إن الذكاء البعيد عن الله هو الإلحاد بعينه، مهما يكن الاسم الذي يُعرف به بين الناس، فإن له مئات من الأسماء. فهذه القوة الشمالية تسمى تحالفاً. حيث كان يابين رأساً للملوك الشمال أجمعين. وبالقياس عينه تُطلق على سلطات الذهن مسميات كثيرة. فقد أطلقوا عليها يوماً اسم الآريوسية *Arianism* التي أنكرت لاهوت سيدنا؛ ويوماً آخر آلهية الكون *Deism*، ذلك المبدأ الكفري الذي استبعد الله من عالمه الخاص. وحديثاً قالوا إنه العقلية أو النقد الأعلى. ومهما يكن الشكل. فالرفعة - كنتيجة - هي للعقل، للفهم الإنساني. وأنت

تسمع القوم يقولون: الكتاب المقدس له قدره الكبير وقيمته السامية. وله سلطانه؛ ولكن الذكاء له مكان الطليعة. هذا هو اللبنة الأولى في أساس "النقد الأعلى". حصيلة هذا المبدأ أن الإنسان، النافه، الخاطئ، له الكفاية للحكم على كلمة الله. وأنا لا يعني نوع المكانة التي تعطيها للكتاب المقدس إذا كنت تعطيه مكانة تنقص عن مكانة الكمال المطلق لإعلان الله، مع السلطان الكامل، فأنت إذاً تعطيه المكانة التي يريد بها يابن. هل أصحاب النقد الأعلى - مثلاً - يقولون لنا إنهم كفرة ملحدون؟ هل يقولون إنهم لا يؤمنون بكتابنا؟ هم في الواقع يقولون إنهم أكثر منا إيماناً بالكتاب. وأنهم إنما يستخدمون ذكاءهم ليغريلوهم وينزعوا منه أفكار الناس؛ وإذا يحكمون فيه يشرحون لنا ما هو إلهي وما هو بشري. وهكذا يدخل الإنسان الخاطئ الميدان ليحكم على كلمة الله. وإذا يفعل، يصبح العدو المطلق لحق الله.

هذا واحد فقط؛ وهو مثل واضح القسّمات على مدى سلطان الفهم. وقد يعرف أحدنا شيئاً منه على نطاق ضيق. وقد نعرف معنى وضع أفكارنا موضع كلمة الله. وقد نلمس فعل العدو الشمالي وقوته الخائفة لنا وكيف يقتحم ويدخل أفكار الناس حيث تكلم الله. واعلم يا أخي أنه حيث تكتب السيادة لأفكارك، أو أفكار غيرك من الناس، بحيث تأخذ محل كلمة الله فأنت في قبضة يابن ملك حاصور.

ثم أن رئيس الجيش محارب عظيم. فالإنسان الناعس له أفكاره المتشامخة التي هي حصيلة معارفه وجهده. وإذا تعرضت لأفكاره، مسست كبرياءه. من هنا يأتي الخصام: كل واحد يدعم حقه. ويعقوب الرسول يتساءل: «من أين الحروب والخصومات بينكم؟» وبنفسه يجيب «أليس من هنا من لذاتكم المحاربة في أعضائكم؟» وهنالك لذات ذهنية إلى جانب الشهوات الأخرى الجامحة، وهذه تلد الرغبة في المحاربة. وقائد جيش يابن رجل محارب هو سيسرا الذي معناه "لباس حربي".

إن الرسول بولس يضع لأعمال الجسد قائمة بديعة الترتيب (غل ٥: ١٩-٢١). فبعد تفصيل أشكال الفساد الأدبي الفاضحة، وبعد خرافات الوثنية، يضيف الرسول «عداوة خصام غيرة سخط تحزب شقاق، بدعة». صورة واضحة الملامح للباس الحرب، التي فيها يضع العدو شعب الله. وأنت تلاحظ كيف أن يابن - حكمة العالم - قد اختار سيسرا قائداً لأجناده. إذ نطالع الأصحاحات الأولى من رسالة كورنثوس الأولى يواجهنا هذا اللباس الحربي جنباً إلى جنب مع حكمة العالم. فقبل ما يمس الرسول شهوات الجسد الفاضحة في الأصحاحات الخامسة والسادسة

والسابعة، يحدثنا في تفصيل دقيق عن الحكمة العالمية التي اتصف بها القديسون الكورنثيون كأناس جسديين يسلكون بحسب البشر.

لقد كانوا منشقين، لكل حزب رئيس؛ وكل يرتدي نقيض ما يرتديه الآخر في الغيرة والخصام، مما كان له شبيه في صراعات الفلسفة الإغريقية على اختلاف مدارسها المتناقضة «أنا لبولس وأنا لأبلوس».

ذلك جدل بشري، حكمة العالم، تؤكد نفسها في كنيسة كورنثوس. فلا عجب إذاً من الصراع الناشب، ولا عجب أيضاً إذ نرى الروح عينها بين شعب الله إذ يعطون ظهورهم لكلمة الله ويضعون محلها حكمة الإنسان.

وكذلك تلاحظ أن يابن ملك، ليس فقط لحاصور (المحصور) - طوائف الناس الحزبية - حيث يملك، بل هو ملك كنعان: اسم لقسم كبير من سكان الأرض. وترى - هكذا - أن سلطانه شامل، وهو يتميز بروح المتاجرة في المقدسات، تلك الروح التي تأملناها في أصحاب سابق. فالأمور الإلهية ليست في نظره سوى خامة، مادة، لعظمته الشخصية: الكنعاني التاجر في بيت الله.

وسيسرا كان يسكن في حروشة الأمم؛ وقد رأينا أن الخصومات الجسدية الصادرة عن العقلية الإنسانية، هي من خصائص الناس والأمم، دون قديسي الله. وإنها في الحق لمهانة أن نرى شعب الله في أسار العالم أو روحه، يسلكون نظير «سائر الأمم أيضاً ببطل ذهنهم إذ هم مظلمو الفكر ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذي فيهم لسبب غلاظة قلوبهم». في هذه العبارة الموجزة نرى - من زاوية واحدة - ظلمة الشمال وبُطل يابن والأمم الذين كان سيسرا يعيش بينهم.

ولكن أليس لنا في الوقت الحاضر ما يدعونا للخوف من شمول سلطان يابن؟ قد رأينا مثلاً عليه في استخدام الذكاء للحكم على كلمة الله كما في أمر النقد الأعلى. وألسنا نراه كذلك في مختلف الطوائف اليوم، حيث لكل طائفة عقيدتها، والكل في صراع دائم لتثبيت دعاواهم في صحة ما يعتقدون؟ إن انقسامات اليوم تعلن في دوي صارخ عن خيبة مشتركة شاملة: خيبة في اكتشاف قياس مشترك! ولكن أين يوجد مثل هذا القياس؟ ليس في عقيدة من اختراع بشري - طبعاً - بل في كلمة الله الكاملة التي تطرح كل ادعاء بحكمة هذا العالم.

وتلاحظ كذلك أن سيادة يابن هذه جاءت بعد موت إهود الذي على أثره تحول الشعب عن الله. أجل، وبعد رحيل "المعترف" الحقيقي يبدأ الانحراف القلبي مما يفتح الطريق لعتامة ذهن

وتفكير الإنسان الطبيعي. فليت إلهنا يحفظنا أبداً كأناس مقرين صدقاً بحقه حتى لا يناهضنا عدو الشمال المظلم.

هذا هو درس العبودية: ولكن ما هو العلاج؟ مَنْ هو القاضي المخلص؟ من ذا ينهض، ليتصدى للمد الهائل، لطوفان الإلحاد الذي يطمو ويعلو حتى ليكتسح كل شيء؟ يجرف أقدام أولئك الذين يفاخرون بعلمهم وكفايتهم؛ يجرف رجال الفكر في غمار جدلهم الجسدي ويحرمهم إلى الأبد من حق الله. ما أقطع - يا أخي - ما تقتحم اقتراحات العقل البشري حتى أن كثيراً من الناطقين بالحق جسورين تصمت أصواتهم أو - وهذا أنكى - يتحولون إلى العدو يبادلونه الرأي. وكم هو محزن بما لا يُقاس أن نرى قومًا ممن كانوا قبلاً شجعاناً في الحق ينحدرون إلى حضيض مستوى العالم، يتحدثون مع معلمين متدينين معترفين، هم مجرد رسل يابين. ولن يزيد عن هذا الوصف من ينادي بنظرية التطور على أي شكل. ومهما يكن تقيّاً ذلك الشخص المتكلم، فإنه إذا كان يحتضن آراء العلم الكاذب الإسم فقد تحول عن الله، وأخذ يعمل على وضع الشعب تحت نير الإلحاد العملي. وأولئك الذين يتحدثون في ميدان كهذا هم - كذلك - يضعون شعب الرب في قبضة يابين ملك حصور.

ولكن من هو المخلص؟ من هو محرر شعب الله؟ امرأة: دبورة.

لا رب أن في هذا تعليمًا: إن المخلص هنا امرأة وليس رجلاً. فيما بعد سنقرأ عن الرجل، لكن البداية كانت في امرأة. يا لها من شهادة عن الخيبة العامة، إنه لا يوجد رجل يعمل عمل الرب. هي علامة على مبلغ خيبة شعب الله. لكن منها - من جهة أخرى - نتبين كيف يدخل الله المشهد، وكيف يستخدم حتى أضعف الأواني. وحيث نجد إيماناً يعتمد في ضعفه على الله، فهناك الإناء المختار لعمله تعالى.

وفي الأسماء - مرة أخرى - معانٍ روحية لا تخطئ. في ميدان الأسماء رأينا استعلاء العقل. فماذا عسى تعنيه دبورة؟ دبورة ودبير من مصدر واحد، كلاهما يحدثنا عن «الكلمة». إذاً فبها لدبورة من آلة موفقة لتحطيم العقل البشري، أي تفكيره. فإذا كان ما يمينك من سلاح هو كلمة الله، فكن على ثقة أن العقل البشري - في محاولة التعالي ضد الله - مغلوب على أمره، محطم لا محالة. ودبورة - إلى جانب هذا - كانت نبية. فهي إذاً لا تعني كلمة الله في الحرف وحسب، كلمة الله مكتوبة فقط، بل الكلمة الحية. تلك هي كلمة الله في يد الروح القدس. وذلك هو روح النبوة متكلمًا تحت الإرشاد الإلهي. ثم - ثالثاً - هي زوجة

لفيدوت؛ زوجة السراج المنير. وهذا يستحضر لأذهاننا كلمة في رسالة فيلبي «تضيئون بينهم كأنوار في العالم متمسكين بكلمة الحياة». لفيدوت - إذاً - ينير في العالم متمسكًا بكلمة الحياة. من هنا النُصرة على الفهم البشري.

وفكرة أخرى: كانت دبورة تقضي لإسرائيل تحت نخلة بين الرامة وبيت إيل. هناك دبورة - كلمة الله - كانت تقضي كشعلة من نار. وكلمة الله مثل نار تحرق الزغل وتذيب. هي كانت تقضي لإسرائيل، تدينه وتحكم عليه. إذا ما دين إسرائيل - كما رأينا في إحدى المناسبات - فتلك هي الخطوة الأولى في طريق تحطيم العدو. وهناك يكمن الخلاص. فالحكم على الذات يؤكد شيئين تحدثت عنهما من قبل: ضعف الإنسان، وقوة كلمة الله. ويا له من مزيج يتمم مشيئة الله! في أنفسنا منتهى الضعف، منتهى الحقارة؛ في ما يتصل بقدرة الإنسان. على أننا في ذات ضعفنا نتعلق بكلمة الله؛ وإذ تلك الكلمة سراج منير، فنحن على ثقة أن الله يفتش به العدو وينقضه.

هذه - للوهلة الأولى - الأداة. وبعدها يأتي المخلص الآخر الذي تدعوه النبئة، وهو الذي يدخل المعركة الفعلية: هو باراق بن أبينوعم. معناه "برق". وما أسرع ما يصبح السراج المنير برقًا خاطفًا: تمثيلًا على كلمة الله داخلية في نفوسنا بفعل روح الله، بحيث تصبح لا سراجًا منيرًا فحسب، بل صاعقة من السماء على رؤوس الأعداء الروحيين جميعًا. هذا مَنْ يهزم العدو، مهما تكن قوته؛ مهما تكن ثقافته؛ مهما تكن كفايته. هذا الملحد العالم الدُّرَّة، رجل المعرفة المبرز، الحاذق في اليونانية والعبرية، العليم بالحفريات والآثار وما إليها؛ ما أكثر ما انحنى هذا الجليات أمام دبورة ضعيفة وباراق هزيل، لم يفعل كلاهما إلا أن أتيا بكلمة الله «هكذا قال الرب».

ومتى - يا أخي - نستخدم هذه الأحجية «هكذا قال الرب»؟ متى تكفينا؟ وإلى أي مدى تقرر الأمور. إلى أي مدى تعلمنا علم اللاهوت، والفلك، والآثار، وكل النقوش التي تعوزنا لكشف فكر الله! إن «هكذا قال الرب» أجدر من كل كتابة محفورة يملكها العالم الوثني - الذي يود أن يرفع من قدر عظمائه - كل كتابة تقوم ضدًا لكلمة الله بقوة عدااء الملحددين التاسعين. ولست أعني فقط الملحددين علنًا؛ مَنْ نقول - في أحاديثنا - إنهم ملحدون؛ بل أعني شكلاً من الإلحاد أكثر خطراً، شكلاً يزحف إلى كنيسة المسيح ويقود الشعب إلى الأسار. لنكن على حذر وإلا وقعنا في المصيدة الماكرة. إنسان يأتي في وسطنا وعلى لسانه "لست أومن بيسوع المسيح" لن يكون له سلطان علينا. إنسان يقول إن الكتاب المقدس سجل أساطير

وأكاذيب لن يكون له علينا سلطان. أما إذا جاء ليقول: استخدموا عقولكم، استخدموا مبادئ الفلسفة وقواعدها حتى يتسنى لكم أن تفهموا «اللو جوس - الكلمة» (وحذار حينما يتحدث أمثال صاحبنا باللغة اليونانية مخاطباً الأشخاص المتعيين القلقين). إن قال: "يجب عليك أن تتعلم الفلسفة لتفهم تعليم الكتاب عن اللوجوس؛ إن قل: لزام عليك أن تتعلم فروع التاريخ وعلم الآثار قبل أن تحاول فهم الكتاب؛ فاعلم يا صديقي أن صاحبنا ذاك ملحد. ومحصل كلامه تعظيم لفكر الإنسان فوق كلمة الله، وجلس العقل قاضياً يحكم على ما ينبغي أن يحكم علينا. وإنما هي محاولة تافهة لوضع نور الإنسان الباهت على هذه الكلمة الغالية التي هي ذاتها، في قوة الروح، سراج لأقدامنا ونور لسبيلنا. هي النور الوحيد اللازم؛ هي النور الوحيد في متناولنا. وكل ما عداها ظلام.

أو ليس هذا درس حكومة يابن؟

دبورة الضعيفة هي التي أرسلت تستدعي باراق. ولكي تكون الكلمة فعالة، لا بد أن تجد الآلة؛ وليست دبورة، بل باراق، هي التي تمضي للقتال. وجاء باراق من قادش - إحدى مدن الملجأ، يوحي اسمه بمكان الملجأ الحقيقي. هي مقدس أو قدس المصارع: قادش نفتالي؛ ولن يتقدم مصارع للفوز في المعركة ما لم يكن يقيم في المقدس.

يا لها من مباينة مع موطن رجل القتال سيسرا: حروشة الأمم، خدعة الأمم؛ تذكيراً لنا بقول الرسول «بحيلة الناس بمكر إلى مكيدة الضلال» (أف: ٤: ١٤). والإنسان خارج المقدس عُرضة لكل خديعة.

التقت دبورة - في مطابقة مع اسمها - بباراق وعلى لسانها الكلمة «ألم يأمر الرب إله إسرائيل؟» كلام معقول؛ يرتبط بقوة ذاك القادر على كل شيء. وما «العشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون»؟ بالقياس إلى جحافل ومركبات سيسرا؟ ولكن ما دام إله إسرائيل قد أمر، فالمعركة مضمونة.

وعلى هذا الضوء بان عدم إيمان باراق. إذا كان الأمر قد أُعطي من الله، فهو عربون حضوره؛ فما جدوى - إذاً - هذه الآلة المستضعفة التي أُعطى لها الأمر؟ هو - تعالى - كان قد قال «أجذب إليك... سيسرا رئيس جيش يابن بمركباته وجمهوره وأدفعه ليدك».

لكن باراق - كما يتضح - لم يتحقق من هذا تمامًا بدليل قوله لدبورة «إن ذهبت معي

أذهب وإن لم تذهبي معي فلا أذهب»؛ تحدّيًا ومناقضة لأمر صريح. إن كنا - يا أخي - ننحى باللائمة على باراق، فلنضم أنفسنا إليه في الملامة. فكم ذا اتكأنا على آلة من الطبيعة واهنة، على ذراع من البشر تافه، حينما أمرنا الإله الحي.

فالنصرة الكاملة إذاً لن تُنسب إليه، بل سيلقى سيسرا مصرعه على يدي ياعيل، امرأة ضعيفة. وتبارك إلهنا ففي غير مقدسة يصد كل محاولة لإغتصاب مكانه تعالى، حتى من ناحية الآلة التي يشاء أن يستخدمها.

التفصيلات ليست كثيرة عن هذا الصراع. فباراق، تصاحبه دبورة، يقود حفنة من رجال جيشه من زبولون ونفتالي - مقر سلطان يابين - إلى جبل تابور. وزبولون - لا تنس - تعني الشركة الدائمة، ونفتالي يعني روح الكفاح الصحيح. ومن عجب أنهما مرتبطان معًا. والجبل يوجي برفعة النفس الخارجة من مقدس الشركة، مما يعين الإنسان على كسب مساحة واسعة من ميدان الوغي. أما تابور فيرى كثيرون أنه يعني "كومة" أو "مرتفعة". كما يرى غيرهم أنه يعني جبلاً محطماً، وصفاً - فقط - لشكله. ويوجد من يقول إنه يعني "الغرض"؛ وربما كان هذا الرأي أقرب لوصف دلالته الروحية، وعلى هذا الوصف أرتاح. أي نعم، وجبل الغرض، جبل العزم الهادف، هو الموضع المناسب الذي منه ندخل في ميدان كفاح نظير هذا، لأن الله لن يستخدم المتردد.

سمع سيسرا المتعجرف بخبر هذا التجمع، واستدعى جنده الأقوياء لسحق هذه المحاولة الهزيلة. وكان مشهد الصراع عند نهر قيشون حيث ذبح إيليا - في يوم تال - الأنبياء الكذبة (١مل ١٨: ٤٠). اسم هذا النهر مشتق من كلمة تعني اللي، فعلها "يلوي - يثني". وترتبط بهذه الكلمة كلمات أخرى من نفس الاشتقاق: مثل "قوس" أو "وضع الفخاخ". ومن هنا أسلحة القتال، والكمائن. ويبدو أن سيسرا هو الذي اختار قيشون ميداناً للحرب. ففي الحفرة التي كراها، سقط هو فيها. وقد سبق أن رأى الله كل ذلك من قبل وأعدّ له.

وحينما يكون الضعيف مع الله، كم تكون النصرة على سلطان العقل ومخاصمة الألسنة! وها - هنا - نرى كبرياء الإنسان في حضيض، إذ على قدميه هرب القائد سيسرا. أما باراق ورجاله فقد تعقبوا الجند الهارين وقضوا عليهم جميعاً، لم يبقوا على أحد. تلفتوا حولهم: أين القوة الباغية، أين مصادر الذهن الإنساني موضع مباهاة الإنسان؟ لكن ترنيمة دبورة حديث حلوا عن النصرة، فلتتبع سيسرا.

إندحر جيشه، وفرّ القائد المقهور من مركبته، وفي مراوغة متعقبه هرب على رجليه. وفي

الظاهر حصل على مراده، لأن ياعيل امرأة حابر القيني، خبأته في خيمتها. أما القينيون فقد رأيناهم مَنْ هم، وقد سعدوا من أريحا واستوطنوا بين سبط يهوذا. وهم هناك - كما قلنا مرة - يمثلون جانباً من مبدأ العالم الذي يحتفظ به القديسون ويسمحون باستحيائه والبقاء عليه في وسط شعب الله.

غير أن حابر - مع أن اسمه يعني "رفيق" - انفصل عن قومه ووجد ملجأ في نفتالي المتاخمة لقادش: للقدس. وعليه فإننا نرى عكس ما رأيناه في ذوي قرياه. وإذا كان نزيراً فقد كان بوسعه أن يعقد سلاماً مع يابين، دون أن تلحقه سبّة الخيبة التي لحقت إسرائيل. لكنه رغم ذلك، لم يالمى رئيس جيش يابين.

لكن ليس حابر بل امرأته هي التي استخدمها الله. فقد كان لها إيمان ربط بينها وبين شعب الله، بحيث صار أعداؤهم أعداءها. مثل راحاب: رأت أين حق الله وتصرفت على هداها، ولو أنها - مثل راحاب أيضاً - كانت ضعيفة الإيمان فلم تعبر عنه. ولكن قبل أن نقرر هذا، لندقق الفكر قليلاً. لتأمل في الدرس الذي طالما رددناه، الدرس الذي طالما لاقنا خلال هذا السفر، هو أن سبيل القوة هو من خلال الضعف، وأن الله إنما يستخدم الآلة التي فيها من الضعف ما يكفي لأن يجعلها طيعة مستسلمة بين يديه.

هذا ما نجده في ياعيل. هي امرأة، وبوتد الخيمة تصرع سيسرا. في الخيمة نرى طابع الغرب؛ وهي بيت صالح تقيم فيه طالما أن الرب ليس هنا. فالخيمة مسكن النزول، والمكان الوحيد الذي يحيا فيه النزول فعلاً. وإن تحت سقف الخيمة أقمت، تلازمك - بالضرورة - الخاصية الأخرى وهي المذبح. والخيمة - من ناحية أخرى - توحى بوجودنا خارج النظام القائم. لكن الإنسان يود أن يرى في كل الأشياء المحيطة به معنى الثبات والاستقرار الدائم؛ على النقيض تماماً من الإقامة في الخيمة. ونحن متغربون في العالم وقريبون من الله، ولذلك نحن نقدم لله سجود النزول الغرب.

اسم ياعيل عظيم الدلالة. هو يعني "التسلق" وهكذا فإن الوعل متسلق. وأنتى الوعل، أنتى التيس، كانت تُقدّم دائماً كذبيحة خطية. فنحن إذاً أمام شيء يحدثنا عن ذبيحة الخطية، وذكّرنا أيضاً بالتفاهة والخواء، لكن موت المسيح واجه كل هذا. والمتسلق - كذلك - يذكّرنا بالصعود؛ يذكّرنا بمن لا يقنع بالمستوى الأرضي الخفيض، ومن ثم يشتهي أن يسمو على كل شيء هنا.

وهكذا نقدر أن نقول إن ياعيل تعلمت أن تتسلق وترتقي، تعلمت طريقها إلى العلاء؛

تعلمت أنها إذا كانت قد قامت مع المسيح فلتطلب ما فوق، حيث المسيح جالس عن يمين الله. فهي متسلقة، صاعدة؛ ومثلها يقيم في خيمة. ذلك أن مَنْ يطلبون ما فوق، يدركون أنه ليس لهم هنا مدينة باقية، بل هم غرباء ونزلاء.

ولكن - قد تقول - أي درس روحي نتعلمه من فعلة الغدر هذه: تستضيف في خيمتها إنساناً معيى، وفي إعيائه تصبّ النعمة عليه؟ لنذكر أن إلّها هو إله الحق، ولا يحب لنا أساليب الخديعة والاعتصاب لكسب نُصرات لامعة. فقد أشرت قبلاً إلى إيمان راحاب الضعيف؛ فمع أن هذا الإيمان - على ضعفه - ربطها مع شعب الرب، ودفعها لاستخدام الخيط القرمزي كعلامة، لكنه لم يرتفع بها عن مستوى الخوف من الناس.

فليكن؛ غير أن لنا هنا درساً روحياً. هنالك من يتمسكون بالمسألة الخارجية بغية الحصول على نُصرة. وعظماء الأرض ينظرون إلى نزلاء الله كأناس تافهين غير جديرين بالهجوم، ومن هنا فهم يسامون ناس الدنيا ظاهرياً. ولكن ها امرأة، تجد في قبضة يدها عدو شعب الله المريب. ولم تكن المسألة مسألة حقوق الضيافة، بل كيف أن ضعفها اجتذبه إلى سلطانها، بحيث استطاعت أن تتخلص منه.

لننقل هذا إلى الدائرة الروحية؛ ففي سيسرا نرى أن اللباس العسكري في معركته هو الذكاء البشري مسلطاً ضد إعلان الله؛ وإذا ما ألقيت نفسك في حصار من العقل البشري، فماذا عساك فاعل؟ أتعطيه مكاناً؟ إنسان يجيء إليك بكل مباحاته ومجادلاته؛ أنت لا تفرقه عليها، غير أنك تعطيه أدناً مصغية وبذلك تستطيع أن تأخذه بمكره. نعم فأنا يروقني أن أستضيف ملحدًا، رغبة في وضع نهاية لإلحاده. فلو تناولت سلاح النزيل - وتد الحق - واخترقت به رأسه، فأنا بسرور مُستعد أن استمع إلى عروضة الإلحادية. وإذا ما استطعت - بعد كل الذي أسمعه منه - أن أقدم إليه شهادة إلهية، شهادة السلوك النزلي، ففي هذا ما يكفي لتحطيمه.

وأذكر هذا، إننا لسنا جنوداً بل نزلاء. لسنا مقاتلين، نقتل البشر، ولكننا نحارب ونميت الشر الروحي في السماويات. وأسلحة محاربتنا ليست جسدية بل هي قاذرة، فعالة، بالله. لقد تعلمت من الكتاب مجموعة من دروس التقهقر، والكمون، والهجوم الخاطف، والمباغطة ليلاً، وكل ما من شأنه توكيد قوة الأضعف الذي يصارع القوي؛ وبهذه الوسيلة نُصارع حتى نُصرع الأقوى. هذا نعرفه كلنا. ومع أنه من العسير قليلاً أن نفهم تفاصيله، ولكن إذا ما تأملناه فلا صعوبة في تعلم الدرس الروحي. قد نكون لطفاء ودودين مع الذين يخطئون، وبرغم

هذا نحفظ ولاءنا متمسكين بالحق بإصرار.

استسلم سيسرا للنوم، فتناولت ياعيل شهادة حياة الاغتراب - أنها نزيلة وغريبة - وقضت عليه. سلاحها الوحيد ضعيف غاية الضعف، لكن لسان حالها «ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤). وتد الخيمة هو الذي صرع الجبار. ومن أسف أن لوطاً لم يقدر أن يستخدم وتد الخيمة مع أهل سدوم. ذلك أنه لم تكن له خيمة يقيم فيها؛ وأشك في أن سدوم كلها كان فيها وتد خيمة واحد. نقل لوط خيمته تجاه سدوم؛ أقامها صوب سدوم؛ وتلك كانت آخر مرة نسمع فيها عن طابع النزول فيما يتصل بحياته. إنما الذي يملك الود هو متسلق الجبل، هو المنفصل عن العالم، هو الغرب والنزول بالحقيقة. وإذ أنت هكذا، في مقدورك أن تمسك بالود لتُخرم رأس الملحد الذي يتصدى لكلمة الله. وهنا يكمن السر يا أخي: تمسك بصفة اغترابك، اقبض عليها بكلتا يديك - أعني بالحياة العملية؛ أمسك بميتدة (مطرقة) كلمة الله: هي ميتدة في يمينك، فاضرب بها على روح النقاش الذي يريد أن يؤثر على حق الله. بتلك الميتدة اخترم ذلك الجدل البائس الذي قد يقنعك بمسايرة ومهادنة العبودية الروحية. أمسك بالود والميتدة، ضع في مكان الموت المبادئ التي تنهش حياتك. وكم يعوزنا من «يا عيل»، من إذ يقدر أن ينقذوا أنفسهم، يقدرون بالتبعية أن يخلصوا شعب الله. فإن صفة الاغتراب، صفة كوننا من عالم آخر، إيقاننا بأن كنوزنا وآمالنا محفوظة في مكان آخر: هي التي تعيننا على أن نطوح بأقوى وأشد سلطان يستطيع العدو أن يوجهه ضدنا.

والآن إلى نشيد نُصرة دبورة. صحيح أن باراق اشترك معها، لكن للنبيّة كلمات النشيد الذي هو أحد الأناشيد القليلة في سجلات العهد القديم، والوحيد في سفر القضاة. لذلك لا شك أننا نتوقع أن نجد فيه أفكار الله معلنة في ما يتعلق بالنُصرة.

وكما قلت، قليلة في الكتاب الأناشيد التي من هذا الطابع. ولعل أقربها إليه شبهاً ترنيمة بني إسرائيل بعدما عبروا بحر سوف. وكلاهما وصف للنُصرة: الأول للنُصرة الرب وحده؛ والآخر للنُصرة - تبارك اسمه - ولكن عن طريق آلات بشرية. وكذلك بعض شبه مع ترنيمة موسى الأخيرة قبيل موته: من حيث أن كلا النشيدين يذكر سقطات الشعب. ولكن هيا إلى محتويات النشيد. أما أولاً فالموضوع العام: تسبيح الله من أجل الخلاص بواسطة قادة قدموا أنفسهم - إلى جانب شعب منتدب - للعمل. ولكن الفكرة تتحول سريعاً إلى ذاك الذي هو علة كل نُصرة، يهوه نفسه. والنشيد يعرضه - تعالى - أمامنا في كل جلاله صاعداً من أدوم، قائداً شعبه

بعد رحلة البرية إلى النُصرة. وذاك الجلال مرتبط كذلك بجبل سيناء حيث أعطى الشريعة، ودخل مع الشعب في علاقة عهدية. وفي الحال تسمو النفس إلى جو الجلال والعظمة. فتبدو تافهة الأمور الجسدية، وتبدو هزيلة أقوى قوى الخصم - أمام الجلال الإلهي.

وإن هذا النشيد ليدكرنا بمطلع المزمور الثامن والستين: «يقوم الله، يتبدد أعداؤه، ويهرب مبغضوه من أمام وجهه». كما يذكركنا بتلك النعمات الرفيعة في الثالث من سفر حبقوق: «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه... وقف وقاس الأرض؛ نظر فرجف الأمم ودُكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم... بغضب خُطرت في الأرض، بسخط دُست الأمم».

ما أجد هذا الإله المهوب! ولكن كذلك ما أعجب، يا أخي، أن نضع في بالنا أن شفّتي امرأة ضعيفة هما الناطقتان بهذا المجد. السماوات - في صمت - تتحدث عن جلاله، ولكن من أفواه الأطفال والرضع أسس حمداً. «الرب يعطي كلمة» كلها منه «المبشرات بها جند (أو جماعات كثيرة) كثير» إنما الضعف هو الذي يذيع خبر قوة الله؛ وإنما للضعف وحده يعرض قوته.

ثم نتقدم إلى الحالة الوضيعة للشعب، وأسباب تلك الحالة، قبل أن يتقدم الله ويتدخل لحسابهم. ففي أيام شمجري وباعيل أقفرت الطرق، وكفّ التنقل بين شقي الوطن: شماله وجنوبه؛ حتى قادة الشعب، مُخلصوهم من العدو: كلهم لم يستخدموا الطرق المألوفة بل اضطروا - خوفاً من رعب العدو - أن يسيروا في مسالك معوجة، في طرق موحشة، جانبية.

ويا لها صورة ترسم آثار الاستعباد الروحي. لقد استطاع المرنم أن يقول «يهديني إلى سُبُل البر من أجل اسمه». ففي سبيل الله لا خوف من العدو. أما هنا فطرق غير مسلوكة. وعوض الحركة الدائبة بين مدينة وأخرى: أناس يحملون منتجات الأرض يبادلونها في بلاد أخرى فيعودون بالذهب والسلع؛ وعوض أن نشهد قبائل إسرائيل تصعد في أجواق مرمة إلى حيث وضع الرب اسمه - عوض هذا جميعه، نرى الوحشة المطبقة؛ مسافر وحيد تدفعه الحاجة إلى الانتقال من هذا الموضع، ولكن في خفية عن أنظار أعدائه يتعقبون طريقه في المسالك الموحشة. أليس من حقنا أن نستنتج أن تلك المسالك المعوجة إشارة إلى عدم الثبات والذبذبة، اللذين يميزان الإيمان الهزيل؟ وحينما يحكم يابن، ما أقسى ما يتعرض إليه قديسو الله من شذائد، وما أكثر ما يتكرونه من طرق. وقارن بهذا، السبيل التي أعدها الرب لإسرائيل في يوم البركة «وتكون هناك سكة وطريق

يقال لها الطريق المقدسة، لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم. مَنْ سلك في الطريق حتى الجهال لا يضل. لا يكون هناك أسد، وحش مفترس لا يصعد إليها، لا يوجد هناك؛ بل يسلك المفديون فيها. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهّد» (إش ٣٥).

وبالمثل - كذلك - «توقفت القرى في إسرائيل» (ع ٧ - كما في الانجليزية وترجمة داربي). إن الإنسان كائن اجتماعي، ومن نواميس الطبيعة، كما وقانون النعمة، ألا يكون وحده. والمدن كما تعلم تذكرنا بالمغالة المصنعة لشهوة الزمالة، غير أن القرى بنشاطها الدائب - في عدم انفصالها عن الحقول المجاورة - تتحدث بأسلوب سعيد عن الخلو من المضايقة والانحصار، كما عن التطور المألوف للحياة.

أما حينما يهدد العدو، ويحكم الغالب والمُضايق، فلا بد أن تتوقف القرى. والناس يلجأون إلى المدن ذات الأسوار المنيعّة طلباً لحماية أفضل؛ إذ قد يُرغمون على اللجوء إليها للحيلولة بينهم وبين الهرب من الاستعباد. وأين يا أخي تلك القرى، المدن الغير المسوّرة ذات الدور المنشورة بين الأشجار والحقول المجاورة؟ إنها لتحدثنا عن الراحة والسكينة اللتين لا تتوفران عندما ترتفع تهديدات العدو.

وألست هذه ضرورة محزنة حينما يكون شعب الله في عبودية؟ فمن الغباوة - حينئذ - الإقامة في قرى، بينما القوة المعادية في إمكانها أن تنشر سلطانها في أية لحظة وتأخذ الأسرى. فالحاجة عندئذ إلى أسوار وعوارض المدينة، وإلى هناك فليهرب ويلجأ كل من يرجو النجاة.

فقد نسمع - مثلاً - شكاية من أن الشركة مقيدة وعنيفة؛ وأن الحياة البسيطة التي لا تعترف بالرسميات كما توحى بها القرية، قد أفسحت مكاناً للحماية العسكرية وتحدي الصديق والعدو. ولكن أليست هناك حاجة، ضرورة؟ إذا كانت للعقلية والكفر سلطان، هل نسمع لأيهما بالدخول في وسط شعب الله، بسهولة؟ وإن وجد من يفاوضون العدو، هل نعطيهم وسط القديسين موضعاً؟

هنا مبدأ هام، يشهد على عارنا بلا رب؛ غير أنه ضمان في يوم الخراب. فلنتحفظ - في نعمة الله - بهذا المبدأ ونعمل به. لنقم في المدن ذات الأسوار. ونقم حراسة دقيقة على المداخل، لأن أعداءنا - أعداء الله - يتحينون الفرصة ليجدوا وطأة قدم ما استطاعوا. أنا لا أتحدث عن

أشخاص، بل عن مبادئ. والواقع أننا لا نقدر أن نفصل الاثنين: فالشخص الذي يعتنق مبادئ غير كتابية، يجب أن ننظر إليه من هذه الزاوية وليس من زاوية أخلاقه الشخصية. أما إن تجاوزنا عن ذلك، فإننا نفتح الباب لكل أساليب الشر. وتاريخ الكنيسة، وحالة النصرانية في الوقت الراهن، شاهد بذلك. إذ يا أخي، فعوض أن نتجاهل الحاجة، وندع المداخل مفتوحة على مصاريحها لأوسع العلاقات، لنحرس في حذر ولنعترف في حزن بأن هناك ضرورة للتدقيق في قبول منْ يعترفون بأنهم أولاد الله، وربما يكونون فعلاً من أولاد الله. وإذا كنا لا نسترد القرى تماماً، ففي متناولنا على الأقل قدر كبير من العلاج؛ والشفاء والعزاء يشهدان لحكمة موارد الله.

ولكن لتساءل: ما العلة في الحالة التي وصلت إليها الأمور في يوم دُبورة، وفي يومنا؟ «اختار» (أو «اخترنا») آلهة جديدة؛ حينئذ كانت الحرب في أبوابنا (ع ٨). آه، هي القصة القديمة بعينها، قصة انحراف القلب عن الله، قصة الوثنية، القصة التي كنا نتأملها. ولنضع في بالنا أن الحرب تستتبع الانحراف عن إلهنا، جزئياً كان أم كاملاً؛ كاملاً أو مفضوحاً؛ كل ما يغتصب مكانه يعرضنا لمسالك الدَّ أعدائنا.

وماذا أعدَّ الشعب لغزوة مثل هذه؟ «هل كان يُرى مجن أو رمح في أربعين ألفاً من إسرائيل؟» لا سلاح للقتال، لا شيء من أسلحة الحق الإلهي الكامل. وماذا من حالنا اليوم يا أخي؟ أين جند المسيح المسلحون للقتال؟ إن كلمة الله هي ترسانة لنا، ومن هذا المستودع الوحيد نأخذ «أسلحة محاربتنا». ولكن ما أقل من «يلبسون سلاح الله الكامل»!

ولكن هيا إلى جانب أحسن تألقاً. قد رأيناهم - طواعية - يختارون آلهة جديدة؛ والآن نرى القادة، يقدمون - طواعية - نفوسهم. وسرى الشعب يفعلون بالمثل.

وما أخطرها مسئولية في أعناق أولئك الذين يحتلون مواضع الزعامة والتأثير بين قديسي الله! وكم هو خطير بما لا يقاس أن نفكر في مبلغ التأثير - للخير والشر - لذوي المواهب الذين يلاحظون تصرفات إخوتهم. هي مكانة لا يشتهيها إنسان، للسلامة والدعة. فإنها تقتضي العمل والصلاة والمسئولية والثبات والمحبة؛ وإلا فالبدل عن هذه جميعاً التضليل بشعب الله.

قلب الله، وقلب دُبورة كذلك، نحو أولئك القادة الذين قدموا أنفسهم طوعاً لخدمة القديسين. ويوم يعود السلام، سيكون لمثل أولئك الأمناء فرح في إذاعة انتصارات الرب، وفي رؤية الشعب وهم يستردون مكانهم في القرى، دون أن يرعبهم أحد. ومن أسف أننا لا نستطيع أن نتوقع هذا

للكنييسة بأسرها حتى يأتي الرب، غير أننا - إلى حد ما - سنراه حتى حين توجد ولو نُصرة جزئية. لكن النشيد، ابتداءً من (ع ١٢)، ينتقل إلى الشعب والكفاح الذي أثمر تلك النُصرة المجيدة. هي في الحق نُصرة الله وحده؛ ولكن ما أدق عنايته تعالى في الإشارة إلى أمانة من شاء أن يشركهم معه. وفي الوقت ذاته ما أسمى الغيرة المقدسة التي يشير من خلالها إلى المتخلفين المتقاعسين.

فيذكر أولاً أفرام وبنيامين وماكير من سبط منسى، من جلعاد، عبر الأردن. ثم يذكر زبولون ويساكر خاصة كمن لهم شركة مع باراق، وكمن تحملوا وهج المعركة. ثم يذكر زبولون مع نفتالي (ع ١٨) كقوم عرّضوا حياتهم للخطر. ومردّد ذلك ليس إلى بواعث جسدانية فإنهم «بضع فضة لم يأخذوا» (ع ١٩).

أين - اليوم - شجاعة كهذه؟ أين منّ ينتدبون لكي يضعوا حياتهم من أجل الإخوة؟ منّ لا باعث يحدوهم سوى مجد المسيح في خلاص شعبه؟ ومثل هؤلاء مرتبطون بالسماء؛ ومعهم - على حدّ هذا التصوير الجريء في النشيد - «حاريت» «الكواكب من حبكها» (الكواكب في مداراتها)؛ «بينما على الأرض شاهد آخر: الأنهار تحمل القتلى».

على أن هناك - من أسف - جانباً آخر؛ وروح الله يحدد بالاسم الأسباط الذين تخلفوا. وفي المقدمة رأوين البكر والقائد بالطبيعة؛ لكن فورانه وعدم استقراره جرّده وحرّمه من شرف القيادة الذي انتقل إلى أفرام. ذلك أن طابعه ما زال يلازمه، كما نعلم جميعاً؛ والذبذبة والأناثية من طبعه لا تزال.

ونعلم أن رأوين وجاد ونصف سبط منسى كانوا قد اختاروا - نصيباً لهم - الضفة الشرقية من الأردن، على الجانب البري، الأرضي. وكانت حجتهم في ذلك الاختيار أنه كانت لهم مواش. وهنا نرى ثغراً الغنم لا يزال يشدهم إلى الأرض شديداً. قد تكون هناك بواعث متشعبة: حافز يدفع القلب للمشاركة في رفقة سامية من أشخاص أمناء. وقد يكون هناك تصميم من القلب ومباحث قلب عظيمة، ولكن لا يوجد قرار صادق؛ فاستمروا بين الحظائر كما استوطن دان لدى السفن، وأشير على ساحل البحر بتجارته.

وما أكثر اليوم أولئك الذين لا يعبأون بغزوات قوة الشر الجبارة. وما أكثر ما يطغي ثغاء الغنم على صوت تنهيدات الأسرى. قد تصل إلى المسامع صيحات «كأنين الأسير»، فتشعرهم أنه ينبغي أن يفعلوا شيئاً. بيد أن نعاجمهم - من أسف - خير لهم من خراف الله؛ صوالجهم خير من صوالحه،

ومهما تقلّبوا على فرش الدعة والراحة - نظير الكسلان. لن يتنبهوا إلى قرار الإيمان الذي يقودهم إلى طرح الذات ومصالحها، والاهتمام بمصالح الله التي يجب أن تحتل المكان الأول.

وأنا وأنت لا نستأهل شيئاً ما لم نجعل صوالح الله في المكانة الأولى. لا يعنيني من أنت؛ لا يعنيني القليل الذي تفعله. فقد لا تكون مبشراً، قد لا تكون عاملاً في ميدان خدمة الله العلنية؛ بيد أنك يا أخي إن أعطيت لمصلحتك الشخصية مكانة أهم من مصلحة الله؛ إن جعلت صوالح بيتك، صوالحك العائلية، وصوالح عملك، وصوالح حياتك اليومية، أهم من مصالح شعب الله، فأنت لا رغبة لديك في المشاركة في الكفاح من أجله.

قال الرب يسوع «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره». وفيما كان كلامه قبل هذا القول؟ كان عما «تأكلون وما تلبسون» - عن ضرورات الحياة الأرضية. هي ضرورات يا أخي؛ ولكن بإزاء تلك الضرورات بالذات يقول سيدنا - عامداً - إن «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (مت ٦: ٣٣) فهل تستمع لقوله؟ ما هو الأول في نفسك؟

لكن في النشيد كلمة أكثر خطورة «ميروز»، قضاء خطيئاً معلناً ضدهم. «العنوا ميروز قال ملاك الرب. العنوا ساكنيها لعناً. لأنهم لم يأتوا لمعونة الرب، معونة الرب ضد الجبابرة». ولماذا ميروز بهذه الصورة؟ لا أشك أن لذلك سببين: لأنهم - أولاً - كانوا في وضع - يجعل لمعونتهم فعالية. كانوا بحيث في مقدور قدرتهم أن يحولوا إخوتهم إلى الصف الصحيح، أو أن يكون لمعونتهم الأثر الفعال في وقت الحرج. بيد أن هناك شيئاً آخر هو بمثابة العلة. ميروز معناه «مبني من الأرز» أو سكان قصور من الأرز. فهو اسم يمثل تنعمات حياة الرضى عن الذات بالقياس إلى اتضاع خدمة الرب.

ضع إلى جانب هذا: إلى قصور ميروز الأرزية، خيام ياعيل المتواضعة. قصرًا من أرز، وشقة (أو ستارة)؛ وما أكثر - بين شعب الله - من استمطروا اللعنة على أنفسهم لقصور من أرز سرقت قلوبهم عن المسيح. ومن الجهة الأخرى فإن خيمة الغرب وما بها من وتد، هما عدة النصر. وهكذا تسمع إلى جانب هذا شيئاً عن ياعيل ومكانها في أنشودة النصر. ليس أننا يا أخي يعوزنا المكان؛ ليس أننا نطلب الكرامة ونلفت الأنظار؛ لكنها حقيقة مباركة أن اسم الياعيليين - الذين يأخذون مكانهم إلى جانب الله وعمله - يبقى مخلداً في نشيد النصر، في يوم إعلان الرب، في المجد.

لكنني أريدك أن تلاحظ - قبل مبارحة هذا الجزء - التعبير العجيب الذي يصف مسلك ساكني ميروز. «لأنهم لم يأتوا لمعونة الرب، معونة الرب ضد الجبابرة». فكّر في هذا التعبير، يا أخي؛

فلسنا مدعويين لمعونة أحدنا الآخر بل لمعونة الرب. صحيح أنه ليس لذاته يطلب الرب المعونة؛ ففي مقدوره - وسيفعل في يوم قادم - أن يقضي على جميع أعدائه، وأعدائنا، بالسيف الخارج من فمه. ولكن كما يوحد الرب نفسه مع إخوته المساكين المكرويين والمأسورين، وبحسب أن المعونة المقدمة لهم كأنها مقدمة له، هكذا الأمر هنا. فالذي يأتي إنما يأتي لمعونة الرب ضد الجبارة.

وأنت ترى مدى التقدير لمسلك ياعيل؛ وكيف أن التشديد لا يغفل التفصيلات التي قرأنا فيما سلف. «تُبَارَكْ على النساء»: أفلم تقتل العدو المتعجرف الجبار الذي استعبد شعب الله؟ وأخيراً: قطعة من التهكم الخطير في وصف أم سيسرا؛ تهكم يذكرنا بتلك الكلمة الخطيرة «الساكن في السموات يضحك، الرب يستهزئ بهم» (مز ٢: ٤). استهزاء الرب وسخريته! يا له فكراً مرعباً!

كان يحيط - بأم سيسرا - أحكم سيداتها؛ كنّ يحطن بزعيمة استنكار حق الله، وكان في قدرتهن أن يبدن أسباباً حكيمة تبرر تأخير مركبات الظافر المزعوم وإبطائها. وهكذا - في يوم قادم على عجل - سيُبدى حكماء الأرض وفييراً من الأسباب لتبرير إبطاء موكب انتصار عقل الإنسان. ولكن يا حسرة على الإنسان، فلن يكون لكبرياء عصيانه نُصرة، ولا غنائم، ولا ثياب مطرزة لتزين الجسد. فحين يقولون سلام وأمان يحل بهم الهلاك فجأة، فلا ينجون.

ويومئذ تفوز العروس الغريبة المتواضعة بزینتها وترتدي ما يليق بمن ستكون إلى الأبد مع المسيح. والراحة الأبديّة ستكون لميراث الرب.

«هكذا يبيد جميع أعدائك يارب، وأحباؤه كخروج الشمس في جبروتها».

الإصحاحان السادس والسابع (١٤٤)

جدعون: إعداد الآلة

في نصره دبور، ونشيدها، وباراق، وصلنا إلى أعلى نقطة في سفر القضاة. ذلك أن فرحة النصرة في النشيد لم يفسدها شيء من الظلال التالية. فقد وصلت الترنيمة - في الرمز - إلى نصرة إسرائيل التامة، وإلى الأرض التي تفتتح وتشهد أمجاد الملك الألفي. وهذا كما علمنا هو القسم الثالث من قصة العبودية والخلاص الذي يذكرنا ليس فقط بقيامة العدو في يابين بل بالقدس الذي يتحدث عنه رقم ٣، القدس بعبادته. وهنا - كما قلت - قد وصلنا إلى أعلى نقطة في السفر جميعه.

ونتقدم الآن إلى القسم الرابع الذي نتوقع أن نجد فيه بعض التباين مع القسم السابق، فهو يحدثنا عن العالم بالمباينة مع المقداس. عن موضع الامتحان والضعف. وكل هذه الملامح نجدها في القصة التي أمامنا سواء في العدو أو في المُنقذ أو في النتيجة. فالعالم، والضعف، والامتحان، والسقوط - كل هذه تبرز أمامنا في جلاء. وهل يدهشنا أن يتجلى الضعف قبل الخلاص وبعد الخلاص؟ كما لا يجب أن نحسب أنه ما دام هناك سقوط فلسنا نجد هنا درسًا نافعًا. فالدروس، على العكس، كثيرة وعلى درجة من الخطورة كبيرة. تمامًا كما في التواريخ الشخصية: فنحن نتعلم الكثير من سقطاتنا، أو - على الأقل - يجب أن نتعلم؛ هكذا سنجمع هنا دروسًا لا تقل أهمية لأنها تذللنا. فلنحرص أن نفيد لأنفسنا من هذه المثل والإنذارات التي «كُتبت لإنذارنا».

ونشير لحظة إلى الدروس السابقة: فقد رأينا في العدو الأول - ملك آرام - روح الاستقلال

عن الله، وهي بداية الانحراف. وفي موآب رأينا الاعتراف؛ كما رأينا في الفلسطينيين لمحة من ديانة الجسد. أما يابين والعدو الشمالي فقد تعلمنا منهما إقحام العقل في أمور الله. والآن نتعلم من مضايقة مديان.

أما أولاً فيذكرنا التاريخ بأن قوة أي عدو إنما يضعها بين يديه شعب الله نفسه، بعدم أمانته. «وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين». فما كان لقوة مديان أن تغلب لولا أن الرب سمح لها؛ وما كان للرب أن يفعل ذلك لو لم تكن هناك ضرورة في حالة إسرائيل. ومن لا يتعلم في الشركة مع الله، فلا بد أن يتعلم بين أيدي العدو. ومكتوب «يويحك شرك وعصيانك يؤدبك. فاعلمي وانظري أن تركك الرب إلهك شرٌّ ومُرٌّ» (إر:٢:١٩). على أنني لا أريد الاسهاب هنا في حقيقة يحفل بها الكتاب، وتظهر على كل صفحة من سفرنا هذا الذي ندرسه.

المؤرخ يطيل في ذكر تفصيلات طبيعة الظلم الذي تعرّض له الشعب، الأمر الذي يفتح أذهاننا لمعرفة من هم أولئك المديانيون، روحياً. فالخوف منهم هو الذي حمل بني إسرائيل أن يحفروا مغاير وكهوفاً يحتمون فيها. ذلك أن أولئك الغزاة كانوا قد استقروا في الأرض ومعهم العمالة وخليط من القبائل الشرقية، كالجراد يتلفون كل طعام ومؤونة. لم يستقروا - كالموآبيين - على تخوم الأرض عند أريحا، بل غشوا الإقليم كله كوباء مهلك «إلى مجيئك إلى غزة»، معقل الفلسطينيين. وهكذا أنت ترى كيف كان عنيقاً ظلمهم حتى صرخ بنو إسرائيل إلى الله الذي كانوا قد انحرفوا عنه في انحطاط. فمن هو ذاك - إذاً - العدو القاتل، بالنسبة للكنيسة؟

كان مديان من سلالة إبراهيم؛ فهو بهذه الطريقة على صلة طبيعية بإسرائيل، كغيره من شعوب كثيرة. بيد أنهم من بكور التاريخ دلّوا على أنهم أعداء لشعب الله. فهم الذين مع الإسماعيليين سبوا يوسف إلى مصر وباعوه عبداً هناك. ثم لما نجا الشعب من تلك العبودية وكانوا على مشارف ميراثهم، برز المديانيون، وفي تضامنهم مع موآب حاولوا أن يستجلبوا لعنة الله على الشعب بواسطة بلعام؛ ولما تبدت خيبة مشاريعهم، نجحوا في التغرير بهم فجلبوا عليهم يد الله المؤدبة لمشاركتهم في طقوس بعل فاغور الدنسة. وبسبب هذا أوصاهم الله قائلاً «ضايقوا المديانيين».

وهذا الذي جاء بشعب الله إلى مصر، والذي دنسهم بالمخالفة النجسة معها، أمر مألوف جداً. ولا يشق علينا أن نميز فيه روح العالم. أما أن له صلة وثيقة بموآب، ومن وجوه كثيرة

يشبهه، فأمر لا يدعو إلى الدهشة؛ كما لا يدهشنا أن له صلة بعماليق، شهوات الجسد، وبجحافل من الشرق عديدة. فالعالم والجسد حليفان متكاتفان؛ وإلى جانب هؤلاء يصعد طوفان من المبادئ والممارسات الشريرة، التي وإن لم تكن منسقة فإنها متحالفة.

مديان معناه "خصام"؛ وهو اسم مناسب لروح العالم الذي يستجلب مخاصمة الشهوات في النفس. «الجسد يشتهي ضد الروح» وإذ يفتح الباب للعالم، يدخل الخصام ضد كل ما هو من الله. إنني لأذكر هنا مثلاً مشهوراً. هذا شاب مسيحي، سعيد، أمور الله مسرته، والشركة مع القديسين مرضاته الوحيدة. لكنه تائه القلب، ومن ثم يجد العالم مدخلاً إليه. ليس على شكل أخلاقي شائن، بل انغماس في مباحج لا تؤذي (على حد تعبيرهم)، وتكوين زمالة مقبولة (على حد تعبيرهم كذلك). لكن لاحظ النتائج. فالخصام يبدأ مع الأمور الإلهية. والضمير لا يدعه يواصل مسيرة تخاذل القوة الروحية دون أن يحتج عنيقاً؛ وسلام قلبه الذي كان مرة «كجنة ريا» يتبدل إلى معركة لقوى متصارعة. ذلك أن مديان، العالم، قد أدخل خصامه في أفق حياته الهائثة، وبظل يؤدي عمله القاتل حتى يُنقذ، أو يؤخذ كلية في الفخ، وفي استعباد كامل. وإذ يلمح بعض رفاقه المسيحيين ما يستهدفه من خطر، فإنهم يحاولون تحذيره لإنقاذه؛ إنما لجذبهم إلى حلبة "الخصام". "ماذا في هذا من ضرر؟ كثيرون يفعلون أشر مما أنا أفعل". والخصام يا إختوتي رفيق الروح العالمية. ألم نخبر شيئاً من هذا؟

«إن أعداء الإنسان أهل بيته». وأي شيء أسعد من البيت المسيحي، حيث يُعترف بالمسيح رباً. البيت المسيحي، على هذا النمط، لمحة من البيت السماوي حيث لا يمكن لشيء ما أن يقتحم ليفسد علينا سلامنا الأبدي، إذ لا شيء يمكن أن يتدخل مع سلطان المسيح المطلق. قارن هذا بالبيت المنقسم، حيث فتح الباب للعالم. إن الإيمان لا بد أن يقف ثابتاً صامداً، ولكن ما أكثر الحزن والمخاصمات التي يجلبها العالم. يحاول الاخوة المتقدمون إبعاد العالم عن هذا البيت: تطلب الزوجة أن تسير مع الله، بينما يبذل رجلها كل جهد لجذبها إلى العالم. في هذا الجو المتناقض، ألا يكون خصام؟ أليس أنه لا بد من المخاصمة إذا كان أحد الزوجين يريد أن يكون أميناً للرب ولحقه؟ من هنا يبدو أن أماننا الكافية لفهم دلالة اسم مديان. ولكن هيا خطوة أخرى.

لقد طالما وقعت الكنيسة تحت سلطان العالم. فقد رأينا - في صفحات سلفت - أن كنيسة برغامس كانت خليطاً من كنيسة وعالم. فوجدنا - في تلك الصفحات - أن صلة تقوم بين الكنيسة: برغامس، وموآب؛ عالم الاعتراف يضع يده على الكنيسة. وصلة كل هذا بمديان أكثر من واضحة

حيث ترد الإشارة التاريخية في الرسالة إلى برغامس إلى الدنس الذي أدخله بلعام بواسطة الموآبيين والمديانيين. فأنت ترى إذاً كيف أن الكنيسة في تاريخ مبكر جداً قد وقعت تحت هذه السلطة. أجل، فإن روما اكتسبت سلطانها، من الكنيسة التي ساد عليها الأباطرة؛ قسطنطين وخلفاؤه.

ولكن كيف صارت الحال من بعد ذلك التاريخ؟ إن الله، في رحمته، منح شعبه أزمته نهضة؛ وإن القديسين في بلدان بأكملها اختبروا رحمته الشافية إذ خلصتهم وأعتقتهم من سلطان العالم وتأثيره. ولكن هل عمّر طويلاً هذا العتق؟ وهل يعوزنا الدليل على سلطان مديان لو رجعنا إلى الوراء؟ ألق فقط نظرة على الكنيسة من حولك اليوم ولاحظ ليس فقط روح التوفيق البرغامسي بل إلى جانبه لاحظ الرضا اللاودوكي. إن مديان قابع في أرض الله، يختلس ميراثه. فإن كنا نجهد، فذلك دليل على أننا مستغرقون في الاستعباد إلى أذقاننا.

خذ في بالك الشهادات العديدة التي بدأت كاحتجاج واضح ضد العالم. هل أعددها لك؟ وماذا كان من شهادات أولئك الشهود ضد العالم؟ ضع هذا التساؤل في مسامع قديسي الله الذين يتنون من الرجاسات، ويخفون أنفسهم - جهد المستطاع - من المخاصمات التي من حولهم. ولعله من تحصيل الحاصل أن نعدد: المباهج والتسلّيات العالمية في الكنيسة، والأساليب العالمية في تحصيل المال وجمع النقود. فنحن نسمع الصيحة من أفواههم: يجب الاحتفاظ بالشباب؛ ومن هنا أخذت الكنيسة الإسمية تدخل في مباراة مع الملاهي والمسارح. ولكن كفى؛ إن الدموع هي أسلوبنا الوحيد ونحن نفكر في الاستعباد المدياني من حولنا.

لنفكر تفكيراً جدياً. لننتيقظ؛ ففي اللحظة التي نسمح فيها للعالم أن يدخل في وسط أولئك الذين يجتمعون إلى اسم الرب، من أحداث أو عجائز، فقل سلاماً على الشهادة للمسيح. ألا ليت إلهاً يوقظنا وينبهننا إلى هذا العدو القاتل الخطير!

ولكن عوداً إلى أصحابنا. فهذا مديان يتلف كل ثمار الأرض. وقد علمنا أن كنعان، حتى إلى يومنا الحاضر، معروفة - في كثير من أراضيها الإقليمية - بخصوصيتها العجيبة. وقد استطاع الله أن يقول عنها إنها بهاء كل الأراضي، كما وعد شعبها بأنهم سوف لا يأكلون خبزهم بالمسكنة. ولكن ما أكثر، من بين شعب الله، من اشتكوا من هزالهم. فالطعام الذي يجدونه قليل، والكتاب بالنسبة لهم سفر مختوم، ومن هنا تعاني نفوسهم مجاعة. آه يا إخوتي: إن العالم قد أتلف الطعام. ولن تستطيعوا أن تتمتعوا بالعالم وبالمسيح معاً؛ تلك استحالة. إن المسيح هو خبز شعبه، لكنك لن تتمتع به إن سمحت للعالم أن يغتصب مكانه.

تكلّمنا عن مَوَّاب كمن نرى فيه كابوسًا على الكنيسة، كابوس الاسمية والاعتراف. وكان عجلون رجلًا سمينًا جدًّا، الأمر الذي نجد فيه إشارة إلى الكتلة الثقيلة الوزن. بيد أننا لا نرى في مديان شيئًا من هذا الطابع السلبي. فنحن إنما نلمح نشاطًا في هذه الجحافل التي تحدّثنا عن عدو دائب الحركة. فهو يطلب أبدًا مواقع للهجوم. ولسنا بحاجة لمن يذكرنا بمدى نشاط الشيطان في محاولة إخضاع الناس لسلطان العالم. وقبل أن نتبين الأمر إذا بشجرة تنفتح، ويدخل منها العدو مثل طوفان غامر. ولا يجب أن ننظر أن الروح العالمية تتحرك في بطن. إنها مأكرة ونشيطة حية، واسمها لجيثون. ولو أننا سُئلنا، لو طُلب منا أن نكتب قائمة بما هو من العادات والممارسات عالمي، لكان ذلك جهدًا مستحيلًا. غير أن الروح القدس فعل ما هو أفضل لنا كثيرًا؛ فقد عرفنا بما هي طبيعة العالم. «كل ما في العالم: شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة. ليس من الآب بل من العالم». إذا فالطابع العام الذي يميز العالم هو الشهوة؛ غير أن ما يميزه بالأكثر هو أنه ليس من الآب. فما لا نستطيع أن نستمتع به بالشركة مع الآب - مهما يكن بلا ضرر حسب الظاهر - هو من الأمور التي يجب مجانبتها كشيء من العالم. وما أحلى ما يقوله الرسول يعقوب في هذا الشأن: «من أراد أن يكون محبًّا للعالم فقد صار عدوًّا لله».

ولكن يا لتأثير هذه الكلمة «الآب»: محبة الآب، قلب الآب، عناية الآب. وهل تحس النفس بفراغ أو حاجة إذا كانت في غبطة التمتع الهائئ بهذه الأمور؟ هل تحس بحاجة إلى ما في العالم؟ إنها شبعانة، ومكتوب «النفس الشبعانة تدوس العسل». أما الخطوة الأولى صوب العالمية، أليست تحدّثنا عن جفوة القلب وبرودته إزاء الآب؟ آه، فما أكثر ما نحزنه في القلب. بيد أننا إن شُغلنا بما يشغل الآب، إن شُغلنا بأفكاره كما هي معلنة في كلمته، ووجدنا مسرّتنا بمن هو موضوع مسرة الآب؛ فلن يكون لنا في العالم شيء منه.

على أن شعب الله أخذوا - في آخر المطاف - يصرخون تحت وطأة العبودية. وإحدى العلامات على الولادة من الله أن المولود من الله يشقى تحت سيادة أعدائه الروحيين. ولن يطول به المدى حتى يصرخ إلى الله. بيد أنك تلاحظ أن الصراخ لا يُثمر الراحة من فوره. فقد يرسل الله - على العكس - رسولًا، نبيًا، لكي يعمل على تعميق الإحساس بعدم رضائه. وكالعادة، يرجع إلى الفداء من مصر؛ ذلك الإنقاذ الذي هو عربون كل إنقاذ آخر ويعود بالشعب إلى ما فعله يومذاك. فقد أتى بهم إلى هذه الأرض، طاردًا منها العدو، وقال لهم ألا يتهيبوا الآلهة الكاذبة التي كان الأموريون يعبدونها. وما أبسط هذا جميعه! وكيف كان مستحيلًا أن يخشى الشعب من قوات

الشر سبق وحطمها الله بقوته. بيد أنهم - وليسوا وحدهم - لم يسمعوا لصوته.

وانظر - أخي - إلى مبلغ الحكمة المقدسة المعروضة أمامنا هنا. الشعب في حال من الظلم والضغط المرير؛ يصرخون إلى الله؛ ولكن عوض أن يسارع للتخفيف عنهم، عمّق في نفوسهم الإحساس بمسلكهم الرديء. ونحن في العادة نتجه أفكارنا - أول ما نتجه - إلى الخروج من نتائج غبائنا وقردنا؛ في حين تكون إرادة الله أن نحكم - حكماً صادقاً - على ما دفعنا إلى ذلك المسلك. وصره تعالى وعطفه يمتزجان معاً بنسب إلهية حتى يتسنى لنا أن نحصل على فائدة الدرس. فلنضع هذا في الحسبان ونحن نتعامل من أجل الله مع الآخرين ومع ذاتنا. فلا يدفعنا الحماس إلى محاولة إنقاذ وتخليص شعبه من موقف الحرج، بل ليكن هدفنا أن نراهم وقد وصلوا إلى قاع الأمور مع الله. ولو أن هذا التصرف أخذ سبيله باستمرار إذاً لا نخفض عدد حالات الخيبة إزاء انحرافات من نظن أنهم قد استردوا شركتهم ورجعوا.

أما وقد أصدر إلينا الرحيم شهادة أمينة على خطية الشعب، فما هو يبدأ في التدخل لحسابهم. صحيح أنه عتيد أن يُخلّص الشعب من عبودية مديان، ولكن أين يجد الآلة الملائمة؟ أين الشخص الذي تتجسم في ذاته دروس الخلاص، وهكذا يكون في مقدوره أن يطالعهم بأسباب استعبادهم؟ أرسل ملاكه إلى عفرة في سبط منسى، إلى جدعون بن يواش. كان ساعتئذ يخطط حنطة في المعصرة لكي يخفيها، يهربها، من المديانيين.

لو وضعنا في بالنا أن مديان يمثل العالم، نجد أنه كان من المناسب أن الشخص الذي يخلّص الشعب من سلطانه يتميز بطابع من يغلب العالم. إيماننا هو الذي يغلب العالم كما تعلمنا كلمة الله؛ وهذا الإيمان يتجلى في الصفة التي توحىها هذا التسمية «منسى». فإن «منسى» معناه "مُنْسِي"؛ ونفهم من الكلمة أن المتسابق، الراكض، السماوي هو الذي «ينسى ما هو وراء ويمتد إلى ما هو قدام» فهو بهذه الصفة يتجاوز عناصر العالم وأركانه المعوّقة، وأمامه الجعالة العليا. فالمبدأ الذي يغلب العالم إذاً هو هذه الروح الغير العالمية، التي تجد آمالها وتطلعاتها في موضع آخر.

إن عفرة معناها "غبار - تراب"؛ والشخص الذي يدرك بحق معنى عار شعب الله وهم في قيود الاستعباد للعالم، يضع وجهه في التراب؛ يسكب قلبه مثل دانيال في خزي كامل من أجل الهوان الذي يلحق اسم الله بسبب هذا الأمر. والعلاقة التي تميز الذهن الروحي السليم ليس انتقاد خطايا الكنيسة المعترفة، بل الحزن والخزي بسبب هذه الحالة. أما الشخص الذي ينتقد ويدين فإنه لا يدرك الخطية المشتركة والخزي، الخطية التي جلبت مثل هذا التعبير على شهادة حق

الله. فلقد كانت روما مليئة بالمنتقدين الذين نددوا برذائل العاصمة المترفة للسخرية بالرومانيين؛ لكن السخرية لم تكن كافية لتحطيم قيد واحد، أو إرجاع نفس واحدة إلى الله. والسبب: أن الانتقاد لا يفتح الباب لله، ولا يحزن. فإن شئنا أن نتحرر - أفراداً - من العالم فيجب أن نقيم في غرفة؛ وهناك نحصل - في القليل - على الرسالة التي تحرر الآخرين أيضاً.

أبوه - أبو جدعون - يوأش بين أبيعزر؛ "البائس" ابن "أبي عون". فهو الشخص الذي يمثل اليأس من معونة الآخرين، ويدرك ضعفه الشخصي، فيتحول إلى الآب الذي فيه وحده معونتنا. علينا أيها الاخوة أن نستفيد من معاني الأسماء، فالوحي مليء بأمثلة عن استخدام الأسماء في تعاليم روحية. وكثيراً ما كانت معاني الأسماء بمثابة مفاتيح تفتح لنا فصول الكتاب، لولاها لبقيت تلك الفصول مغلقة علينا.

إن العمل الذي كان يقوم به جدعون حافل بالمعاني؛ لقد كان يخطط حنطة يهربها في المعصرة؛ ضمناً لحفظها من جهة، وإيقائاً بأن المعصرة مكان ليس من المحتمل أن ينظر إليه المديانيون. والشيء الذي كان أولئك الأعداء يعملون على إتلافه، كان هو ذات الشيء الذي يحتفظ به جدعون طعاماً له. والحنطة تشير إلى المسيح، خبز النفس كما هو معلن لنا في الكتاب؛ والتخبيط (أو الدراسة) إشارة إلى الجهد الدائب في البحث عن المسيح في الكلمة، المسيح خبزنا. والمعصرة تذكرنا «بدم العنب» وبدمه - دم سيدنا - الذي يطهر من كل خطية. فهو إذًا يشير إلى الصليب، الذي هو بمثابة المعصرة للمسيح، إذًا فالصليب - ترتيباً على تصرف جدعون - هو خير ملجأ يختبئ فيه الإيمان من سلطان العالم. فلنأخذ مكاننا إلى جانب الصليب، ولن يجرؤ المديانيون يومئذ أن ينازعونا مقامنا.

ولكن لاحظ تصميم الإيمان. العدو في كل مكان، لكن لا بد أن يكون له طعام. هو ضرورة مطلقة ملحة، ومن غير ترخيص الأصدقاء أو الأعداء هو يحصل عليه، يهره، يخفيه، من أولئك الذين يسرهم أن يتلفوه. فقد خاب إسرائيل، والعدو داس الأرض بقدميه؛ لكن لا بد أن يحصل على الطعام لشبع نفسه. فهل تراء يائساً؟ إن جدعون لا يرتضي الجوع، ولو ارتضاه الآخرون؛ ذلك أن بين جانحيه إصرار الإيمان الذي لا شيء يعوقه عن الحصول على ما يحتاجه.

ولنتوقف لحظة، أخي، لندقق البصر في هذا الإنسان المنفرد، المنعزل. إنه ذو عزيمة ملحة، لا يعرف اليأس سبيلاً إلى نفسه، لأن مطلبه ضرورة لا غنى عنها. وكيف الأمر معنا؟ هل المسيح ضرورة بالنسبة لنا؟ أو نراء أمراً ضرورياً أن نحصل عليه كخبزنا، كطعامنا، مهما تكن

العوائق، ويغض النظر عن انحرفوا عن الله؟ وهل تدرينا على استخدام الصليب كملجأ، ليس فقط لضمان خلاصنا الأبدى، بل بوصفه الشيء الذي اعتقنا من هذا العالم الحاضر الشرير؟ الملك يخاطبه بطريقة ملفتة: «الرب معك يا جبار البأس». بحسب النظرة البشرية هو أي شيء إلا أن يكون رجل البأس. فهو مختبئ؛ ورجل البأس يواجه العدو، ويقود الشعب لمناهضته وطرده من الأرض. بيد أن الله ينظر ليس كما ينظر الإنسان. فإنه يميز البأس في التصميم على الحصول على الخنطة مهما تكن الكلفة. هو يعرف مقاصد القلب؛ وكيف ترتبط بذلك العمل المتواضع، خبط الخنطة.

من هم رجال الله ذوو البأس؟ أين نجدهم؟ ليس بالضرورة في الأماكن العامة يناضلون ضد الملحدّين أو ينددون بحماقات الزمان الحاضر؛ بل إن كنت تحب أن ترى رجال البأس فإذهب إلى المخادع.

فهناك في المخدع: أم لأولاد، في عمل دائب لا يفرغ. هي عرضة أن تكون غيرها من باقي نساء العالم من حيث المظاهر وغيرها من الأساليب الماكرة المضللة التي تستبعد كثيرًا من الأمهات. كما أن في عنقها عملاً ضروريًا لا بد من أدائه كل يوم، يضغط عليها كل لحظة. إذا فهي - في هذا الجو - عرضة لأن تصلي صلاة على عجل، ثم تندفع إلى أعمال اليوم بقلب بعيد عن حضرة الله. فهل نعجب إن دخل هنا "خصام" مديان؟ هل نعجب أن يبقى للأمم النذر اليسير من السيطرة على الأولاد؟ وألا يكون لها من السلطان ما يقودهم إلى طرق الله؟ لكن انظر، إنها تترك عملها لحظة، وتأخذ كتابها وفي فترة هادئة تقرأ وتصلي؛ إنها تقول إن صليب المسيح قد منحها - على الأقل - هذا الامتياز، وتتمسك به كامتيازها. لكنني أسمع بعض الزوجات يقلن: إنك تجهل العمل الذي أمامنا. بيد إنني، يا أختاه، أعلم أنه إذا لم يكن لديك عزم القلب في الحصول على طعام لنفسك يوميًا، فإنك لن تنتصرين في ميدانك.

وهنا رجل أعمال، يستيقظ قبل الموعد الذي يتطلبه العمل بنصف ساعة مثلاً، ليحصل على كلمة من الله قبل أن يمضي للصراع مع العالم. هو يفضل ذلك على تناول الطعام، ويعتبره أهم من العمل ذاته. هو يضع في المكان الأول من الأهمية: ملكوت الله. هو الأول، ليس فقط من حيث الترتيب الزمني، بل من حيث الأهمية والضرورة الحتمية.

لعلك تبتسم وتقول إنني أشدد أكثر من اللازم. ولكن دعني أصارحك يا أخي بأنك لن تكون جدوعًا ما لم تتجاذب مع هذه الاختبارات. لن تكون جبار بأس، ولن تنقذ واحدًا من

أولاد الله من العالم، ما لم يتوفر لك من عزم القلب ما كنت أصفه لك. وهل من عجب أن نرى الأم تندب لأن العالم يتسلل باستمرار إلى داخل الأسرة، وأن أولادها يتجهون ذلك الاتجاه عوض أن يتحولوا إلى المسيح؟ ألا فلنكتب هذا بأحرف من نار في أعماق نفوسنا، في أغوار ضمائرنا: المسيح وكلمته أولاً وقبل كل شيء؛ وما عداه، حتى الحياة ذاتها، أمر ثانوي. وإذا ذاك نتطلع فنرى مديان يمضي هارباً.

وهذا هو الشيء الذي يبعث الشجاعة أكثر من الإثارة التي تنشئها الخطب المنبرية. وإن شككت فقم بتجربة وانظر كم من العوائق تلتقيها وأنت تريد الحفاظ بعادة كهذه. فإن كنت في مخدعك غالباً، هيئ نفسك لعديد من الصراعات المكشوفة، ولكن ستجد أنك قد ربحت المعركة من قبل. ويستطيع الله أن يجيبك كجبار بأس، ويستخدمك عوناً للآخرين. ومرة أخرى: كيف حالنا يا أخي؟

جدعون معناه "قاطع" "قاطع حطب" وأنت تراه أبداً عاملاً دائماً؛ ولكن هنا نرى من أين اكتسب اسمه. إنه يقطع لنفسه، ليس من عين عليه ترقبه سوى عين الله. ومن يفعل هذا يفعل أكثر منه.

هذا كلام بسيط. فلسنا مدعويين لعظائم الأمور، وإنما لنكون أمناء في ما له صلة بأمر صحة نفوسنا؛ دُعينا لكي ننتهي المسيح أكثر من سواه. هل من الجائز ألا نفعل ذلك؟ ومع هذا فما أقل مَنْ لديهم الشجاعة للقيام بهذا العمل البسيط.

ولنعد إلى جدعون. وسترى - كما هو المألوف - أن من يطلب الطعام لنفسه يُعنى أشد عناية برخاء شعب الرب ويمجد سيده. «يا سيدي، إذا كان الرب معنا، فلماذا أصابتنا كل هذه؟ وأين كل عجائبه التي أخبرنا بها آبائنا قائلين: ألم يصعدنا الرب من مصر؟».

وأنت ترى أنه يعود - كما يفعل كثير من قديسي العهد القديم - إلى الفداء من مصر. وتلك هي حجة البقية في أيام اضطهاد الأمم قبيل تأسيس ملكوت ربنا. «كرمة من مصر نقلت؛ طردت أمما وغرستها». «بآذاننا قد سمعنا. آباءنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم. أنت بيدك استأصلت الأمم وغرستهم». وعلى ضوء هذه الأعمال الماضية ترى المرء يأسو على الوضع الحزين الذين صاروا إليه «لكنك قد رفضتنا وأخجلتنا ولا تخرج مع جنودنا. ترجعنا إلى الوراء عن العدو ومبغضونا نهوا لأنفسهم». وما أشبه ظلم المديانيين بهذا. وما أشبه بإيمان جدعون حجة البقية الصادرة من قلب كسير. إنه إلها لن يأبى أن يستمع لتوسلات مثل هذه، ولو

أنه يعمل في قلوب الشعب بعمق كثير لكي يقودهم إلى إحساس صادق بخطيتهم. وكذلك الحال مع الذين ينسحقون بسبب الحالة التي وصلت إليها الكنيسة اليوم. فإن إنسحاقهم لا يقتصر على حالة الانحراف الذي تجلّى في بضع السنوات الماضية. لا ينسحقون لأن الأمور اليوم ليست هي نفسها منذ عشرين أو خمسين سنة. وإنما هم - في إنسحاقهم - يوازنون بين الحالة الراهنة وبين يوم الخمسين. ولما قال الرب لملاك كنيسة أفسس «أذكر من أين سقطت» عاد به إلى المحبة الأولى. وانظر إلى أي مدى يبلغ بك التأثير والتأثر وأنت ترى الله يحاج أوشرليهم بهذا الأسلوب الفاحص «قد ذكرت لك غيرة صباح، محبة خطبتك». فالإنسحاق الصادق يعود بالذكرى إلى النقطة التي تلاقى الله فيها مع النفس ويتخذها قياساً يقيس عليه الحالة الراهنة. وإنما يا أخي لا نقدر أن نباهي أو نرفع الرأس فخاراً إن ذكرنا - برغم الانتفاضات والنهضات العابرة - ماذا كانت عليه الكنيسة في تلك الأيام البواكر، أيام المحبة الأولى! بل إن الحزني والألم هما الجديران بنا حينئذ.

رجل من هذا الطراز يستطيع الله أن يستخدمه لخلاص إسرائيل. «أذهب بقوتك هذه وخلص إسرائيل من كف مديان. أما أرسلتك؟». ولعله لا يفوتك أن تلاحظ أن الرب لا يمنح جدعون قوة جديدة؛ لكنه يعتبر القوة التي أظهرها كافية لتخليص إسرائيل. ولئن كنا عرفنا ما تنطوي عليه هذه العبارة من دلالة وقوة، غير أنني ألفت انتباهك إليها مرة أخرى لترى كيف ينبّر الله على شجاعة الإيمان الذي يحصل على طعامه مهما تكن المخاطر «أذهب بقوتك هذه».

بيد أنه كان على جدعون - كموسى وغيره من خدام الله - أن يفرغ من ذاته إلى الآخر؛ أن يتخلص من تواضعه ومن ترفعه: سواء بسواء. لقد أكد الرب لجدعون أنه معه، غير أنه يعود ويقول «بماذا أخلص إسرائيل؟»؛ كانت ذاته حينئذ نصب عينيه؛ فيتحدث عن فقر أسرته، وأن بيت أبيه ليس معروفاً. ولكن ما شأن هذه الأمور جميعاً بالإله الحي؟ هل يظن جدعون أن قوته هي التي تحطم مديان؟ لقد نسي، إذًا، ما كان إيمانه قد تلقاه من دروس.

بيد أن جدعون ليس وحده في هذا. فمن المألوف - للأسف - أن نرى كثيرين ممن تخلوا عن الافتخار وعن تصور عظمتهم، ينشغلون بضآلتهم. على أن «أنا» في ضآلتها، عائق كبير مثل «أنا» في جسارتها. قد يبدو من التواضع أن ينزل الإنسان بقدر نفسه وأن يأخذ المكان الخلفي؛ ولكن يغلب أن ترى الكبرياء الماكرة ترتدي ثياب التواضع. فليست الذات - في صلاحها أو طلاحها - هي التي ننصبها قدام عيوننا؛ «أنا» الضعيفة، و«أنا» القوية - يجب

أن نرفضها ليكون المجد كله لله.

وانظر كيف واجه الرب هذه اللمة العابرة من ملامح الكبرياء المتواضعة في عبده جدعون؛ ففي لطف النعمة لا فنى خادمه إزاء تلك الخصلة التي لم تكن عميقة الجذور في نفس عبده. بحيث لم يقتضى استئصالها سوى كلمة. «إني أكون معك وستضرب المديانيين كرجل واحد». فبالنسبة للإيمان لم يكن العدو سوى رجل واحد. هو في الظلم حشد كبير من الجند يبعث الرعب؛ ولكن في اللحظة التي فيها يكتشف الإيمان نفسه، لا يرى سوى رجل واحد كما مع داود يوم التقى بجليات.

ثم خذ في بالك مدى استجابة جدعون، وما طلبه إيمانه من علامة تأييد. فلقد طلب هذه العلامات، أو الآيات، وأُجيب إلى طلبه أكثر من مرة؛ وهي بلا شك ليس فقط تأييداً من حيث أنها استجابة لسؤاله، بل هي في ذاتها تنطوي على دروس مليئة بالإيحاءات توائم الحاجة. وإلى جانب هذا، كان جدعون يريد أن يقدم ذبيحة، أعني يريد أن يكون ساجداً. ومن ثم أتى بالذبيحة المألوفة: جدي معزى وإيفة دقيق وفطير. وكلاهما يحدثنا عن المسيح. فالجدي، مع أنه هنا ذبيحة سلامة، يوحي بفكرة الخطية، وهي التي كان يقدم عنها الجدي في الخدمة اللاوية. إذًا فهو يذكرنا كيف جعل المسيح خطية لأجلنا؛ كما يذكرنا بذلك الذي كان مقبولاً أمام الله تمام القبول. والفطير والدقيق مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالجدي، يذكرنانا بشخص المسيح الذي بلا عيب. وقد وضع الكل على الصخرة - رمز آخر للمسيح - ونار حملتها جميعاً إلى الله. وهكذا نقدر أن نقول إن جدعون لم يحضر سوى المسيح الذي يتقبله الله أبداً. وهل كان ينقص جدعون، هل كان يعوزه، علامة خير من هذه؟ وهل خير منها يعوزنا نحن؟ فإن لم يكن لنا إلا المسيح، عمله وشخصه، فنحن على يقين أن قبول الله إياه ضمان وعربون على نصرتنا بالذي أحبنا، بل وإننا أعظم من منتصرين. والعالم، يا أخي، لن يقدر أن يتصدى لهذه الحقائق الغالية. لن يقدر أن يقف في وجه أبسط قديس ينظر إليها في قوة الحقيقة الإلهية، كأساس العلاقة مع الله وتعبير عنها. وهي في الوقت ذاته شهادة على انفصاله عن العالم ونصرته عليه.

لا يبدو أن جدعون قد أدرك أنه كان وجهاً لوجه مع ملاك الرب إلى أن اختفى. وحينئذ غمرته الواقعة الخطيرة فتهيب النتائج. لكن النعمة بادرت وطمأنته فبنى مذبحاً للرب، يهوه شلوم «يهوه سلام». ففي وسط الضجة الشائرة المحيطة به، وعلى رغم الصراعات المخيفة التي كانت توشك أن تندلع، وُجدت بقعة واحدة توفر فيها السلام التام، وشخص واحد لم يكن معه أدنى صراع: يهوه نفسه. وإن هذا ليعزنا بكلمات من فم الرب لتلاميذه «في العالم سيكون

لكم ضيق؛ ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

جميل هذا كله، وهادئ معًا، في وسط الخرائب والفوضى «إذا هو سَكَنَ» - إذا هو منح السكون والهدوء «فمن يشغب؟»، من يزعجنا؟ لقد وجد جدعون إله السلام، ومن ثم نراه ساجدًا مقبولاً. وبذلك احتسب في ستر حضرة الله من كبرياء الإنسان ومخاصمة الألسن. ولاحظ أن العبادة، السجود، هو العلاج الحق للروح العالمية. هما نقيضان لا يجتمعان معًا: السجود والروح العالمية. وليس هذا الكل؛ لقد رأينا كيف تهبأت الآلة في السر؛ وها هو المشهد يتبدل، بحيث صار على جدعون أن يستخدم كل ما لديه من إيمان للخطوة التالية. فيحطم مذبح البعل الذي يملكه أبوه، ويقطع السارية، ويُصعد ثورًا على مذبح يقيمه للرب. وما ذلك، في الواقع، إلا امتدادًا طبيعيًا للسجود الذي تمتع به من قبل. فالله لا يقاسم مجده مع البعل؛ فإما مذبح واحد أو يهدم الآخر. وأصبح لزامًا على جدعون أن يتصرف كمنعنى اسمه «قاطع» وأن يكشف عن حيوية إيمانه وحقيقة طاعته.

ولكن ما أصعبه امتحانًا فاحصًا للقلب! هو عليه أن يجد الرب في وسط أسرته. فبعدما رسخت أصول علاقته الشخصية بالله؛ أو، قل، بعدما كسب نصرته سرًا، صار عليه أن يثبت تلك العلاقات في نطاق دائرته العائلية. أهو يعبد الله ويطيعه لذاته، لنفسه فقط؟ إذا فليطبق الطاعة نفسها في ما يتصل بدائرة التزاماته الواسعة. هل يجوز في شرعة الحق أن إنسانًا يخرج ليُخلَّص إسرائيل وأسرته ذاتها في أغلال الاستعباد؟ أو يقيم مذبحًا للرب عن إسرائيل والأقربون إليه، أعزَّ الناس لديه، يسجدون للبعل؟ إن دائرة التأثير الإلهي تبدأ من المركز ثم تنتشر إلى جميع الأبعاد. وما أكثر الذين هم عرضة لقلب الأوضاع، وعكس الترتيب. فقد يكون لهم من الحماس القدر الكافي والغيرة على مذبح الله عن إسرائيل، ومع ذلك فقد لا يقيمونه في عائلاتهم. وانظر تطبيق هذه القاعدة على المذبح العائلي كما نقول. كيف يتسنى لواحد أن يتمتع بامتيازات المذبح الجماهيري في ملئه، وهو غير مكترث بمذبح أسرته؟ ذلك بأنه على درجة كبيرة من الجبن بحيث لا يقرأ كلمة الله ويصلي مع أسرته؛ فكيف لمثل هذا أن ينتظر الحرية والبركة في الصلاة الجماهيرية؟ لست أقصد أن أقصر كلامي على هذا الشيء فقط، وإنما هي مجرد عينة لكثير من نواحي حياة المسؤولية.

على أنه ليس من اليسير إقامة مذبح لله على أنقاض مذبح البعل. فكم رأينا من الشجعان من استطاعوا - في جراحة - أن يعترفوا علنًا بالمسيح، لكنهم تخاذلوا في الاعتراف

به في العائلة. لكن هذا هو الامتحان: لا بد منه، وإلا فلا تقدم.

من الطبيعي - على درجة كبيرة - أن يأبى جدعون هذه الخطوة جهارًا نهارًا. فلا أقول إنه أظهر شجاعة نادرة. بل نظير نيقوديموس الذي أبى أن يمضي إلى سيدنا في رائعة النهار، قام جدعون بهذه المهمة الشاقة تحت جنح الدجى. بيد إنني أريدك أن تلاحظ هذا الشيء. فإنه سواء في شجاعة أو غير شجاعة، فقد تم العمل؛ وهذه هي النقطة الرئيسية. وأتجاوز التفاصيل فقد طالما ذكرنا بها روح الله في ضمائرنا. ولا أسألك، أخي، ماذا أنت عتيد أن تفعل، بل أدع الأمر لضميرك في حضرة الله.

ولنا أن نتصور مدى الرجفة التي كانت بأعصاب جدعون وهو يتوقع الغد، أو مدى هدوء نفسه إذا كان قد جعل الله أمامه. لقد تجمع أهل المدينة وتصايحوا طالبين الانتقام من صنع هكذا بالبعل؛ ومن الطبيعي أن يطلبوا من أبي جدعون أن يسلمهم الجاني. لكنهم تركوا الله من حسابهم؛ وذاك الذي كان منذ لحظة عابدين، استشعر الحقارة لإله ليس في مقدوره أن يدافع عن كرامته. «ليقاتل عن نفسه»: هذا منطق صحيح؛ وكسب جدعون الجولة الثانية في صراعه. نعم، فقد احتل الله عرش البيت. هل من بيننا من يفرغ ويتردد أن يأخذ خطوة إيمانية؟ نتعلم من جدعون، ولنتلقن منه درس الشجاعة. وما أسرع ما تتبدد الآثار التي كنا نخشاها. فالأشخاص - نفس الأشخاص - الذين كنا نخشى مقاومتهم، يصبحون لنا مؤيدين. وإلا، فماذا يحدث؟ قد لا تتوقع الحكم عليك بالموت؛ ولكن افرض أنه حكم به عليك، أو تخاف الشيء الذي يفتح لك الطريق للوجود مع الرب؟

وتتنقل القصة من المشهد الفردي إلى آخر جماهيري. فإن عملية كهدم مذبح البعل كافية لأن تستثير المديانيين. وأقل شيء أن يجمعوا جيشًا عرماً ويملأون الميدان. وجدعون بدوره يتقدم للجبهة، إذ تجلت أمانته في الدائرة الخاصة يستطيع الآن أن يضرب بالبوق ليستدعي إسرائيل. ويحل عليه روح الله ليعده لمهمة خاصة، ومن ثم تجاوب معه أبيعزر الذي كان إلى آخر لحظة يطالب بموته، ثم منسى وأشير وزبولون في أثره. وحقًا إنه عندما يصعد العدو كسيل، فإن روح الله يرفع الراية عالية ضده. لبيدًا - إذاً - في النفس عمل الله التمهيدي، وإذاً ذاك يرى كثيرين يرغبون في التحرر من العبودية ويتبعون قيادته إذ هو يتبع المسيح. وآه، لو أن المسيح كان أمام النفس، المسيح وحده؛ لو أننا في أمانة سرنا حيث قادنا، سنجد أنه يستخدم كلاً منا بحسب قياسه للمعونة في المعركة الكبرى.

والآن يتقدم جدعون فيطلب، ويُعطى، علامتي تأييد على أن الله يخلص إسرائيل بيده. فوضع في البيدر جزءًا، واستجابة لسؤله امتلأت طلاً بينما الأرض من حولها جفاف. وفي الليلة التالية حدث العكس: على الجزء وحدها جفاف، وعلى كل الأرض طل. وهكذا علم جدعون أنه يتعامل مع الله، الذي له كل السلطان، ولا شك أنه كان أمراً مشجعاً له أن يحصل على دليل مباشر وملموس أن الله معه. وثقة الإيمان، لو بدا أنها تسأل علامة تأييد، لن تعثر أو تجرح إلهنا الكريم. فلما كان قد وعد إبراهيم بكل بركة، وبأنه سيرث أرض كنعان، تساءل إبراهيم «بماذا أعلم أنني أرثها؟» هل رأى إلهنا يومئذ أن في تساؤل عبده ما يجرحه، لأن كلمته لم تكن - في الظاهر - كافية له؟ كلا؛ فقد تنازل وأعطاه رؤية الليل، تنور دخان ومصباح نار. ومرة قال لإسرائيل «جربوني». وأخرى قال لأحاز «أطلب لنفسك آية من الرب إلهك».

بيد أن هذه الآيات ليست - كما قلت - غير ذات معنى. بل قصد بها أن تحمل درساً، وتدعم إيماناً: درساً يلائم الموقف ويمتد أثره إلى أكثر من تسديد حاجة ظاهرية. فماداً نتعلم من هذه الآية؟ الطل، الندى، علامة مألوفة عن رضى الله، إذ هو المصدر الرئيسي لخصوبة الأرض التي لولاه لأحرقها الجفاف. وهذا اسحاق وهو يبارك يعقوب يستخدم تشبيه الندى (تك ٢٧: ٢٨). ويكرره موسى وهو يعلن البركة الختامية للأسباط (تث ٢٨: ٣٣). وإيليا، من زاويته، يعلن قضاء الله على الأرض بمنع الطل (١ مل ١٧: ١). ونفس التشبيه يردده حجي النبي «لذلك منعت السماوات من فوقكم الندى ومنعت الأرض غلتها» (حج ١: ١٠). وهوشع، إذ يصف رجوع الأمة حين يعود الله وباركهم، يصوره بالقول: «أكون لإسرائيل كالندى. يزهر كالسوسن ويضرب أصوله كلبنان» (هو ١٤: ٥). هذه بعض فصول كتابية نتبين منها كيفية استخدام التشبيه.

نعلم أن كل انتعاش، سواء لإسرائيل أو الكنيسة، هو بالروح القدس؛ وأن الندى الإلهي هو تأثيره المبارك الذي يبعث الإنعاش والمعونة. وكما أن الأرض، من غير الندى، تجذب فلا تثمر، كذلك لا يُرجى ثمر دون خدمة الروح غير المعطلة. فالجذب هو النتيجة.

الجزء هي الصوف مأخوذاً من الغنم؛ إichاء بفكرة انتزاع الشيء ممن له الحق فيه. ومما يسترعى الانتباه أنه في ثلاثة فصول كتابية، حيث نقرأ عن جز الغنم، نجد شراً. فقد حدثت خطية يهوذا مع ثامار في وقت جز الغنم؛ وثورة نابال ضد داود وقعت في مثل هذه المناسبة؛ وفي مثلها قتل أبشالوم أخاه. وحزقيال النبي إذ يتحدث عن الرعاة الباطلين يقول «تأكلون الشحم، وتلبسون الصوف، وتذبحون السمين، ولا ترعون الغنم» (ص ٣٤: ٣). والكتاب حافل

بتشبيهات مأخوذة من اهتمام الراعي بقطيعه؛ لكن الشيء الملفت أن هذه الأحداث: أحداث الخطية والظلم، تقع جميعًا حيث يشار إلى مناسبة جز الغنم.

ونستطيع أن نقول إن المديانيين كانوا يجزّون الشعب حتى لم يبقَ منهم بقية سوى جزء. نحن بهذا ننظر إلى حالتهم من الزاوية التاريخية. ولكن إذ نفكر في ما أعقب ذلك من تاريخ الشعب، سبيهم في بابل، وتشيتيتهم التام في الوقت الحاضر، نستطيع أن نقول بحق إنهم «أمة طويلة جرداء».

البيدر هو الموضع الذي تُفصل الحنطة فيه عن التبن، بتأثير أظلاف الثور أو أسنان وتروس النواج. فهو بهذه الطريقة يذكّرنا بالعدو، ولكن بوصفه آلة في يد الله لتطهير شعبه. والواقع أنه في فصل واحد على الأقل يشار إلى الأمم بهذا المدلول (عا ١: ٣) بينما هم أنفسهم يطهرون وينقون بأحكام مماثلة. وأعتقد أننا على حق إذا قلنا إن الفكرة التي يوحى بها البيدر هي فكرة أداة الله التأديبية.

حينما طلب جدعون أن يكون على الجزّة طل، فتلك علامة تتحدث عن بركة الله لشعبه المضطهد، ليس في ذلك الزمن فحسب بل في الأيام الأخيرة يوم يكون لإسرائيل كالندى. وحين يكون طل على الأرض دون الجزّة، فمدلول ذلك تهاطل البركة على الأمم خلال رفض إسرائيل، أعني في الوقت الحاضر.

ولكن سواء منح الله البركة أو منعها، فإن الله على أية حال يظهر ذاته لشعبه. تأديباته ذاتها عربون الرحمة المستقبلية. وجفاف اليهود الآن، الجفاف ذاته، بينما الأمم يتمتعون بالبركة، هو دليل - أوثق الدليل - على أن الله في يوم ما سيتدخل لحساب شعبه الأرضي المحبوب «من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم؛ وأما من جهة الاختيار فهم أحياء من أجل الآباء».

ألسنا بهذا، وهكذا، نفسّر طرق الله مع شعبه؟ إن الإيمان يرى، في البركة والتأديب على السواء، علامة خلاص. لماذا يؤدّب، لولا أن التأديب لمنفعتنا لكي نشترك في قداسه؟ ولو أن لنا الإيمان أن نتمسك بالرب، أما كان في مقدور إيماننا أن يأخذ علامة، حتى ولو علامة جفاف شعب الرب، علامة على مطر قادم؟ إذ من يرينا الجفاف؟ وإن كان الله هو الذي يرينا إياه، أفليس ذلك عربونًا على المعونة التي نحتاج إليها أكثر من سواها؟

والآن هيا بنا نتفرج على جدعون بالنسبة للشعب. وهنا نرى لا إعداد جدعون للخدمة، بقدر ما هو إعداد للشعب. الجيش كاملاً، قرابة اثنين وثلاثين ألفاً، مُعسكر عند عين حرود، اسم له دلالة: "ارتجاف". وهي تسمية تقدّم وصفاً مناسباً لحالة الأغلبية؛ إذ حينما أمره الرب أن ينادي في وسط الجيش بأن من كان خائفاً ومرتعداً فليرجع إلى بيته، إذا باثنين وعشرين ألفاً يفيدون لأنفسهم من هذا الترخيص بالانصراف إلى بيوتهم.

والله دائماً لديه ما يعده للمواقف. فقد قرر في الشريعة هذه المنادة حتى لا تنتقل عدوى الخوف من الجبناء الخائفين. لكن في حالة جدعون سبب آخر أمام الله. فقد كان الشعب من الكثرة العددية بحيث يتعذر معها إبراز هذه الحقيقة وهي أن القوة الإلهية - وليس القوة البشرية - هي صانعة النُصرة. ذلك بأن الإنسان ميّال إلى الافتخار؛ ومن هنا فلا بد من انتزاع كل مناسبة تتيح له الافتخار.

ونحن أيضاً مولعون بالكثرة العددية. ولماذا شهوة الإحصائيات، ومعرفة أعداد المخلصين، وعدد "الأعضاء" إن لم يكن لدى الإنسان الزعم بأن القوة في الكثرة العددية؟ ولكن أليس الكتاب حافلاً بالأمثلة التي تؤكد عكس هذا الوهم؟ فقد طالما كانت الكثرة العددية فرصة للكبرياء التي تسبق الكسر. فلما أخذ عدد التلاميذ يتكاثر، بدأ التذمر. وليس معنى كلامنا هذا أننا نرفض الكثرة لمجرد الرفض أو للكثرة في ذاتها. بل يسعدنا أن يكثر الذين يقبلون البركة؛ ولكن لا تكن العين على الكثيرين، بل على الرب.

ويصدق هذا، بوجه خاص، على أيام التحلل والانحراف، حين أقام الله بقية شاهدة لحقه. فالأعداد الكبيرة إذا لم تكن مخلصّة، أو بلغة هذا الأصحاب "نقية" تضعف كثيراً من الشهادة. والجماعة القليلة، التي يجربها ويمتحنها الله نفسه، خير بكثير من المجاميع الضخمة التي تنال احترام أعين العالم. وسيتضح هذا ونحن نتقدم في دراستنا.

إنصرف الخائفون. إنه لأمر مذل أن نحوّ من ثلثي الذين التفوا حول جدعون، كانوا من الجبن بحيث لم يتسنّ لهم مواصلة القتال. وأليس في يومنا كثير من يرون طريق الشهادة والكفاح، بيد أنه ليس لهم الشجاعة للسير فيها. نحن نخشى الاضطهاد، ونفر من السخرية، ونهيب مما يقوله العالم. وتكون النتيجة أننا لا نكون مهيين لاستخدام الله إيانا، فيوقفنا وحدنا.

وهل ندرك هذا؟ أو نحن على استعداد للاعتراف به قدام الله في حياء وخجل؟ أو ليس ذلك في حد ذاته كافياً لتشجيعنا في الاعتماد عليه ليهبنا الشجاعة؟ أنت لم تنس كيف كان جدعون

خائفاً أن يقوم بعمله الأول نهاراً. ولماذا تأبى أن تسلك طريق الإيمان ولو في خوف وارتجاف؟ ذلك خير من المباهاة. فليت إلها يمنحنا الشجاعة للطاعة، وليتنا نتبع سبيله ولو في ارتجاف. لكن امتحاناً أقسى ينتظرنا. يقول الله «لم يزل الشعب كثيراً». فلينزّلوا إلى الماء وهناك يجوزون امتحاناً لا يفهمونه: كيف يشرب كل منهم. أما الذي يقبض على الماء بيديه وبلغ كما يلغ الكلب، فهذا يُختار، والذين من هذا الطراز كانوا ثلاث مئة: وباقي العشرة الآلاف جثوا على ركبهم ليشربوا.

الامتحان بسيط على ما يبدو. شيء لا بد منه أن الظامئ يكسر الظماً؛ غير أن هذه العملية مع حتميتها لا يجب أن تحتل المكان الأول. أعواز ومطالب هذه الحياة واضحة، ولكن هل ننظر إليها على أن لها المكانة الرئيسية؟ هل نحن نحصل أمور هذه الحياة ونحن سائرون في طريقنا، أم أنها تستهلك كل طاقتنا ومشغوليتنا؟ كم منا، يا أخي، ينجحون في هذا الاختبار الإلهي. وكم هو خطير أن يذكر أننا نُمتحن بدون علمنا. لو علمنا موعد الامتحان لحرصنا أن نبدو في مسلك حسن؛ غير أن الله يرقبنا في الوقت الذي قلما نفكر فيه أنه يرقبنا، ويقبل أو يرفض من شاء منا، لمراكز الخطورة والشرف.

و لعلني في غير حاجة لأن أقول إن المسألة هنا لا تتعلق بالخلاص؛ بل هي مسألة الخدمة والشهادة. فهل يستخدمنا الله آلات لإنقاذ شعبه المحبوب من عبودية العالم؟ يقيئاً لا يستخدمنا إذا كنا مرتبطين بالعالم. وما أروع فكره ألا نكون مهيين للخدمة، فتكون النتيجة أن الله يوقفنا وحدنا، يستغني عنا. ألا ليت هذا يكون فاحصاً لقلوبنا فنرى هل فينا روح استعباد للعالم، أو خيبة في أن نجعل صوالح الله أولاً وفوق كل شيء. إن حادثاً أو مظهراً تافهاً قد يكشف عن حقيقة حالنا، كما في مظهر الشرب هنا وهو تافه. وشيء واحد أيضاً يساعدنا على النجاح في امتحان الله، وهو القلب الموضوع بكلياته على مشيئته تعالى «أفعل شيئاً واحداً».

وماذا عنا يا أخي؟ هل تبطلنا كمن لا يليقون للخدمة؟ أم نحن أواني مقدسة نافعة للسيد؟ الثلاث المئة إذاً هم المكرمون، هم - على قلة - يحطمون مديان. قلة ومحتقرون حتى من كثير من إخوتهم لكنهم المختارون. أو لا تهوى أن يكون لك مكان معهم؟ ماذا عساك تعطي ثمناً لمكان مع الثلاث مئة؟ لا بالمال تقتنيه، ولا بالعلم، ولا بالتأثير والنفوذ. تكاليفه أغلى من الذهب؛ تكاليفه الذات. أن نرفض، وألاً نشق بذواتنا؛ تلك هي السبيل الوحيد للتأهيل لخدمة المسيح، فهل يعيننا أن نكون نفعين له؟ وهل ذلك - في تقديرنا - أسمى من كل شيء

في العالم، أسمى من الذات؟ إذًا فلنتعلم من طريق الله مع جدعون ورفاقه كيف يهيء الله أوانيه للخدمة. وهو الدرس ذاته الذي قرأنا من قبل: أن لا قوة أو صلاح في ذاتنا، بل المسيح الكل، المسيح وحده.

بقي شيء آخر، نتأمله هنا متجاوزين ما عداه. ومرة أخرى يزيد الله في تطمين جدعون وبث اليقين في نفسه بالنصرة قبل أن يمضي إلى المعركة. وأنت تلاحظ هنا أن جدعون لم يطلب هذه العلامة، وإنما يستفيد منها حين عرضها الله. هي أكثر من علامة، بدأت بلغة التشبيه وقام العدو بتفسيرها مع اليقين بالنصرة التامة.

واحد من جند مديان رأى حلمًا، وأخذ يحكي خبره لأحد رفاقه وجدعون يسمع: رغيف خبز شعير يتدحرج في محلة المديانيين ويضرب الخيمة. فيقوم رفيقه بمهمة تفسير الحلم بالفاظ واضحة «ليس ذلك إلا سيف جدعون بن يواش رجل إسرائيل. قد دفع الله إلى يده المديانيين وكل الجيش». وهكذا من شفتي العدو يحصل جدعون على توكيد الله بالنجاح في الحركة كلها.

إن رغيف الشعير أفقر أنواع الأغذية - غذاء المتسولين. فهو بذلك يشير إلى العدم، إلى الوهن: نفس الدروس التي طالما قرأناها، وطالما نبّرنا عليها. وكون هذا الرغيف، هو الذي يُحطّم مديان - لا السيف - حقيقة لها دلالتها. فحينما يتغذى شعب الله بالمسيح، فإنهم بهذا الغذاء يحصلون على سيف يفتكون به بالعدو. والله يستطيع أن يستخدم معلوماتنا ومداركنا الضعيفة عن المسيح كسلاح قاطع بتار، وأنت تذكر الغلام الذي لم يكن معه سوى خمسة أرغفة شعير، بيد أنها كانت في يد الرب كافية لإشباع الجماهير، وتلك أبدأ هي الحال. أفلا نتعلم الدرس البسيط؟ إن الضعف، العجز، العدم؛ لو أودعناها بين يدي المسيح، لضمنت لنا النصر ضد كل قوة من قوى العالم. فليت الرب يمنحنا أن نعرف عمليًا هذه الحقيقة أكثر فأكثر، من أجل خاطر المسيح ربنا، ومن أجل معونة كنيسته.

الأصاحاف السابغ (١٥٤٣) إلّ التاسع

جءعون وأبمالك: النصره وما تلاها

قء وصلنا الآن إلى حىء نءء هذه النصره العءببه الءى حصّلها جءعون بعء إءءاءه. والءى كنا نطالعه من قبل هو عمل الله البطيء التءربجى فى نفس عبءه، ثم فى الشعب الءى أحاطوا به لىكونوا مهبّىن أن يعملوا لله عملاً فعلىً. وهى قاعءة؛ فإنه لكى يتمجء الله بواسطتنا، ىنبغى أن نكون أوانى مقءسة نافعه للسىء. فالآنىه ىجب أن تُعءء إذا شاء الرب أن ىستءءمها لإظهار قوته. وأنء تلاحظ أن كل خطوه فى التارىء بررت وأكءت هذه القاعءه وحتمىءها. فلن ءءوفر الخءمة الصءبحة، ولن نستقن من الانتصار، إن كان الله لا ىهىء الآنىه لاستءءامها.

رأبنا عملبه ءءصفبه للشعب عءء الماء حءى لم ىبق منهم صالح سوى حفنة. ورأبنا كىف أءء الله ىناصر إبمان جءعون حىء عرض علبه العلامة الآخبره الءى كانت العربون المءقق للنصره. أعنى بها ءلك الرساله من الله مباشره بشفءى العءو: الرساله الءى ءببن أن الءرس عىنه الءى كان ىءلقاه جءعون فى أغوار نفسه: ءرس الضعف، هو الءى بعء الرعب فى قلوب أعداءه.

والواقع أنه لا شىء ىبعء الرءفه فى قلب العءو، أقوى من الإءساس بالضعف بىن شعب الله. وعءءنا فقره من ءرنىمة قءىمة ءقول "ىفزع الشىطان إذ ىرى أضعف قءىس جاثباً على ركبءه". فوهو جاثٍ على الركبءىن ىكشف عن إءساس بالضعف، وإنما بالضعف وحءه ننال القوة من الله. وهكءا الأمر مع رغب الشعب هذا، فإنه شاهد على ءءءل الله للعمل، وعلى

عجز الإنسان المطلق. فأمامك هنا ما يُحدثُك عن أقسى مظاهر الفاقة، وأبرز علامات الضعف: الشعير. وإنه لرغيف من شعير يتدحرج إلى الخيمة هو الذي سيقضي على كل قوة العدو. فلا عجب أن نرى جدعون يتشدد وهو يسمع معلومات عن ضعف شعب الله من ذات فم الأعداء؛ معرفة ضعفهم التي جعلتهم يلقون بأنفسهم بين يدي إلههم الحي، هي عربون انتصاره تعالى. أما إذا كنت في نفسي قوياً، فإن ذاتي هي التي سوف تلاقي الشيطان. وأما إذا كنت ضعيفاً وألقيت على الله نفسي، فشئ آخر. فإن العدو يعرف مَنْ سيلقي: رب الجنود؛ وهذا أمر يختلف عن لقاء أناس واثقين في ذواتهم، قوتهم هي خزيمهم. ولا عجب أن يمضي جدعون ليسجد وقد وضحت له هذه الحقيقة.

والآن نأتي إلى النصر وقد أصبح نصرًا سهلاً بعد خطوات الإعداد هذه. ومن اليسير أن نعمل العمل بعد التغلب على قلوبنا الخائفة الرعدة. وليس من الشاق أن نواجه العالم بعد أن نكون قد واجهنا أنفسنا. ليس من الشاق عليّ أن أتصدى جهازاً للأعداء الروحيين بعدما أكون قد فرغت من الصراع مع نفسي، وأمام الله حكمت على ذاتي. فأنا حينئذ مهيناً للحكم على سواي. ويتأكد الدرس مرة أخرى فيما هو مألوف لدينا؛ ولعلنا لهذا السبب نغفله وننساه. أقصد: الطابع الحقيقي للمعركة. لقد كانوا منقسمين، أولئك الثلاث المئين، إلى ثلاث فرق كما لو كان ذلك العدد من الكثرة بحيث لا يوثق بهم مجتمعين. كانوا كلهم مسلّحين على طراز واحد وغريب. لم يكن في أيديهم سيف، أو قوس أو رمح؛ لا شيء سوى جِرار، من فُخار، داخلها نور مستور؛ وفي اليد الأخرى بوق، تنطلق منه نغمة الانتصار.

كانت في الجرار أنوار. «الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح». إن الله قد أثار الآنية الخزفية - وهذا هو النور. الله نور، ونعمة الله التي أعلنت لنا هي النور الذي أشرق في قلوبنا. بيد أنه أشرق في قلوبنا لكي نجعله يشرق وبضيء. غير أن الجرة هنا بتمامها؛ والنور في باطنها؛ ولهذا فإن الجرة تخفي النور. وليس أمامنا إلا أن تُكسر الجرة ومن ثم لا يتعطل إشراق النور وإنطلاقه. فالطريقة الوحيدة لإطلاق النور هي تحطيم الجرة. وأنت تعلم أنه كلما كانت الجرة ذات قيمة، قلّ استعدادك لكسرها. وبقدر ما توقن أن الجرة التي في يدك خزفية، الجرة التي تخفي الكنز فيها، بهذا القدر يكون استعدادك لكسرها لكي يظهر الكنز.

وهذا هو، يا أخي، الدرس الذي نعرفه جيداً؛ فهل أقول: هو الذي نمارسه قليلاً؟ درس تحطيم

خير ما فلك. أن تأخذ آيتك، أن تحطم الذات بكل أشكالها، بكل ما بها من فضائل؛ الذات وكل ما يحيطها به من إعداد واعتناء، الذات التي ندللها كثيرًا. الذات هذه هي التي تقبّلت الآن نعمة النور الإلهي. الله أشرق في القلب، فماذا عساك تصنع؟ هي مسألة بين النور الذي أشرق، وبين الإناء الذي يحتوي النور والذي قد يحول بينه وبين الإشراق. الإناء قد استقبل النور، تقبله، حصل عليه؛ وهذا صنيع النعمة؛ والنعمة عينها هي التي تعلن ذاتها من خلال إناء محطم.

إذ ليس نور، فلست أعجب لخاطي يغتر كثيرًا بإنائه الخزفي. فالإنسان لا يريد أن يتلف ما له. هو في مشهد يباهي بفضائله، وهي كل ما يمكن أن يباهي بها، فلماذا لا يباهي؟ ولكن أمامنا هنا شيء آخر أشرق في القلب. إن فضل معرفة مجد الله قد أشرق، وفي قوة الروح القدس. وهذا من شأنه أن يثير سؤالاً: ما الذي علينا أن نظهره؟ هل هو الإناء أو مجد الله؟ وهكذا نواجه المشكلة: هل نتلف آيتنا، أم نتلف النور الذي يشرق بنا؟ فماذا عسانا نصنع؟ إن مجد الله يملأ نفسك بالإحساس بمحبته ونعمته وبكل ما منحه في المسيح. فماذا تظن في نفسك؟ ماذا تظن في نفسك إذا كانت النعمة قد امتلكتك بهذه الطريقة، تمحو ذاتك وتبعدها عن الطريق. وخير وسيلة، أشد الوسائل فعالية، ليس أن تخرج نورك إلى خارج، وتحفظ، في عناية، بالآنية لكي تستخدمها مرة أخرى، بل أن تحطم الجرة: وهذه هي الغاية منها. وهذا ما يفعله الإيمان. إنه يكسر الآنية الخزفية لكي يرى أن فضل القوة لله لا منا. وهذا كل ما في الأمر.

يا لهذه الذات! ما السبب في أن شعب الله ليس لديهم قوة، سلطان، على العالم؟ العلة هي هذه الذات التاعسة. مرة كنت أقرأ الأصحاح السابع من رسالة رومية؛ وقد صُدمت لورود ضمير المتكلم «أنا» (ومشتقاته) أربعين مرة؛ وتلك بالتحقيق آنية تكفي للحيلولة دون إشراق النور. فأنت لا تجد في هذا الأصحاح السابع من رومية أي نور يضيء. «أنا» تحجب النور. إذاً فلا شيء نفعله كما يقول الرسول إلا أن نحسب أنفسنا أمواتًا. هذا هو الهدف العملي، تحطيم الإناء. وعندئذ يبدو أن فضل القوة لله.

يا لهذه من تعزية! مَنْ ذا يفكر في أن نلاقى بقوتنا كل ما علينا أن نواجهه؟ لذلك لا يدهشني أن أرى شعب الرب العزيز يمزقه الهم. يضغطه الخوف، وهم يفكرون في لقاء العديد من الأشياء بقوتهم هم. أما إن وثقت بالله، إذا انفردت وحدك به، إن أنت تعلمت منه أن كل ما يطلبه منك هو أن تكون جرة مكسورة بلا أدنى قوة في ذاتك، فتلك تعزية، وأنت حينئذ على استعداد أن تضرب بالبوق حين تنكسر الجرة.

والرسول بولس يستخدم - في ٢ كورنثوس ٤ - تاريخ جدعون هذا. وقد اقتبست منه الجزء الذي يشير إلى النور؛ أما باقي الأصحاب فهو تمثيل لطريقة تحطيم الجرة، بالظروف الخارجية. أما أولاً فهناك حساب الإيمان الذي به نرفض الذات؛ ثم الأحداث الخارجية جميعها - الضيق، الاضطهاد، الحيرة، بل حتى الموت - ليست إلا التحطيم العملي لما سبق وألغاه الإيمان، أي قوة المخلوق. والنتيجة، أنه ينقاد في النُصرة، في المسيح. وما الأحجار، والسجون، وسنو الأسر الطويلة، إلا لتعمل على إنارة فضل قوة الله، ذلك النور الذي ليس في مقدور النكبات أن تطفئه.

وأعتقد أنه لضرب البوق صلة وثيقة بكسر الجرار. فقد يحاول الناس أن يضربوا بوق الشهادة الذي هو نشيد النصر، نشيد الله العسكري؛ لكن الضرورة الأولى، الشيء الذي لا يد منه لمصاحبة بوق الشهادة، هي الجرة المكسورة. والشهادة وكسر الجرة يسيران معاً. لأن الله لا يريد شهادة البوق والظلام، هو يريد لها مصحوبة بالنور. لا يريد مجرد الأقوال، مهما يكن تأثير القول، مهما يكن صدقه ووضوحه، مهما يكن من رنات بوق النُصرة في الأقوال. إنه تعالى يريد أكثر من مجرد الأقوال. يريد جرة مكسورة يطلع منها النور مندفعاً: البوق والنور، الشهادة والحياة، كما في رسالة فيلبي. «في وسط جيل معوج وملتو تضيئون بينهم كأنوار في العالم، متمسكين بكلمة الحياة» الشق الأول من العدد نور مشرق «تضيئون... كأنوار» والشق الآخر بوق الشهادة الذي يصاحب النور «متمسكين بكلمة الحياة». والعالم لا يستطيع أن يقاوم هذا؛ لا يستطيع أن يقاوم، أو يتصدى لأضعف جماعة من شعب الله تتمسك بكلمة الحياة وتنير كأنوار في العالم.

فأنت ترى إذاً أن ما كان على جدعون وأصحابه أن يفعلوه هو أن يقفوا شجعاناً ومعهم النور، ومعهم صوت البوق. ثم نادوا صائحين «سيف للرب ولجدعون» حينئذ انقلب المديانيون، كلٌّ ضد زميله، والجيش ذاته، ذلك الجيش العرمم فرّ من الميدان كقطيع من الغنم خائف، هارين من وجه قوة الله التي لا تقاوم. ونحن أيضاً نستطيع أن نجعل جيوش الغرباء يفرون مهرولين. نحن أيضاً نستطيع أن نتقوى من ضعف ونصير أشداء في الحرب إن تعلمنا هذا الدرس في أعماق نفوسنا. وليته - يكون لنا - حقيقة عملية.

* * *

ثم نأتي إلى شيء مألوف كثيراً في هذا السفر، أعني المنازعات، الخصومات، التي تقع في أعقاب النُصرة، وإلى حد ما طالعة منه. إن الشعب يتجمعون للنُصرة حينما يتقدم الإيمان الشخصي ويفتح الباب، وهذا أمر يعزي. وقد عرض لنا موقف كهذا في أمر إهود: فقد ضرب بالبوق فتبعه

إسرائيل. بيد أنه كن عليه بادئ ذي بدء أن ينفرد بقتل ملك موآب. هكذا الحال هنا: فبعد الثُصرة، وانصراف العدو هاربًا، تجمعت معًا بقية إسرائيل وأسهموا في اقتفاء أثر الهارين؛ والواقع أن جدعون كان قد أرسل رسلاً لكي يبين لقومه أنه يأبى الانفراد بالثُصرة. فأرسل رسلاً إلى أفرايم يستدعيهم للوقوف على ضفتي الأردن حتى يتسنى لهم أن يبيدوا العدو عن بكرة أبيه.

وهنا تدخل الغيرة. هي لم تكن من جانب جدعون، بل إن أفرايم هو الذي أظهر المحاسدة لرجل الإيمان. وأنت تذكر حادثاً في سفر يشوع، فقد أظهر أفرايم نفسه غيرة كسبط. لقد كان يشوع من سبط أفرايم. ومع أن رابطته السبطية لم تكن بارزة بوصفه قائد وزعيم شعب إسرائيل، لكن كبرياء أفرايم كانت تسمن على حساب عظمتهم الشخصية. فلما حصلوا على نصيبهم اعترضوا على التقسيم. وبرروا اعتراضهم بأنهم شعب كبير، والحصّة التي لهم لم تكن لتكفيهم؛ وهذا هو الدرس الذي يلقيه أفرايم على مدى التاريخ: إنه شعب كبير.. بيد أن جدعون لم يكن رجلاً عظيماً؛ والرجل الذي لا يتحقق ولا يحس أنه عظيم، لا يدخل في مخاصمة أو منازعة مع شعب عظيم كبير.

كان جواب يشوع لأفرايم في المناسبة التي أومأنا إليها ذا دلالة كبرى. هو يقول «إن كنت شعباً عظيماً فاصعد إلى الوعر واقطع لنفسك هناك». أنت شعب عظيم.. اصعد واطرد العدو بمركباته من حديد. أظهر عظمتك لا في المباهاة بل في العمل. كان هذا جوابه يومئذ؛ بيد أن سبط أفرايم كان من ذلك الوقت غيوراً بالنسبة لمكانته في أمة إسرائيل. كان أبداً يحسد من يعملون لله أي شيء. وقد رأيناهم مراراً يتصدرون في كل أيام القضاة وأيام داود، حتى انتهى حسدهم إلى تقسيم المملكة.

لا شك أن السبط استلم، كتقليد يُنقل من جيل إلى جيل، الوعد بأن الأصغر (أي أفرايم) له الأسبقية على الأكبر أي منسى. ولذلك كان من المראה أن يأخذ السبط الأضعف مركز الصدارة. بيد أن طرق الله على النقيض من طرقنا، ولا بد أن تخط كبرياء الإنسان وعظمتهم. والواقع إن سيادة أفرايم مثل على هذا، لأنه كان الأصغر؛ فلما أخذ مركز الصدارة على الأكبر بعد تنحية رأوين البكر. كان ذلك تأكيداً لسيادة الله التي ترفع المتضع وتضع المرتفع.

بيد أنها الآن قد صارت حقيقة مؤكدة، وأصبح أفرايم يتوكأ على رياسته كحق من الحقوق. أما منسى - وله من اسمه نصيب - فإنه صورة للشخص الذي لا يعيش على الماضي بل

«ينسى» بمعنى أنه يمتد إلى قدام في نشاط الإيمان الحاضر.

ولو تعمقنا لتعلمنا درسًا روحيًا من حسد أفرام. هو يرمز إلى الانتاج والثمر في أولاد الله؛ الانتاج في الأعمال. والأعمال لا تقود، إنها تتبع. لأن يهوذا - الحمد - هو الذي تتعقد له راية القيادة: الحمد مؤسسًا على حق الله وكلمته، الحمد نابغًا منهما.

ولكن ما أيسر أن تبدو الأعمال وكأنها أعظم أهمية. وهل ننسى منازعة مرثا مع مريم؟ ومن أسف أنها منازعة مألوفة في كنيسة اليوم. خاصة حين يضعف الإيمان، تحاول الأعمال أن تحتل المكان الأول وهكذا ترتفع من منزلة الخدمة إلى التسلط، الأمر الذي لن تستطيع أن تشغله.

وحيث تتقدم الذات فهناك الحسد والخصومة والبطالة أو التبطل. إن الدرس الذي نتلقاه من جدعون هو إلغاء الذات، الاستغناء عنها؛ أما درس أفرام فهو تقديمها؛ ومن هنا يلومون جدعون، ويسألونه: لماذا لم يُدعوا ليسهموا في القتال ويحطموا العدو من الأول. كان يمكن لجدعون أن يجاوبهم بما في معنى هذا الجواب: "العدو مشترك، وقد اكتسح الأرض كلها. فلماذا لم تحطموه؟ لماذا لم تطردوه؟ فأقمني الله لأحطمه، وبفضل قوته أكملت العمل. ولكن لماذا لم تعملوه أنتم بدلاً من لوم الشخص الذي أتمه؟".

وهل يعرف أخي شيئًا من روح الخصام والحسد؟ تلك الروح التي لا تحتمل أن ترى الله يستخدم الآخرين. إن بولس لم تكن فيه ذرة من هذه الروح. فحيثما كان يُنادى بالإنجيل كان بولس يفرح، بغض النظر عن من يُنادى. وحين كان يُكرز بالمسيح سواء عن خصام أو عدم إخلاص، فإنه كان يشكر الله لأن المسيح هو موضوع الكرازة، ولأن الله لا بد أن يتمجد بطريقة أو أخرى. ولكن هنا نرى أفرام يأكلهم الحسد لأن الله استخدم آله أكثر منهم روحانية. إن الحسد في الإنسان دليل على أن الله لا يستطيع أن يستخدمه. فإذا كنت تحسد غيرك، إذا كان الغيظ يقتلك بسبب قوة أخيك الروحية، فذلك برهان على أن الله لا يقدر أن يستخدمك. ذلك بأنك لا يمكن أن تغار من آخر إذا كان الله يستخدمك؛ وأول ما نتعلمه من الغيرة أن نمضي فورًا ونضع وجوهنا في التراب ونعترف لله بأننا آلات غير أمينة. إن الشخص الذي يحسد إخوته عليه بالحري أن ينتقد نفسه. هذا ما كان يجب أن يتعلمه الأفراميون، ولكنهم لم يتعلموه.

بيد أننا نرى جدعون، في النعمة، يتكلم معهم بأسلوب نبيين منه أنه تعلم درسه من الله. وجميل أن أطبق الدرس الذي أتعلمه من الله، على علاقاتي بإخوتي. وما كان أجملها حركة

أن يتحول إليهم جدعون ليقول «ماذا فعلت الآن نظيركم؟ أليس خصاصة أفرايم خيرًا من قطاف أبيعزر؟ ليدكم دفع الله أميري المديانيين غرابًا وذئبًا. وماذا قدرت أن أعمل نظيركم؟ حينئذ ارتخت روحهم عنه عندما تكلم بهذا الكلام». ربما بدا هذا الأسلوب مؤلمًا، أن يمدحهم ويهدئ من ثورتهم؛ بيد أنه أسلوب يكشف عن روح في جدعون، روح عدم الحسد. إنه لم يقاتل العدو، وكل ما في الأمر أنه في ضعفه أعلن قوة الله: هو شخصيًا لم يأت عملاً كبيرًا. ألغى ذاته. احتل الأفرايميون المخاوض وأسروا الأميرين. لا رب أن عمل جدعون كان في نظر الله أسمى قدرًا من عمل أفرايم؛ لكن في نظره كانت خدمته دون خدمة الآخرين. وخدمتنا - في نظرنا - دون خدمة إخواننا: درس جميل نتلقاه من هذا الرجل العزيز، الذي أقامه الله من أجل شعبه، إنسانًا مفرغ الذات.

ولا تحسبن ذلك مجرد مداينة من جدعون. فتلک كانت - بإخلاص - عقيدته، وعلى ضوئها قيّم وقدّر خدمة أفرايم. ولاحظ أنه لم يباه بأنه السباق في العمل، رجل المبادأة. واحسب أن رجلاً كان إلى الله بهذا القرب، ينسى نفسه ولا يرى سوى الله. وما أجمل أن تنكشف الذات.

وليس من الحكمة أو الصواب التهوين من قيمة العمل الذي قام به أفرايم، وقد سقط في أيديهم - عند مخاوض الأردن - أميراً مديان، غراب وذئب. وهما اسمان يوحيان بالطابع الهدام، طابع التخريب، الذي يميز العالم والذي له رئيس أو أمير لا يرحم. غير أن ثمار الروح تغلب أجناد العالم ومن يتزعمونهم من ریاسات وسلطين. «والأعمال» حينما تكون في مكانها الصحيح - عند الأردن؛ نهر الموت - تقوم بمهمتها في فعالية ملحوظة.

بيد أن منسى، والمنسيين، لا يبطئ بل إنه ليتقدم ليستكمل النصرة. يعبر الأردن متعقبًا الجيش الهارب «معين (ولكن) مطاردين». وما الذي يربط الكلمتين معًا؟ وأظن أنه يمكن أن نقرأ هذه العبارة هكذا «مطاردين (إياهم) لأنهم معييون». أعني أننا لا نزال أمام القول «تقووا من ضعف». وأعني، أيضًا، أن وهن الإنسان وعجزه هما اللذان يقودانه للضعف والمطاردة، لأن الله العامل فيه. ونظير واحد من أبطال داود في يومه لصقت يده بالسيف، غصّ جدعون بصره عن الكل ما خلا الله ولم يسترح حتى قضى على كل قوة للعدو.

في ضعف جسدي يسأل طعامًا من أهل سكوت وأهل فنوئيل. وهما طائفتان من إسرائيل من حقهم أن يكون، لهم نصيبهم في النصرة؛ ولكن بالفضيحة ما قدمه أهل سكوت وأهل فنوئيل من

جواب! جواب يتعارض مع دلالة اسميهما. مديان، كما ذكرنا. هو نعله وقوته؛ وسكوت معناها «خيام»: كلمة اغتراب. وكان حربًا بأناس يسكنون الخيام أن يكون راغبين في المعاونة على تحطيم قوة العالم. وفنوتيل معناه «وجه الله». وكان حربًا بأناس ينظرون وجه الله أن يكونوا على استعداد للمعاونة في أسر ملكي المديانيين، زيح وصلمناع. ولكن مسلك الفريقين يكذب دلالة الاسمين. كلاهما أجاب «هل أيدي زيح وصلمناع بيدك الآن حتى نعطي جندك خبرًا؟».

كانوا يسخرون من جدعون، ومن هنا لا تسمع من فمه كلمات لطيفة يتوجه بها إليهم، كما فعل مع أفرايم. فهذا موقف مختلف. لقد دخل أفرايم الميدان ضد العدو؛ أما أهل سكوت فكانوا متخلفين، وفعالاً كانوا في صف مديان. إذ لا يمكن أن تكون على الحياد وخطوط الانفصال بين المسيح والعالم واضحة مرسومة. ولن تكون على الحياد من غير أن تكون في صف العدو. ويقول سيدنا «من ليس معي فهو عليّ» (لوقا ١١: ٢٣). ومن هنا قلنا إن أولئك القوم كانوا فعالاً أعداء لله تمامًا كمديان؛ بل وأكثر منه عداء لأنهم شعب الله المعترف.

ومضي جدعون بدون معونتهم ويعطيه الله كل جنود مديان، كما يعطي بيده كذلك زيح وصلمناع ثم يعود فينفذ الحكم في أولئك القوم.

وإلى جدعون يرجع الفضل والشرف ليس فقط في إبادة الأميرين بل وكذلك ملكي مديان. وأعتقد أنهما لكونهما اثنين ففي ذلك معنى النفاق (وجهين).

إن زيح - وترجمته "ذبح - ذبيحة" - يوحى ليس طبعًا بالطريق إلى الله أي الذبيحة، بل الذبح والتقتيل الذي يسر العالم أن يوقعه على شعب الله بلا رحمة؛ كما يستفاد من صلمناع الذي معناه "رفض الظل" أو "رفض الملجأ". ولذلك وقع عليهما التقتيل دون رحمة في الحماية؛ «لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة» (يع ٢: ١٣). وقد صارت الثُصرة على مديان عينة على تحطيم أعداء إسرائيل نهائيًا سواء في صلوات البقية المتألمة (مز ٨٣) أو تنفيذ هذا التحطيم كما تنبأ إشعياء (ص ٩: ٤).

وبعد هذا تحول جدعون إلى شعب الله الزائف: القوم الذين ادعوا بأنهم لله لكنهم وقفوا محايدين في يوم كذاك. وأخذ أشواك البرية وعلم بها أهل سكوت؛ والشوك - أنت تعلم - يحدثنا عن اللعنة التي حلت على هذا العالم بسبب خطية الإنسان.

وكم من شعب الله من أصابتهم وجرحتهم أشواك هذه الحياة لأنهم وقفوا موقف الحياد في

المشكلة القائمة بين المسيح والعالم. فهل أنت يا أخي محايد بين الله والعالم؟ ستأخذ أشواكًا على ظهرك. إنك سوف تتعلم بالأشواك إن لم تتعلم بكلمة الله. وكم من حياة ملفوحة؛ وكم من أشخاص كان ينبغي أن يكونوا غرباء، نزلاء، ساكنين في خيام، اضطروا أن يتعلموا بأشواك الحياة التي جلبوها على أنفسهم. وبإلها من وسيلة للتعليم مريرة؛ فبدلاً من أن يخطط حنطة ويكون إناء نافعا للسيد، يتعلم بالاختبار المرير والانفصال عن الله. وهكذا حصد أولئك الرجال ثمرة غبائهم في موقف الحياد.

وهكذا قضي على العدو بتمامه، واستطاع جدعون «القاطع» أن يقطع ويقتلع كل ما كان يرتفع ضد معرفة المسيح. إنه في الحق منصور جبار. وقد بقى من حياته جزء نتأمل فيه، وهو من أسف جزء كتيب مؤسف.

«وقال رجال إسرائيل تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك، لأنك قد خلصتنا من يد مديان. فقال لهم جدعون لا تسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم. الرب يتسلط عليكم». كان هناك اتجاه دائم في إسرائيل نحو حاكم منظور، واحد كسائر الشعوب، يخرج أمامهم ويحارب حروبهم ويملك عليهم في أوقات السلم. وقد نالوا مرادهم حين أقیم شاول متسلطاً عليهم. وها أنت ذا ترى كيف أفرخت هذه الأمنية في ما طلبوه من جدعون، إذ طلبوا إليه أن يتسلط عليهم. لكنه كان قد تعلم من الله القدر الكافي، كان قد عرف عن سلطان الله القدر الكافي بحيث لا يجسر أن يغتصب السلطة لنفسه. وجميل أن نرى أن الرجل الذي كان على المدى الطويل يهون من قدر نفسه يستمر في برنامجه المتواضع ويأبى أن يأخذ العرش الذي خلا بموت زيح وصلمناع. فإن من أراد يا أخي أن يكون ملكاً، فمعنى هذا أنه سيأخذ مكان ملك العالم. ومن أراد أن يحكم شعب الله فإنه لا يأخذ مكان المسيح، ولا يمثل المسيح؛ بل يأخذ مكان الشيطان ويمثل الشيطان. وأعتقد أن جدعون أدرك إلى حد ما أن العرش الوحيد الذي في مقدوره أن يشغله هو العرش الذي خلا بموت زيح وصلمناع ملكي المديانيين، وهو لم يُرد أن يكون ملكاً مديانياً على شعب الله، متسلطاً عالمياً. إنما الله ملكهم كما يقول.

لو أن إسرائيل حفظ في باله أبداً أن في الله الكفاية، وأنه وحده يكون ملكهم، إذاً لأعفوا أنفسهم من دروس مريرة كثيرة. بيد أنهم لم يحفظوه، ومن هنا تمتموا أن يكون جدعون وابنه وابن ابنه متسلطين أبداً عليهم. لقد كان لجدعون إيمان ينفر من هذا العرض: يابأه لنفسه ولابنه. غير أن الطلبة أفرخت بعد هذا الوقت بقليل، والشهوة التي تمناها وجدوها فيما بعد.

غير أننا نأتي هنا إلى شيء لم يستطع جدعون أن يثبت فيه. إنني افترض أن إحدى التجارب الكبيرة التي يتعرض لها الناس هي شهوة السلطة. ولكن هناك أعظم منها، شهوة الحصول على امتياز القرب الظاهري لله. شيء يختلف عما يستمتع به أي إنسان آخر. فهذا جدعون يطلب الذهب الذي جمعه الشعب كأسلاب من الجيش المقهور، ومنه يصنع: لا عاجلاً من ذهب - لا عاجلاً بالضبط - كالذي صنعه هارون من الذهب المجلوب من مصر، بل أفوداً كهنوتياً.

الأفود شهادة على أن صاحبه يشغل مركز القرب الفريد، القرب القاصر عليه، القرب من الله. لقد كان له في ما مضى أن يحس بهذا القرب المرموق من الله: ألم يكن الله يتعامل معه بصورة وثيقة جداً؟ أليس في تلك المعاملة نوع من المكانة الكهنوتية؟ لقد كان له مذبحة، وقد طلب منه الله أن يقدم على ذلك المذبح ذبيحة. وأكثر من هذا أنه في مستهل حياته قدّم ذبيحة خاصة حازت الرضى عند الله. أفليست هذه دلائل على أن الله كان يريد كاهناً للشعب؟ ومع ذلك فقد كان بوسعه أن يفكر هكذا: أليست خطية الشعب الكبيرة ارتداداً عن الله؟ إنهم لم يكونوا بحاجة إلى حاكم مدني قدر حاجتهم إلى متسلط ديني، إنسان يصونهم في علاقة مع الله. ومن هنا استطاع جدعون أن يخدع نفسه ويظن أنه إنما يفعل مشيئة الله، ويربط الشعب بالله وأوثق رباط، بكاهن منظور. إنه في هذا قد نسي أن لله كهنوتاً منظوراً: هذا من ناحية؛ ومن الناحية الأخرى كان الإغراء الخبيث، إغراء الوثنية، في الأفود الذهبي أقوى من رغبة الشعب في طلب الكهنوت.

ولنشرح الموضوع عملياً: أنت مرة تذلت قدام الله؛ أذلك تعالى، وجعلك تتعلم خواء نفسك وتفاهتها؛ كسر الآنية الخزفية قطعاً؛ وكان لك اختبار عجيب مدهش - اختبار القرب من الله، يرمقه الآخرون في إعجاب. فيقولون: لقد كانت له أوقات طيبة مع الله، كان منفرداً بالله. فلا بد أنه إنسان عجيب. وهنا الشرك يا أخي - أن تظن أنك تشغل مكان القرب الكهنوتي الخاص من الله، وأنت تطلب الآن مركز الوساطة بين أولئك الذين قدتهم في النصرة وبين الله الذي هو مليكهم. ترفض الملكية، وتطلب الكهنوت.

وإنني مقتنع بأن قيام الروح الإكليريكية، روح التمييز بين الإكليروس والعلمانيين من شعب الله، لم يكن مسألة سلطان روحي بقدر ما هو مسألة كهنوت روحي. وفي إكليروس الزمن الحاضر الذي نراه من حولنا نجد أن وظيفة الكاهن - ولو رُفض الاسم - هي الأمانة والإشتهاء وليس السلطة الروحية أو السيادة. ولأضرب مثلاً بسيطاً. فهنا مائدة الرب،

وعليها رمز جسده - له المجد - ورمز دمه الكريم. هل وجدت يا أخي مسيحياً بسيطاً غير متعلم إلا ويشمئز اشمئزاً واضحاً من فكرة أن علمانياً يكسر الخبز ويناوله لإخوته شعب الله؟ هذه - عند أولئك القوم - خدمة رجل الإكليروس، ولا يجب أن يدنو منها إنسان غير مُعيّن. أنت في هذه الفكرة أمام عنصر الكهنوت تماماً كما تراه في روما حيث يقوم كاهنهم بتكريس (البرشامة) وتوزيعها على الشعب.

تلك علامة قيام الكهنوت ونضوجه، ذلك ما يميزه: فالشعب إنما يريد الاعتراف بالزعامة أو القيادة الروحية، بالقرب الخاص من الله؛ يغنيهم عن ضرورة قربهم هم. وهنا شرك عظيم، غير من طابع الكنيسة، وسجودها وخدمتها. وزنى إسرائيل وراء الأفود؛ وهكذا ترى أنه حينما يعترف الشعب بطبقة خاصة من الناس، ربما رجال ذوي إيمان بارز، استخدمهم الله بصورة خاصة، فهناك الخطر قائم: أن يضع الشعب تلك الطبقة في طغمة كهنوتية قريبة من الله، وقريبة لأجلهم. ولنطبق هذا علينا أيها الإخوة. إن الخدمة، موهبة الخدمة، موهبة التبشير أو غيرها من المواهب، لا علاقة لها إطلاقاً بالأفود. لنذكر هذا. لنذكر أن الموهبة لا شأن لها بالوظائف الكهنوتية التي هي إما من خصائص المسيح وحده بوصفه رئيس الكهنة الفريد الذي يخدم لأجلنا قدام الله، وإما من امتياز شعبه جميعاً على السواء بلا أدنى فارق أو مميز «جعلنا ملوكاً وكهنة».

عدد واحد قرب نهاية الأصحاح (٢٨:٨) يحدثنا عن هزيمة مديان الساحقة «وذل مديان أمام بنى إسرائيل ولم يعودوا يرفعون رؤوسهم. واستراحت الأرض أربعين سنة في أيام جدعون». ذلك من الجلي عمل الله، بعيد المدى في آثاره، حتى بعد أن كف نشاط الإيمان الذي ميّز بدايته. فإن أسرة جدعون الضخمة، وزوجاته الكثيرات ليست علامات على الحيوية الروحية التي نعهداها في رجال الإيمان - حتى في أيام الآباء - ومن المحقق أن أبيعالك، وليد إحدى سراريه، ذو صلة وثيقة بهذه الظاهرة البشعة، بحيث لا يسعنا أن نتجاوز الدرس الذي نتلقاه منه. فإن الراحة واللذة تلدان مصادر للشر فيما بعد.

وهذا يأتي بنا إلى نهاية حياة جدعون. ومن المهم كذلك أن نلاحظ أنه بينما نراه قد وضع على الرف مسألة الملكية حين أثار مسألة الكهنوت، فإنه فعلاً عاد فأثار مسألة الملكية كما سنرى فيما بعد. وفي الحق إنه لأمر خطير أن نتابع آثار مناسبات الشر هذه. فأنت تجد مثلاً أن النيقولاوية (التي معناها "غالبو الشعب") هي - عملياً - سليل ضياع المحبة الأولى التي تميز إضاعة القديسين لتقدير كهنوتهم قدام الله. فإن قهر الشعب أو التسلط عليه هو الإكليريكية؛ بيد أن

التسلط على الشعب ينبع من إضاعة القديسين لامتياز اقترابهم من حضرة الله المقدسة.

مات جدعون؛ ونقرأ في عدد ٣٣ ما نألفه كثيرًا بحيث قلّ من تكراره «وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريث إلهًا. ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم». والانحراف عن الله يعني أيضًا استمرار كل ثمار ذلك الانحراف: العبودية، والهوان. ولكن يبدو هنا أنه لا توجد عبودية لأية قوة خارجية. فإن الهدف هو بالحرية الحالة الداخلية.

لقد تطور الكهنوت ولكن ليس بحسب ترتيب الله؛ بل في الواقع خارج ذلك الترتيب، والتمرد له ثماره؛ وها أنت ترى الآن أبيمالك بن جدعون يطلع ليحتل مكان أبيه. ليس بوصفه كاهنًا، فقد انصرف الشعب إلى البعل وليست بهم شهوة الكهنوت. وهكذا يتحول الناس سريعًا عن الله. وإنما يطلع كملك؛ الأمر الذي يظهره لنا اسمه الذي أطلقه عليه ربما أمه لإظهار علاقته برجل إسرائيل العظيم وستر فضيحة مولده. وهذه التسمية «أبيمالك» التي معناها "كان أبي ملكًا"، تبين كيف كانت الروح الماكرة تعمل سواء وجدت إطارًا وتنفيذًا أم لم تجد. والغريب أن هذا هو الشيء الذي لم يكنه أبوه. فقد رفض أبوه أن يكون ملكًا وقال للشعب إن الله يملك عليهم. ومع ذلك فهؤلاء ابن أبيه يقرر أن أباه كان ملكًا، ويعلن أن ابنه - هو الآخر - سيكون ملكًا.

أقام نفسه ليستخدم سلطانه على شعب الله؛ ولكي يفعل ذلك أقام عرشه على الظلم. فلا بد من الظلم لمساندة هذا النوع من الحكم؛ لكي يحكم الإنسان ويتسلط، فإنما بالظلم يقوم تسلطه. ومن هنا صنع مذبحه لإخوته جميعًا، بني جدعون جميعًا، باستثناء واحد. وإذا قضى على منافسيه مضى إلى شكيم، موطن أمه، المدينة التي بحسب الطبيعة، والتي تقع - من المدهش - في تخوم سبط أفرام الذي يشتهي، كما نعلم، الوصول إلى الحكم؛ وحمل أهل شكيم على الاعتراف به ملكًا. وحينئذ قام أخوه يوثام، الذي أفلت من المذبحه، وأنشأ مثله المعروف الواضح والعميق الدلالة، من حيث أنه ينطوي على درس هذا الأصحاب برمته. وهذا المثل الذي يدور حول محور الحكم والسياسة يفسر كل ما حدث، ويظهر حقيقة حكومة الإنسان وآثارها في بيت الله (ص ٧: ٩-٢١).

المثل الذي أمامنا يصوّر حقيقة الحكم؛ ماهية السلطان. والشجرة - في ذاتها - صورة الحكم. فنبوخذنصر - أنت تذكر - كان شجرة كبيرة، رأسًا للملكوت الأممي. وحبّة الخردل صارت شجرة.

ذهبت الأشجار تطلب متسلطاً، فاتجهت - بالطبع - إلى الأشجار ذوات الثمر. وتبدأ بالزيتونة، تسألها أن تملك عليهن فترةً عليها بنفس جواب الأشجار الأخرى «أترك دهني الذي به يكرمون بي الله والناس وأذهب لكي أملك على الأشجار؟». وفي عبارة أخرى تقرّر الزيتون أن عملها هو الإنتاج لا التسلط. وإذا نطبق المثل على سياسة شعب الله، فما أجمله في بساطته. من ذا الذي يحكم شعب الله، يتسلط عليهم؟ يتجه القديسون إلى أولئك الذين يثمرون لله. فهذا - مثلاً - قديس يمثل الزيتون. والزيتونة - بزيتها - تمثل نشاط ونورانية الروح القدس، قوة الروح القدس وثماره. يذهب القديسون - إذاً - إلى أولئك من إخوتهم الذين تتجلى فيهم ثمار الروح في حياتهم، ويسألونهم: "احكمونا يا أعباء". أو قد تقع العين منهم على أخ بذاته مملوء من الروح القدس والإيمان، يطلبون إليه بالقول: "خذ القيادة أخانا واحكم في شعب الله"، فيردهم: "إنني يا أعباء في شغل كثير بأمور الله. بحيث لا وقت عندي لمحاولة حكم شعبه. إنني في شغل كثير بطوباوية شركة الروح القدس، بما ينعمش شعب الله، بما يكرم الله (لأن ثمار الروح في شعبه هي التي تمجد الله وتكرمه) بحيث لا فراغ عندي للسيطرة والسيادة".

والتيينة تشكّل - على وجه خاص - كل التغذية الكريمة وعناصر الشفاء والصحة. هي ثمر حلاوة؛ نتاجاً شافياً، ومن ثم تقول: "لو أنني أخذت نفسي بالسيطرة لتوقفت عن الثمر وإنني لأفضل - بالحري - أن أمد شعب الله بالطعام على أن أتحكم فيهم". وهكذا، إذا أعان روح الله واحداً من القديسين، وبطريقة ما زود شعب الله بما يغذيهم ويحييهم ويشفيهم ويقويهم، كما نرى في خدمة الراعي والمعلم، أفتراه يستبدل بهذا النوع من المكانة سلطة على القديسين أو سيادة من أي صنف؟

وجواب الكرامة إنما هو درس آخر من نفس الطراز. فالكرامة قد تذكرنا - على وجه التخصيص - بخدمة الإنجيل، الخدمة التي تؤكد قيمة دم المسيح الكريم الذي ترمز الكرامة إليه. فهذا مبشّر، مسرته في إعلان الصليب، عمل المسيح الناجز؛ وعنده يقول القوم: "ذاك هو الرجل الخلق بأن يحكم؛ هبنا مبشراً صالحاً يحكم فينا، يمسك أزمة قياد القديسين". فيردهم: "أترك ما يفرح الله والإنسان؟ أترك ما يسند القلب المضني في قديس يحتضر، أو ما يبعث السلام للضمير المرهق بالذنب، ويمجد نعمة الله؟ أتخلّى عن خدمتي في إنجيل نعمته، في سبيل مجد السيطرة على شعب الله، المجد الفارغ؟".

من ذا - إذاً - يملك عليهم؟ إن أبى أن يحكم بين شعب الله أولئك الحاملون الثمار لله، فمن

يكون المتسلط إذا؟

إن درس الحكم، أخي الحبيب، هو درس الخدمة؛ وأفضل حاكم هو أفضل خادم. هو - عملياً - رئيس شعبه، من عند أرجلهم يخدمهم؛ أولئك من يقدمون لهم ثمار نعمة الله الكريمة، كالزيتونة والتينة والكرمة، هم الأشخاص بالذات، الأشخاص الوحيدون، الذين بخدمتهم يقودون ويدبرون قديسي الله.

روح القيادة: هي روح الخدمة؛ وفي اللحظة التي تتلاشى فيها في مجرد القيادة والزعامة، تتحول من روح الخدمة وانتاج الثمار. في اللحظة التي تبعد فيها عن الإتيان بالثمر، يصيبك الفراغ والخواء؛ وهذا ما نراه أمامنا. فهذا الاختيار يقع على العوسج ليملك على الأشجار، واستمع إلى جوابه وكله دلالة: "إن شتتم أن أملك، فاحضعوا لي ساجدين أو تخرج نار تحرق الأشجار جميعاً من أرز لبنان في شموخه إلى أدنى الأشجار نازلاً". زعامة أو خراب.

وما العوسج إلا شيئاً عقيماً، عوض أن يهب النشاط والعصارة والحيوية لانتاج الثمر، يذوي وينقلب على ذاته، يدور حول نفسه؟ هو - كالشوك - لعنة الأرض، فرع ساقط. هكذا العوسج، الذي ليس إلا عليقة من شوك، يمثل الأنانية، الرجل الذاتي: وقد صار هو الملك على الأشجار. وهذا الطراز من الحكم يقول بلسان الحال: اخضعوا لي سجدًا، أو احترقوا، مهما كنتم.

يا له درسًا عن حقيقة السيادة بين شعب الله! نفكر فيه وكم يذل قلوبنا؛ نتحقق به كيف من الهيئ أن نصبح مجرد عوسج، ونطلب بين القديسين مكانة: لا عند أرجلهم بل فوق رؤوسهم. إنما يقود ويدبر، يا أخي، من يفعل فعل المسيح، من يخدم بيننا. «لأن من هو أكبر: الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ؟ ولكن أنا بينكم كالذي يخدم» (لو ٢٢: ٢٧). أو نحن في حاجة إلى قديسين يُعنون بنا؟ أنت عوسج إن طمعت في ذلك. أما الذين ننظر إليهم ونؤمل فيهم، فهم الذين يأبون أن يحتلوا المكان، بل يسعون للإتيان بالثمر الكريم لله، وبركة القديسين. وليكن همتنا وشغلنا الشاغل انتاج الثمر في نفوسنا.

حذار أن نطلب مكانًا. حذار أن نتمثل بأبيمالك، راغبين أن نقفز إلى مقعد شاغر خلا من شاغله، مقعد رفضه أبوه. حذار أن نكون أبيماليكين، بأي معنى تحمله اللفظة. واحدًا كنا أم مجموعة، لا فرق؛ فالمبدأ هو هو: فحيث روح الخلافة، حيث نطن بأن أفرادًا بذاتهم هم المتسلطون، هم الحاكمون برغم ما في ذاتهم أو في القديسين، فهناك باليقين عوسج؛ عقم بلا ثمر لله.

إنما القيادة لا تتحدث عن ذاتها، أو كرامتها، أو سلطانها. القيادة هي الضعف يتسلمه الله، وفي ضعفه يقف إلى جانب الله مهما تكن الكلفة. هذا درس لا يسعنا أن نتجاهله. لكنه درس كثيرًا ما أخفقت في تعلمه كنيسة المسيح، ومن أجل ذلك تحطمت. هو درس الإكليروس الكبير، في كل شكل وإطار؛ درس الإكليروسية التي قامت لتفسد سلام شعب الله.

اقرأ تاريخ شعب الله من البداية، تجد أن القادة الذين عينهم الإنسان هم الذين جلبوا المتاعب، أولئك الذين أقحموا أنفسهم في مكان القيادة؛ نعم، في مكان الزعامة لا مكان الثمر. هم الذين جلبوا المشقة والهوان لاسم الله والفساد الذي شوه تاريخ الكنيسة منذ أيام الرسل.

أوليس ذا دلالة أن يكون اسم أبيمالك نقلًا عن أسماء ملوك فلسطين؟ هو يحمل الاسم ذاته، الذي كان يحمله ملوك الفلسطينيين، وقد تسلموه أبا عن جد، كما فعل فرعون مصر. وتلك روح روما، الديانة الجسدانية العالمية، التي تسمى الزعيم باسم السلف. وما لم توجد خلافة فلا حكم ولا قيادة؛ وهكذا يدعى حاكم الفلسطينيين أبيمالك. «كان أبي ملكًا، وأنا ملك بعده». هي روح الخلافة، فخر روما؛ تدعوها الخلافة الرسولية. وفي البروستانتية اليوم، كم ذا يطالب القوم بالكثير من الخلافة الرسولية التي لا تزيد عن كونها عوسجًا يقوم ويطالب بمكان السلطان.

لماذا تتجلي بين القديسين - من وقت إلى آخر - روح مثل هذه؟ أليس لإغفال منزلتنا الكهنوتية؟ لإغفال كوننا كهنة؛ وإذ نغفل تأخذنا روح التفريق بين الإكليروس والعلمانيين.

ليس في نيتي أن أتحدث بالتفصيل؛ ولو أن في مجرد قراءة التفصيلات نفعا، نتبين منها كيف تمت بحذافيرها نبوءة يوثام. فقد خرجت نار من أهل شكيم وأحرقت أبيمالك؛ ومن أبيمالك خرجت نار وأحرقت أهل شكيم. وحصل أهل شكيم على منافس لأبيمالك. استقبلوه في غير مودة قلبية، ثم دفعوه لملاقاة أبيمالك الذي حمله على الهرب. وبقي أهل شكيم على عدائهم لأبيمالك الذي دخل في صراع علني ضدهم ودحرمهم على أمرهم. وإذا هربوا إلى الصرح قطع أغصانًا من الأشجار ذاتها وطم مثلاً أخيه وأوقد النار على باب الصرح وأحرق بداخله الذين انحازوا إلى منافسه.

ثم مضى أبيمالك في إثر رجل آخر إلى مدينة أخرى ليقوم بالدور عينه، ليحرق الذين احتموا في البرج، وإذا بيد امرأة تمتد بقطعة من رحي - ضعف يستخدم أبسط عدة في الأعمال اليومية - لتضع نهايته. أمسكت بقطعة الرحي وألقته على رأسه فسحقت أبيمالك وكل قوته معه: هذا فعلته يد امرأة.

خذ بالك إلى المباينة مع يوثام. لم يشترك في كل هذا الصراع والخصومة، هرب إلى بير وأقام هناك: إلى جانب البئر أقام، بينما شعب الله في صراعهم على السلطان مأخوذون. يستقي ماء من نبع كلمة الله، من حيث يأتي العون والانتعاش.

وهكذا: بينما يتصارع أساقفة مع أساقفة، وبابا مع بابا؛ على من له الغلبة في الاستمتاع بحظوة السيادة، يطيب لقسيس الله أن يعتزلوا إلى كلمة الله، ويستقوا ماء من نهر الحياة والمحبة، الذي يسمو بكثير على كل أبيمالك في العالم. إذ على جانب البئر تنمو الغصون معلقة على السور، فهناك من يحتاجون إليها.

كنا نتحدث عن السيادة البشرية. وإن كان هناك ما يُمقته الله، فهو روح التسلط البشري. ولكن هل معنى هذا أن بيت الله يخلو من الحكم؟ هل معناه تحريم السلطان، أم أن فكرة السلطان بغیضة بهذا القدر في نظر شعب الله؟ إن كانت المسألة مسألة سلطان إنسان ما ضد سلطاني أنا - أي التصادم بين إرادتين، إحدهما ضد الأخرى - فأنت على الحالين تحت سلطان الإنسان. أما إذا كان الأمر متعلقًا بترتيب بيت الله والحكم فيه، في قوة الروح القدس وبحسب كلمة الله، فالويل لمن يتجاهله.

لماذا هو لزام علينا أن نُظهر الغيرة ضد كل اقتحام بشري لمراكز السلطة والحكم؟ لأن هذا الاقتحام معناه انتزاع سلطان المسيح. معناه أن اغتصاب مكان القيادة والتدبير والملاحظة بين شعب الله، هو اغتصاب لمكان المسيح: تمامًا كإغتصاب جدعون لمكانة الكهنوت، وأبيمالك لمكانة الملوكوت.

إنما المسيح هو متسلط، مدبر شعبه. وكيف ينفذ سلطانه؟ بكلمته، بروحه القدوس، بحسب حقه. وكيف نعلن خضوعنا للمسيح وحكمه؟ نعلنه، يا حبيبي، بالخضوع لكلمته. قد يتحدث القوم عن الطاعة للمسيح؛ غير أن الطاعة للمسيح تتجلى في إطاعة كلمته. يتحدثون عن الإقرار برياسته هنا. وعندنا الكلمة الغالية وكل ما تعلنه لنا من حق، وهي أوامر قائدنا وسيدنا. فأنا تحت التزام أن أطيع الكلمة مهما يكن حاملها إليّ، حتى ولو كان من الضالة بحيث يشبه غلامًا صغيرًا يحمل أمرًا من رئيس الجمهورية إلى قائد في الميدان. الغلام لا شيء، إنما هو يأتي برسالة، بتبليغ؛ فإذا ما استهان القائد بالغلام وأبى أن يطلع على ما يحمله من بلاغ، فإنما هو يمتن من أرسل الغلام ويستهن بقدره. هكذا الحال في بيت الله. فمهما يكن من يأتيني بكلمة المسيح، بمشيئة المسيح، برسالة منه: من رأس سيد شعبه: هل من حقي أن أزدريها لأنني أزدري

الآلة؟ إنني أزدري المسيح إن فعلت ذلك. إنما الحكم الصحيح يا أخي معناه حكم المسيح؛ وهو ينفذ حكمه بكلمته، وهو يأتي لنا بكلمته بوساطة أي أداة يراها نافعة.

والرب يكرم الحكم الصحيح في بيته، ويكرمه بهذه الطريقة؛ فإن الأشخاص الذين يقدر أن يستخدمهم، الأشخاص الذين لهم أفضل دراية بفكره، الأشخاص الذين هم الأقل في التناقض مع ما هو ترتيب الله؛ هم الأشخاص أنفسهم الذين يستخدمهم لتنفيذ سياسته وحكومته.

سامحنى لو حدثتك عن شيء آخر. لقد أشرت إلى القيادة، التدبير، بين شعب الله. ولا نزاع في أن قيادة المسيح تتم في غالب الأحيان بواسطة الإخوة الشيوخ بين القديسين. وذلك لمطابقته لترتيب الله. والطبيعة ذاتها تعلم الطاعة والتوقير لمن يكبروننا سناً، وبخاصة الوالدين. وفي عائلة الله هو حق أن نعتز بتربيت الله قدر الطاقة.

ولكن معنى هذا؛ بالطبع، أن يكون الإخوة الشيوخ في شركة مقيمة مع المسيح، ويمكن استخدامهم كأواني لإيصال رسالاته لشعبه. ليس لأجل ما هم في ذاتهم، بل لأنه - تبارك اسمه - يستطيع أن يستخدم ما يوافق ترتيبه - حتى في الطبيعة ذاتها - لقيادة شعبه؛ أما إذا كان القديسون الأشياخ لا يثبتون في المسيح، وغير مملوئين بكلمته، ولا سالكين بالانفصال عن العالم، هل نتوقع أن يستخدم الرب مثل هذه الآلات؟ ومن أسف؛ ما أكثر ما يضطر الرب أن يستغل الأقل من المنسوب الذي يريد، أن يستغل الشبان بدلاً من الأشياخ، لأن هؤلاء غير مهيئين.

هي كلمة لضمائرننا. أنا أتحدث هنا عن المبادئ، مجرد المبادئ الجامدة؛ لكنها مبادئ على قدر كبير من الخطورة. فإن شئنا أن نستخدمنا الرب في إبلاغ حقه لشعبه، وفي ما يتصل بأمر تدبير بيته، فلنكن في شركة معه. عندئذ، وبالضرورة، تتولد الطاعة والاحترام للكلمة ولسلطان المسيح؛ والاحترام - كذلك - لمن يبلغنا إياه ليس لشيء في ذاته بل كمن ننظر إليه ونعرفه كمن يسهر لأجل نفوسنا، كعتيد أن يعطي حساباً. نعتز بأمثال هؤلاء الذين يثبتون في المسيح؛ ولهذا السبب هم يقدمون لنا، لا مشيئة بشرية، بل فكر الرب يسوع.

أود أن أستودع هذا الأصحاح التاسع من سفر القضاة لدراسة في صلاة. فإنه هنا طالما تحطم التدبير والرعاية بين القديسين. وعندما تعرض لنا سيرة يفتاح سنرى توكيد هذا الدرس. كما سنرى الخيبة التامة - في هذا الميدان - في حياة شمشون، حتى ينتهي الأمر بالحكم والسلطان إلى العدم والتفاهة في ختام السفر. خذ هذا الأصحاح التاسع من سفر القضاة وانظر

كيف تطلع روح الخلافة من روح الكهنوت، وكيف أن روح الخلافة إما أن تسيطر أو تخرب. ولا بد أنها تسيطر مهما تكن الكلفة. هذه هي الذات في أمور الله، وكم ذا تأتي في ركابها بالفوضى والخصام والتشويش. فلنتعلم هذا الدرس الواحد: أن نخضع للرب يسوع المسيح، سيد كنيسته، ورأسها، الكائن ربًا على الجميع؛ وكل من له القرب الكافي لشخصه العزيز بحيث تكون عنده كلمته، نخضع لتلك الكلمة يا أخي. نخضع لسلطان المسيح في بيته ونعترف به. على أنه ينبغي أن يكون هناك سير مع الله. ولا شيء يمكن أن يحل محل السير مع الله الذي إن توفر، توفر السلطان والتدبير، وممارسة الملاحظة بين القديسين في انطلاق متحرر؛ لكن المسيح هو الكل.

الأصاحات من العاشر إلى الثاني عشر

يفتاح: أسلافه وأخلافه

عرض أمانا الأصاح التاسع - في ختامه - النتيجة التي لا مفر منها، نتيجة مخططات الذات والسلطة المتحكمة، كما جلاها لنا مسلك أبيمالك وخلقه، حيث لنا في تصرفاته أنه في قيامه، في نجاحه، في إخفاقه، خير مثل لسيادة العوسج بالمباينة مع خدمة الأشجار ذوات الثمر. وكم ذا وددت أن أزكي، لدى ضمير أخي وعنايته، الدرس الذي استقيناه من أمثلة يوثام. ففي تصوري أنه واحد من الدروس المميّزة لسفر القضاة، في شموله، في ما يتصل بعلاقة الشعب، أحدهم بالآخر. ذلك بأن الدروس التي كنا نقطفها في ما سلف كانت تتصل بالشعب وأعدائه؛ على حين يتصل درس أبيمالك بالإخوة أحدهم بالآخر. ولكي تصان الشهادة الجماعية لله في هذه الأيام، فلا بد أن تكون على خط سير تلك المبادئ التي رسمها لنا مثل يوثام.

وفي مستهل الأصاح العاشر مباينة على قدر كبير من الأهمية. فنحن أمام قسمين موجزين، وإيجازهما - في ذاته - حافل بالدلالات. أحدهما خاص بحكومة تولع والآخر بحكومة يائس؛ إحداهما تخلف الأخرى. والمؤرخ يوجز الحديث عن العهدين إيجازاً يطبع العهدين بالبساطة. أما حكومات الأبيماليكين فهي التي تقتطع من الكتاب المقدس أصاحات مطوّلة. ذلك بأن الحديث عن تلك الحكومات هو حديث عن تاريخ الذات؛ والتاريخ الذي يقص علينا ما يجريه الله مع الذات لكسر شوكتها وإذلالها يقتضي تفصيلات كثيرة؛ أما حيث البركة الإلهية حيث عمل حقيقي لله، فيمكن وصفه بكلمات قليلة. والواقع - كما يقص علينا

المؤرخ - أن ما يشغل مساحات كثيرة من الأصحاحات التاريخية، هو أردأ زمن يمكن أن نعيش فيه؛ بينما الفترة التي تبدو على صفحات الكتاب أنها صامتة وجافة هي في الواقع أفضل زمن: هي فترة السكون والسلام، الإطمئنان والرخاء. وتاريخ هذين القاضيين - وقصتهما كما نرى خالية من التفاصيل - به القليل جداً مما يلفت النظر. غير أن ظهورهما بعد أبيمالك توّاً يحمل في طياته فكرة المباينة. «وقام بعد أبيمالك لتخليص إسرائيل تولع بن فواة». وليس في تولع - إلا أن يكون في معنى اسمه - مفتاح للدرس الذي نتلقاه منه. ولكن كما رأينا في مدلول اسم أبيمالك من حيث أنه يوحي بفكرة الخلافة «أبي كان ملكاً» وأنا - لذلك - سأكون ملكاً، كذلك في تولع تصحيح هذه الفكرة والنقيض لها.

تولع معناه "دودة". دودة تقضي لإسرائيل!! مباينة خطيرة - أليس كذلك؟ مباينة مع صرامة الكبرياء التي تفخر بأصلها وقوتها وتضع يدها على كل ما يأبى الخضوع لمشيئتها. المؤرخ يعود في ذكر أنساب تولع إلى جيلين، هو ثالثهما. الجد الأول دودو (معناه "حبيبة")؛ والثاني ابنه فواة (ومعناه "كلام")؛ والثالث هو تولع (ومعناه "دودة"). فمحبته لله هي المصدر؛ وإذ يدرك الإنسان أنه موضوع تلك المحبة، لا ينقصه الكلام للتعبير عن تقديره القلبي؛ والنتيجة التي لا غنى عنها هي إلغاء الذات الأمر الذي نستوحيه من الدودة. فواة (ومعناه "كلام - نطق") مشتق من كلمة معناها "يتنفس"، وهذا يذكرنا بالروح الذي نُفخ به في كل من يؤمن بمحبة الله كما ظهرت في المسيح؛ وبنفخة الحمد والاعتراف التي ينفخها فينا الروح عينه بقوته الإلهية.

وكان تولع من يساكر الذي معناه "أجرة - أجير"، وفيه فكرة المجازاة عن حياة الإيمان، المجازاة الآن وفي ما بعد. والشيء الملفت أنه لا يقيم في إحدى مدن سبطه، بل في شامير في جبل أفرام. أعني أنه في تواضع يتخلى عن فكرة المجازاة فلا يخدم ليأخذ أجرة، بل يمضي أيامه في حياة الخضوع المثمرة. إن تولع (الدودة) في أفرام لهو بعيد عن مخاطر الكبرياء التي يتعرض لها ذلك السبط على وجه الخصوص.

أقام هو - إذاً - في شامير؛ وهي كلمة مأخوذة اشتقاقاً من لفظ يدل على الرسوخ أو الثبات أو الجمود. والاشتقاق الرئيسي لهذا اللفظ هو كلمة السهر أو اليقظة. ومنه نستوحي السهر وصفة اليقظة التي يتحتم توافرها في المُدَبِّر «المدبر فباجتهاد».

والجدير بالذكر أن تولع مات ودفن في المكان ذاته الذي قضى فيه عمره: الأمر الذي يوحى بفكرة الثبات وعدم التقلب. أي أن الموت لم يكن ليغير في المبادئ الذي كان يدافع عنها. وأدهشني أن أرى في تولع ويائير، والقضاة الذين جاء ذكرهم بعد تاريخ يفتاح، رموزاً للمسيح ذاته، أكثر مما أرى في غير هذا الجزء من السفر. فإننا نجد الكثير في يفتاح وفي جدعون وسواهما، مما لا يمكن أن ننسبه إلى سيدنا العزيز، أما في هؤلاء القضاة - حيث الكلام قليل وموجز جداً - فنجد ما يشير إلى سيدنا، سواء في مركزهم أو اسمائهم. فأنت تذكر مزمو ٢٢ وكيف أن ربنا المبارك يتحدث فيه عن نفسه كدودة لا إنسان. ففيما أخذ أقل مكان - ذاك الذي كان له في السماوات أرقى منازل المجد - متضعاً، مخلياً نفسه، نتبين صفاته ذاك الذي أقيم ليخلص الشعب: سواء كان إسرائيل هذا الشعب أو الكنيسة. وذاك من أخذ مكانه متضعاً هو الذي يدين شعبه ويجمعهم كما يطالعنا ذلك المزمور. وإذا أخذ مكانه كدودة لا إنسان، وبذلك مات على الصليب، قام من الأموات مركزاً للبركة لإخوته: بقية إسرائيل؛ وللجماعة العظيمة، الأمة بأسرها؛ وأخيراً تسمع جميع قبائل الأرض وتجتمع إليه للبركة. وهكذا من الصليب، كالمركز والمحور، تشع كل بركة، وبذلك الذي أوصله اتضاعه إلى الصليب يصل إلينا كل رجاء في الخلاص.

لا أقول إن هذا رمز للمسيح، بل هي مجرد إشارة لشخصه الحبيب. ولكن من حيث أن تولع - بهذه الطريقة - يشير إلى المسيح في اتضاعه، فإنه في هذا الجانب يطالعنا بصورة جميلة لروح الحكم والقيادة السليمة. فعلى النقيض من روح الذات الاستبدادية التي إما تحكم أو تخرّب، والتي تحطم وتسحق كل ما يتحدى طموحها، ظلّ تولع - في هدوئه، بغير صراع مع الأعداء من خارج، أو مع الشعب من داخل - يحكم بأمانته؛ وخلال حياته المديدة، حياة المسالمة، ومن مطلعها حتى ختامها نقرأ أنه دافع عن إسرائيل وخلّصهم. كان فيه عمل جدي ذو فعالية. وتلك هي الحال أبداً.

وفي أعقابها مباشرة يجيء شخص آخر يذكر اسمه بإيجاز: يائير الجلعي (وهنا نأتي إلى جلعاد مرة أخرى). هذا قضى لإسرائيل اثنتين وعشرين سنة. وما يحدثنا به التاريخ عن يائير أنه كان له خلفاء، خلفاء جديرين بالخلافة. «كان له ثلاثون ولداً يركبون على ثلاثين جحشاً ولهم ثلاثون مدينة، تدعى حووث يائير إلى هذا اليوم». وهكذا ترى أن سلالة يائير حكام

كلهم: هم لا يدعون السلطان، إذ هم عملياً متسلطون؛ كل منهم - ربما - كان له في محيط نفوذه مكانة القوة والسيادة على مدينة. ومدائنهم كانت على اسم أبيهم، حوث يائير (أي "حيوات* يائير"). بمعنى أنهم أطالوا حياة يائير حتى بعد موته: عاش يائير بعد موته.

يائير هو "مانح النور"؛ وكما وجدنا في تولع الإشارة إلى اتضاع سيدنا وموته، كذلك لنا في يائير إشارة إلى جانب آخر في سيدنا، جانب منح النور لشعبه الذي به - بذاك النور - يتقدمون نامين. وفي هذه المدائن الثلاثين فكرة النمو والتطور من خلال الحق الذي استطال عمره لخلفائه، ذراريه.

هذا شيء بسيط جداً؛ ولكن ما أبرك أن نضع في البال أنه إذا كان لنا - في وسط الخرائب والتحلل - أن نفوز بقدر من الرجوع إلى الله، إذا أردنا أن نرتد عن الفوضى التي تفتشت بسبب أبيمالك، فإنما نحصل عليه عن طريق سيادة حكومة التواضع الهادئة المسالمة: حكومة الوداعة، التي هي شديدة الفعالية لأنها انحدرت إلى التراب ذاته. فالملك الذي يحكم - إن شاء لك أن تدعوه ملكاً - هو الشخص بذاته الذي يبدأ من التراب. القوة التي تغمر شعب الله هي قوة الضعف مستقرة على أساس من القوة الإلهية، حيث تملأ صاحبها أفكار عن ذاته متواضعة ناكرة للذات، وفي الغالب يزدرية الآخرون. فإذا شئنا - في اتضاعنا - أن نأخذ مكاننا إلى جانب رجل الأوجاع، نكون قد أمسكنا بمفتاح الحكومة؛ بالمفتاح إلى القوة والتدبير في وسط شعب الله. وهل رأيت - أبداً - شعب الله يأخذون مع تولع مكان الاتضاع، ولا تجد الخلاص صادراً هادئاً خلال تلك المجرى؟

ويتفرع عن ذلك معرفة الحق الإلهي، في قوته القادرة على التغيير والتدبير. وحيث يتوفر ذلك، يتوفر النمو والتطور الذي يسعدنا مرآه. وإلى جانب التطور الحقيقي لنا عينة على السلطة الفعلية، ولو لم تكن بصورة واضحة.

ويدهشنا أن يقع هذا في جلعاد الواقعة على الجانب الآخر من الميراث، الضفة الأخرى من نهر الأردن، جانب البرية. وأنت تعلم أن جلعاد معناها «شهادة». وهكذا يحتل شعب الله مكانهم هناك عن طريق النمو الحقيقي، محتفظين هناك بمكان الشهادة الحقة أمام العالم. والمفهوم أن المكان بذاته الذي يطلع منه العدو - أول ما يطلع - هو الجانب الجلعادي، جانب الشهادة، كما

* جمع "حياة".

سنتبين فيما بعد؛ ويا لها تعزية أن شعب الله - من خلال استنارة الحق - يحتفظ بمركز الشهادة، نامين فيها، بحيث يرى العالم نفسه حيوات يائير.

الحياة - أخي - هي الشهادة الصحيحة في عيون العالم. مدن يائير، مدن الحياة، هي التي تؤسسها استنارة حق الله. والعالم لا يسعه أن يتجاهل الأخلاق، لا يسعه أن يعمى عن النمو الروحي. قد ينكر الاعتراف، قد يسخر من الكلام، مجرد الكلام، لكنه لا يقدر أن ينكر، لا يقدر أن يزدري، النمو الروحي الصحيح.

كذلك أنت تلاحظ علاقة النمو بالحكم، الأمر الذي نستقيه من الإشارة إلى ركوب الجحوش. وسيدنا دخل أورشليم راكباً على جحش ابن أتان، يوم حيته جماهير الشعب. وركوب الأتن - في الشرق - علامة الحاكم والدليل عليه. وإلى هذه العادة تشير دبوراة في نشيدها (ص ٥: ١٠). مات يائير ودُفن في قامون. أما قامون هذه فالمعاني المقدمة ترجمة لاسمها كثيرة؛ واللفظ مشتق من أصل معناه - كما هو واضح - "يقوم". ومن بين المعاني ذات الدلالة "مكان محبوب" إذ في مثل هذه الحيوانات نجد عربون القيامة مع حصاد وفير.

أمامنا إذاً هنا مباينة مع أبيمالك؛ ومباينة مباركة! حبذا لو تعلمنا درسها: درس التواضع والاستنارة. بل إنها لتزيد عن كونها مباينة؛ إنها علاج، دواء.

والآن نُقبل على قسم كبير، ومن أسف - كما قلت - إننا مع القسم الكبير نتوقع شيئاً من الصراع بين مبادئ الله وممارسات الشعب. وفي هذا القسم الطويل نجد تاريخ يفتاح، الذي لنا فيه طعام وفير إذا تأملناه بروح الضلالة.

أما أولاً فنرى المؤرخ يحدثنا عما لم يحدثنا به سواء في الكلام عن تولع أو يائير، أعني الانحراف - من جديد - عن الرب، انحراف بني إسرائيل. وقد أشار إلى رقم كبير من الآلهة يضم جميع آلهة الوثنيين الذين كانوا يحيطون بهم. «عبدوا البعليل والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين».

هذا ارتداد يبدو أعمق من أي ارتداد آخر، اكتملت حلقاته بحيث أن إلهاً واحداً فقط استُبعد من قائمة معبوديهم. لقد عبدوا كل أنواع الآلهة فيما خلا الإله الحي؛ وهي عين ما يفعله الارتداد على مده الطويل. فالإنسان يتسامح مع الخطأ، أما الحق فهو الذي ينتزع ما ليس حقاً، من القائمة. والجسد - لا تنس - تتوفر لديه ربوات الأساليب لإظهار ذاته. له

ألوف ألوف من الآلهة يقدم لهن العبادة والخدمة. إنما إله واحد هو الذي لا يقوى الجسد على الإنحناء أمامه: الإله الحي. وهذا ما نجده مع إسرائيل هنا. فبقدر ما كانوا يضاعفون من عدد آلهتهم، بهذا القدر عينه كان انحرافهم عن الإله الحقيقي. والنبوءات حافلة بهذه الظاهرة الأليمة، وفيها يطيل الأنبياء توسلاتهم إلى الصبر الإلهي واحتمائهم فيه.

والنتيجة على بساطتها لا مفر منها. فإذا ما ضاع من نفوسنا الإحساس بسلطان الله عليها، فالنتيجة الحتمية أنه - تعالى - يسلمنا لسلطان ما اتبعناه. ونتبين من ذلك أن إلهنا المبارك لا يُسر بالقضاء والدينونة، لا يسر بالتأديب؛ وإنما هو يسمح لشعبه أن يحصدوا ثمرات غيائهم. لكأنه يقول لهم: ها أنتم ترون إنني لم أوقع بكم هذا التأديب؛ لست أفقدكم بالشر؛ وكل ما في الأمر أنني أريكم آثار شروركم. وإذا كانوا يعبدون آلهة الفلسطينيين والعمونيين، فقد أسلمهم لأولئك الشعوب تسحقهم. تسحقهم قوة أجنبية، تحطمهم وترضضهم.

ألا فلنكن لله شهوداً يا أخي. هل وجدنا - في يوم ما - أن حكمه ثقیل الوطأة علينا؟ هل وجدنا في عبادته، في خدمته، ما هو شاق أو مرير؟ قد ترتبط بعبادته تجارب وصعاب، وقد تأتي أوقات يظهر فيها الجسد. ولكن هل أحسنا يوماً ما بثقل نيره الذي هو هين أبداً، وحمله الذي هو أبداً خفيف؟ لقد حدثنا رسول المحبة، الذي كان الأقرب إلى قلب المسيح، وأخبرنا «أن وصاياه ليست ثقيلة». أما فيما يتصل بسيادة الشر علينا: هل وجدناها مرة خفيفة؟ ألم تكن إلا استبداداً ساحقاً؟ خذ الخدمة، بصرف النظر عن صور الشر: ابتداءً من الروح العالمية إلى الفساد الأدبي المفضوح؛ ابتداءً من مجرد عدم الاكتراث بالله، إلى آخر دركات الإلحاد والكفر بالله؛ متى رأينا خدمة الشر إلا رضاءً وتحطيماً، ومرارة للنفس وعلقمًا؟ مطلقاً!

وهكذا ما نراه مع إسرائيل هنا. فقد لازمهم استعباد الفلسطينيين إياهم كل الزمن الذي يطويه الباقي من سفر القضاة حتى إلى سفر صموئيل ذاته، إلى أن قام داود الذي حررهم بالتمام من سلطانهم. صحيح أن الفلسطينيين لا يظهرون أمامنا هنا بارزين وإنما نجد إيماءات إليهم كما في أمر شمعون، حيث رأينا عدواً على التخوم الغربية - بين كنعان ومصر - يهدد بالزحف إذا ما حانت لديه الفرصة المواتية. أما هنا فنجد الشعب يفتح صدره لكل أشكال الوثنية في انحرافهم عن الله؛ وكنتيجة حتمية نجد الفلسطينيين قد أمسكوا بالسلطة وقد دانت لهم كلقمة سائغة واستجابوا للنداء وهكذا تربعوا على مقاعد السلطان.

أما الذي نراه في يفتاح فهو نفوذ بني عمون الذين استوطنوا ضفة الأردن الشرقية، وعن

هؤلاء يدور حديثنا. عمون هو ابن لوط؛ ولقد تعلمنا في صفحات سالفة ما الذي يمثله موآب؛ فإذا عرفنا ما هي حقيقة عمون نجد تكراراً لدرس موآب مع بعض الفوارق. فموآب - على ما تذكر - كان موصولاً بإسرائيل بالطبيعة، وهي نفس صلة عمون. وأنت - فوراً - تجد نوعاً من التشابه الظاهري لحق الله؛ وفي عبارة أخرى نجد الاعتراف بالمباينة مع التناقض المطلق المكشوف.

موآب يمثل الاعتراف بالأجوف، في كل خوائه؛ في كل إغرائه في الجسد؛ فقد كانت له علاقة واضحة بعماليق، بشهوات الجسد. وفي عمون - كذلك - نجد الاعتراف الذي يدعى بقرابة إسرائيل، بنوع من هذه القرابة. غير أنه - على كل وجه - اعتراف، مجرد الاعتراف؛ ولو كان إلى جانبه فكرة أو فكرتان. فهو اعتراف لا صلة له كبيرة بإغراءات وانغماسات الجسد، وإنما هو اعتراف خاضع لسلطان حاكم كانت له حقوق الملكية في عمون. كان سيحون ملكاً للأموريين، وكان - عملياً - متسلطاً على بني عمون. ومع أنهم - بني عمون - استطاعوا أن يحتفظوا بذاتيتهم وكيانهم الطبيعي، بيد أن الذي كان يحكمهم هو هذا السيحون، ملك الأموريين. والأموريون هم الكلاميون كما تأملنا في فصل آخر: الذين يتشدقون بأقوال البطل الجوفاء؛ أقوال رخيصة خاوية. فهم من هذا الجانب يمثلون أنشطة الذهن البشري. ولنا في حشبون - عاصمة ملك سيحون - المفتاح لأخلاق الأموريين وطابعهم. حشبون معناها "جدل"؛ أي استعمال الذهن في أمور الله. نعم فالنقاش، الجدل، هو طريق العقل البشري إلى نور الله.

كذلك قد رأينا هذا - لا تنس - يوم كنا نتأمل في يابين ملك حاصور، ذاك العدو الشمالي. والتشابه كبير بين يابين وعمون؛ مع فارق واحد وهو أن يابين يمتاز بالهجوم الكافر العلني، ذاك الهجوم الذي يرفض اسم المسيحية ونيرها؛ لأن مصادر نفوذه تقع خارج صفحات الإعلان الإلهي ولو أنه - فيما بعد - يحاول أن يستخدم نقاشه في دائرة كلمة الله، كما وجدنا فيما يسمونه بالنقد الأعلى؛ أو يصوغ لاهوتياته ليجعل منها قاعدة وأساساً للمخاصمة التي قرأنا عنها هناك. أما في ما يتصل بعمون، فالذي نراه هو الهجوم الداخلي، هجوم الاعتراف. هناك اعتراف بالصفة المسيحية، ولكن لا مسيحية. بيد أن هذا الاعتراف يحتفظ بصلة القربى. ولو الظاهرية - بشعب الله، ومع ذلك يفسد إيمانهم. إشارة كما قلنا إلى استخدام الذهن في ما له صلة بالحق الإلهي، حيث يقيم أنظمة من الخطأ، أساسها التطبيق المغلوط لكلمة الله.

وآه لو كان في إمكاننا أن نتتبع تاريخ الخطأ، تاريخ البدعة والهرطقة بين شعب الله!

الهرطقة دخلت عن هذا الطريق: استخدام الحق الإلهي قاعدة للتسلل، ولإقامة ما هو شر وضلال. وهذا - في تصويري - الفارق بين حكم يابن وعمون. يابن أدخل الكفر أو الفلسفة من الخارج؛ وعمون تناول الحق وجعله يعلم الخطأ. إذًا هو لا ينكر الإعلان ولا يستبعده، بالضبط؛ إنما هو يقيم نظامًا من الخطأ، مستخدمًا تعبيرات كتابية، بل وربما تعاليم كتابية، بيد أنه ينتهي إلى لا كتابية. وتلك هي الهرطقة.

وأولئك منا الذين لهم دراية بتاريخ التعليم الزائف في الكنيسة، يذكرون كيف أن بعض أنواع الهرطقات؛ كالغنوسية مثلاً، التي طلع نباتها أول ما طلع في بكور تاريخ الكنيسة، انتشرت حتى كادت تطوي الكنيسة المعترفة بجملتها. فقد كانت الغنوسية مذهبًا من مذاهب الفلسفة، استغلت أسماء إلهية، وإلى حد ما استغلت الحق الإلهي؛ لكنها أبادت - مطلقًا - سلطة وتأثير الحق حين استخدمته بغير قوة الروح القدس ومعونته، أو بغير الخضوع لكلمة الله. ولقد حرّ في نفسي في يوم ما أن قومًا في العالم النصراني لا يزالون يؤمنون بالفلسفة الغنوسية، ويمارسون - في أوربا - تعاليمها، إلى حد ما. وهذا النظام واحد من عديد أشكال الهرطقة التي يوحى بها إلينا هذا الغزو العموني.

تلك كانت إلى الشرق من إسرائيل؛ أي أنها سليلة إسرائيل من جانبه الأرضي. وإنها لحقيقة حلوة أن الأرض ذاتها أكثر أمناً. في عبر الأردن موضع الأمن لو كنا هنا بالحق لا بمجرد الشكل. والاتحاد مع المسيح في موته وقيامته هو - من الناحية العملية - الوجود في المحل الأمن حيث لا تقسنا قوة الشر.

بيد أنها حالة لا توصف، هذه القوة للتعليم الزائف. وفي رأيي أنه لو تفتحت عيوننا اليوم على حالة النصرانية، لانزعجت نفوسنا لما نجده من سبل جانبية ملتوية اصطنعتها الهرطقة لتدخل إلى حق الله. اصطنعها العمونيون، شعب لهم الاسم المسيحي، ينطقون بلغة المسيحيين، يلوحون بالكتاب المقدس في أيديهم وهم يتكلمون. وإن ذكرت أمامك أخي أولئك السبتيين، وطائفة العلم المسيحي، وفجر الألف سنة، وغيرهم من الهرطقة أصحاب البدع المميتة المربعة، تقدر أن ترى أن العمونيين لا يزالون أحياء في يومنا هذا ونفوذهم مرعب قاتل؛ هو نفوذ إنسان يتناول حرفية كلمة الله، ويستخدمها لا لحساب المسيح بل لحساب الشيطان، ومع ذلك هو لا زال يدّعي بأنه مسيحي. فالذي يقع بيننا ليس هو الهجوم السافر من جانب الكفر من الخارج، فحسب، بل غزوات الاعتراف من الداخل، الاعتراف الذي يدّعي بملكية المقاطعات

والأرض القديمة، مقاطعات وأقاليم العمونيين، ليغتصبوها من الإيمان الذي مرة انتصر عليهم. وهذا النفوذ للتعليم الزائف يُغشّي الأرض كلها، الإقليم الشرقي برمته. الكل تحت رايته، في جلعاد وشرق الأردن؛ وفي الواقع هم قد دخلوا الأرض نفسها واقتحموا قلاع بنيامين ويهوذا وأفرايم؛ المنطقة ذاتها التي تشكّل قلب ميراث الله وحصنه القوي. وهكذا تغزو الهرطقة وتنتشر. وقد جاءت أوقات في تاريخ الكنيسة استطاعت هرطقة نظير بدعة الآريوسيين - تلك الهرطقة التي تنكر لاهوت المسيح - أن تضع فيها يدها على شعب الله المعترف، وبصورة كاملة بحيث قضى على كل شاهد للمسيح، حتى أثناسيوس نفسه، ذلك العملاق العظيم الذي اعترف وجاهر بالحق المتعلق بشخص ربنا، نفوه. والواقع أن الامبراطور قسطنطين نفسه كان أريوسياً، فسار في طريقه جماهير تبعته زعيماً. وهكذا ترى أن هذا النفوذ للتعليم الزائف يزحف بين شعب الله من خلال الاعتراف.

كان الظلم ساحقاً كاسحاً بحيث انتهى الأمر ببني إسرائيل، والحمد لله، أن يصرخوا معترفين بخطيتهم، معترفين بأن انحرافهم عن الله هو الذي أجاز عليهم ما يجوزونه. والواقع أنه لن يكون هنالك سلطان حقيقي على الهرطقة إلا إذا ابتدأ الاعتراف بطريقة تسلسل الهرطقة. لماذا يدخل التعليم الزائف بين شعب الله؟ لماذا يطوينا نفوذ الشر بهذه الطريقة؟ لو كان المسيح، يا أخي، يحتل في أذهاننا وقلوبنا المنزلة الجديرة به؛ لو سيطر في الكنيسة كما يجب، هل تظن أنه يصبح في مقدور الهرطقة أن تثبّت أقدامها على مرتفعات ميراث الله؟ مستحيل. ولكن حينما يبرد القلب، حينما ترتخي أعصاب سهرنا ويقظتنا نحن شعب الله، يجد مجرد الاعتراف فرصته المواتية، وتأخذ التعاليم الشريرة في الاقتحام. وأكرر مرة أخرى أنه كان يزعجنا كثيراً لو تحققنا اليوم كيف انتشر هذا النوع من الشر في الكنيسة اليوم. فهذا نراه يسيطر على كثير من الكنائس الصحيحة العقيدة التي كانت في ما سلف خير شاهد لحق الله. وإنك لترى بينهم اليوم هرطقات مزعجة شنيعة مثل الفنايين (الذين يعلمون بفناء الأشرار في النهاية)، والرجوعيين (الذين ينادون بخلاص الجميع في النهاية)، ومن ينكرون لاهوت المسيح والتعاليم الكتابية الأخرى. التفكير فيها خطير أليم.

هناك اعتراف بالشر، لكن الله أمين؛ وهو سيعلمهم - ولا بد - أن الانحراف عنه شيء، وشيء آخر أن يرجعوا. أن يبتعدوا عنه: شيء؛ أن يعترفوا بقوة العدو: شيء؛ بيد أن مجرد الاعتراف لن يؤثر في الانحراف عن الله، لن يبطل أثره. فقد يعاودني قدر من الإحساس

بخطيتي على أثر رجوعي من بعد مرحلة طويلة من التأديب. وقد اعترف أمام الله اعترافاً صادقاً قلبياً. ولكن هل معنى هذا أنني أسترد فوراً كل ما خسرت؟ كلا. لقد شربنا ماءً بسطت على سطحه ذرات العجل الذهبي المسحوق؛ حصداً ما زرعنا؛ وهذا ما وجده إسرائيل، وكان شديد الضغط عليهم. وفي تهكم خطير يقول لهم الله «امضوا واصرخوا إلى الآلهة التي اخترتموها، لتخلصكم في زمان ضيقكم».

لكن النتيجة مباركة. لقد عادوا. الشقاوة التي غشيتهم وخنقتهم حملتهم على التحول عن العدو الذي استعبدهم. شقاوتهم ذاتها دفعتهم للاعتراف في نفس الوقت الذي وصلت فيه قوة العدو إلى أقصى ذروتها. اضطروا أن يعترفوا بخطيتهم، فألقوا بالنير، وأزالوا من وسطهم الآلهة الغربية وعبدوا الرب. اعترفوا أمام الله اعترافاً صادقاً وطرحوا أنفسهم بين يديه «أخطأنا فافعل بنا كل ما يحسن في عينيك. إنما أنقذنا هذا اليوم». ويا لعطف إلهنا، يا لرقة عواطفه؛ لا يسعه أن يرى شقاوة شعبه ولا يتحرك، ولو كانت الخطية مبعث الشقاوة: «فضاقت نفسه بسبب مشقة إسرائيل». وحيث التوبة الصادقة، لن يترك إلهنا المبارك شعبه بغير قدر من الخلاص: في القليل.

وهذا يقربنا إلى الشخص الذي سيخلص الشعب من هذه الهرطقة، هذا الكابوس المخيف، كابوس التعليم الزائف الذي جثم وكنم على أنفاسهم من خلال الاعتراف الأجوف. ومن هو الشخص الكفو؟ من الوهلة الأولى تعود الذاكرة بنا إلى تولع. فالمخلص، هنا، شخص مردول محتقر؛ لكنه هو مجري الخلاص. فإنني أعتقد أننا - مع كثير من التحفظات والإضافات - نجد في بعض أحداث حياة يفتاح ما يشير إلى ربنا المبارك. فقد طرده إخوته، قطعوا كل علاقة به؛ رفضوه كزالة في أعينهم؛ وإذا نظروا إليه، لم يجدوا جمالاً فيشتبهونه. فمن هذه الزاوية يذكرنا يفتاح بذاك الذي رذله إخوته ورفضوه؛ كيوسف في يومه الذي حين أقبل على إخوته ورفضوه وطرحوه؛ وكداود - في أيام تالية - وهو ماضٍ في بعثة المحبة إلى إخوته في المحلة، وعلى مرأى من العدو احتقروه وصغروا من قدره. هكذا يفتاح: رفضه إخوته، فلم يسعه إلا أن يهجر موطنه. وفي أرض بعيدة، معنة في البعد، جمع من حوله رجالاً على شاكلته محتقرين، رفاقاً بطالين، كرفاق داود في مغارة عدلّام. قلت إن لنا في حياة يفتاح ما يشير - مجرد إشارة - إلى سيدنا. وأشدّد على هذه الكلمة - أشير - وفي تردد كثير. فلقد كان رفض إخوته إياه - أقصد يفتاح - راجعاً وقائماً على أسباب أدبية: ذلك أنه كان «ابن امرأة زانية»؛ الأمر

الذي يجعلنا ننفر من ربط يفتاح بابن الله المنزه عن كل عيب. وإذ نحفظ هذا في بالنا، فإن هذا الرفض يشير إلى ذاك الذي انفصل عن إخوته.

إذًا، فالمخلص الوحيد لشعب الله، الذي ينقذهم من سلطان الشر والتعليم الشرير، هو نفسه مرفوض من إخوته. هي إذًا إشارة إلى المسيح كمن يقدر أن يُخلَّص. وإذ ننظر إلى يفتاح في شخصيته، نجد أن ما يعنيه اسمه على غاية من الأهمية. كيف لي أن أتحرر من التعليم الزائف؟ اسم هذا الرجل معناه "الفتاح - أو الفتاح" الذي يفتح لنا كلمة الله. وإذ تُفتح لنا كلمة الله باعتبارها الحق، نستنير بها. فتفتح قلوبنا لفعل مؤثراتها. وتفتح عيوننا لكي ترى عجائب من شريعة الله. وهكذا حين يوجد فتح للكلمة، يهرب الخطأ ويولي الأدبار.

ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد شيئًا من التفصيلات أو أساليب الكفاح فيما يتصل بعمون. فعوض أساليب الصراع، هناك أصحاب من الكتاب مفتوح أمام الشعب. لكأنني يفتاح يذهب إليهم ليتلو على مسامعهم فصلاً من الكتاب. يقدم لهم تاريخ طرق الله، وكيف سحق الله سيحون ملك الأموريين، وأدخل شعبه في الميراث الذي ادعاه العمونيون لأنفسهم. حيث تمتعوا به ثلاث مئة سنة بلا منازع. وفي خلال هذه المدة اضطر عمون للاعتراف بحقوق بني إسرائيل بوصفهم أخذوا الميراث من يدي الله. فتح لهم يفتاح الكتاب، وبذلك أخذ عليهم حجة.

وهذا ما يلزم عند مواجهة التعليم الزائف. يلزمنا فتاح، يلزمنا روح الإيمان الذي يتناول كتابنا ويفتح لنا الحق في وجه أي تعليم زائف، مهما تكن مسمياته وأوصافه. وإنها حقيقة مباركة أنه سواء كان الهرطوقي يمسك الكتاب المقدس بين يديه أو لا يمسك فإن كلمة الله يمكن أن أستخدمها ضده إذا كنت فتاحًا. إن فتح روح الله قلبي لحقه، ففي مقدوري أن أتصدى لصاحب التعليم الخبيث مهما يكن اعترافه، وأحطمه بقوة الكلمة.

يكفي ما قلناه بهذا الشأن، فهو كثير. ففي يفتاح، في مطلع تاريخه بضعة أمور تنبئ من أسف عن إخفاقه، فهناك إخفاق حتى في هذا الرجل الذي كان يعمل لله. لقد قطع مع الشعب عهدًا أنه إن خلصهم يكن لهم رأسًا. جميل - أتكلم روحياً - أن تسيطر كلمة الله على شعبه؛ جميل بهم أن يقطعوا عهدًا أن يكونوا لكلمة الله خاضعين. بيد أن هناك ما هو أكثر من ذلك. فإذ نضع في بالنا أن أبيمالك كان يرنو إلى الرياسة، حتى بذل كل جهد في سبيل الوصول إلى العرش، نجد هنا بعض آثار تلك الروح في يفتاح الذي يفضل أبيمالك بالقدر الكثير. فبينما

تخلو حياة أبيمالك من كل روحانية، نجد يفتاح رجلاً ثابتاً لله. لكنه سيكون رأساً، وسيفوز بالاعتراف بهذه الرئاسة. كان يحز في نفسه رفضه السابق؛ لم يتناول أمر هذا الرفض باعتباره من الله، بل كنوع من المعاملة الشريرة القاسية. ومن هنا نراه يذكر قومه بأنهم يوماً رفضوه؛ فإذا ما شاءوا أن يؤدي لهم خدمة، فليعترفوا به ويمنحوه المنزلة الرفيعة. وفي هذا المطلب للرئاسة نرى يا أخي بعضاً من المصادر التي انتهت إلى إخفاقه الأليم فيما بعد.

التقى بني عمون، جمع الشعب معاً ومضى لملاقاة العمونيين على أساس حق الله. وببساطة - كما قلت قبلاً - فتح حجة تملكه لذلك القسم من الميراث، مبيثاً لهم كيف وضعه الله بين أيديهم، وكيف أنهم - برغم كل مقاومة سيحون وعوج - وضعوا اليد على الميراث؛ ثم أخذ يحمل عليهم في وجوهم، مثبتاً حق الله في ذلك الميراث. يقول «أليس ما يملكك إياه كموش إلهك تملك؟» هو يعبر العمونيين في وجوهم، وكأنه ألقى القفاز؛ وفي المصارعة حصل على النصر الكاملة؛ النصر على قوة الشر.

نُصرة على الهرطقة، نُصرة لنا. عدة الفوز بها كتاب مفتوح، قلب مفتوح، وضمير مفتوح. وأول ما علينا أن نفعله هو أن نرسم خط انفصال بين ذاتنا والتعليم الزائف. ومن هنا استحالة التحالف مع أصحاب التعليم الزائف. قد نتسامح مع الجهل؛ قد نتسامح مع الإخفاق في إدراك آفاق الحق الإلهي كاملة. فهذا أخ لنا قد يجهل حقائق النبوءة؛ قد يجهل كل مفهوم الفداء، في كل نتائجه المباركة؛ بيد أنني أستطيع أن أعيش في صبر مع أخ لا عيب فيه إلا أنه جاهل.

ولكن هب إنساناً يرتاب في لاهوت ابن الله: هل مع هذا أسير؟ هب إنساناً يأتي إليك، منكراً ناسوت ربنا المبارك وتجسده، قائلاً إنه - له المجد - كان إنساناً في الأزل: هل تراك تعایش - ولو لحظة - إنساناً مثله؟ ألا أفتح كتابي وأقول له: هذه الأمور لنا ولن نستطيع أن نعطيك إياها لحظة واحدة. إذا أنكر إنسان قيمة عمل المسيح الكفاري، أو حقاً آخر مما يمس أسس إيماننا الأقدس، فإن السير معه لحظة، والاذعان له بالخضوع ولو إلى ساعة، خيانة منا للمسيح الذي اشترانا. شيء واحد نفعله يا أخي عند مواجهة التعليم الزائف. أن نفعل مثلما فعل يفتاح: أن نواجه الموقف بكلمة الله، فننكر التحدي الكافر وكل قوته. وهكذا استطاع يفتاح أن يكسب النُصرة لشعبه ولله، فيبقى لهم - وتحت سلطانهم - الميراث عينه الذي كان ملكاً لهم سنوات طويلاً.

ثم نأتي إلى دليل إخفاق يفتاح، مما يثير مشكلة هامة. هذا الدليل نراه في أصحاب

٣٤:١١. كان قد نذر للرب نذرًا أنه إن دفع ليده بني عمون فالخارج الذي يخرج من بيته يقدمه للرب محرقة؛ يكون للرب. وهذا ما عمله يفتاح بابنته. ولا يسعني أن أعترف أنني - بكل الذي قرأته عن هذا الموضوع - لم أستطع أن أحرر فكري من هذه الحقيقة وهي أن يفتاح فعل ما يعتقد كل شخص بسيط يقرأ الفصل أنه فعله. ولم أستطع أن أعتقد أن رجلاً صلباً، معترّفاً بیره الشخصي وباستقلاله الفكري، شخصاً في تركيب يفتاح، الذي في ضمير صالح قطع رقاب اثنين وأربعين ألفاً من رفاقه الإسرائيليين عند مخاض الأردن؛ يكون من رقة القلب بحيث لا يفعل ما قرر أن يفعله بابنته: أن يقدمها محرقة للرب.

والناس في العادة يبررون تصرف يفتاح بأنه كرّس ابنته للبتولة الدائمة. ومهما تكن أقوال الآخرين ففي اعتقادي أن أخلاق يفتاح كانت بحيث كان في مقدوره أن ينفذ ويتم نذرًا كهذا. يقول الناس إنه كان ملماً بالكتاب المقدس إماماً جيداً. حسناً، إذاً فهو عرف حادثة إبراهيم وابنه إسحاق. وفي الواقع ما أيسر على الضمير المضطرب أن يسيء استخدام أمر الله لإبراهيم، وينسى أن الله أمسك يد إبراهيم حتى لم يعمل ما كان الرب قد أخبره به ليعمله. بيد أن الضمير السوداوي والتمسك بیره الذاتي، الشخص الذي كان على المدى الطويل يحس بمرارة السخريّة التي كان يظهرها إخوته، الشخص الذي كان مشغولاً بذاته، ويدور حول نفسه: لم يكن أسمى من أن يحتضن فكرة خاطئة كذلك.

وإنه لشيء أليم أن أولئك الذين تتجلى أمانتهم التامة في كسر شوكة الهرطقة، يخفقون غالباً في التفريق بين سحق الهرطقة الحقيقية، وبين إبادة أقرب الناس وأعزهم. ونتعلم من التاريخ ومن واقع الاختبار أن الثبات مع العدو في إصرار عنيد، يعقبه أحياناً ثبات في إصرار عنيد مع إخوتنا: وبنفس الدرجة. أليس صحيحاً يا أخي أن تقديم يفتاح ابنة حضنه، تبعه ذبح إخوته؟ أليس صحيحاً أن الرجل أوصل الكل إلى مستوى الموتى؟ لقد استل سيفه، وكما أنه ذبح العمونيين، كان على استعداد أن يذبح ابنته إذ وعد الله بذلك. وكما ذبح ابنته استطاع أن يستولى على مخاض الأردن ويذبح الأفرايمين. ألم يتصدوا لحق الله بدرجة ما؟ وهكذا أنت ترى أن صرامة الرجل وقسوته حملته إلى ما وراء الأمانة لله، إلى إبادة إخوته. وهل تراني يا أخي بحاجة لتفسير هذا وتعليله؟ بحاجة للكلام عن تلك الروح التي لا تعرف أن تميز، وتفرّق؟ الروح التي - على حد قول رسالة يهوذا - لا تميز البعض، لتخليصهم بالخوف؟ ألم نخبر الكثير من هذه الروح التي تعامل شعب الله بنفس معاملة أعداء الله؟!

ويبدو لي أنه من هنا بدأت طلائع إخفاق يفتاح. إن اقتباس كلمة الله اقتباسًا جامدًا متسرعًا هو الذي لا يميز ولا يفرق. فهناك مؤمنًا يحب المسيح، مليئًا قلبه بالحب له، وشهوة قلبه إرضاءه؛ هل أعامل مثل هذا القديس نفس المعاملة التي أكيل بها لمعلم مجدّف، يجيء بكل أنواع التعاليم الزائفة عن شخص الرب؟ هل نساوي الأفرايميين بالعمونيين؟ وهل بمثل القضاة الواحد، الحكم عينه، نلاقي الفريقين؟ كلا يا أخي. بل ينبغي أن نذكر أن الأفرايمي - حتى لو كان مخدوعًا؛ حتى ولو فعل ما فعله الآن، وعيّر الجلعادين بأنهم منفلتو أفرايم؛ حتى لو دفعته الغيرة واشتكى من أن جلعاد حصلت على نصرة هي من حق أفرايم؛ هو مع ذلك رفيق إسرائيلي وأخ.

قد أستطيع أن أعالج أفرايم، ويجب أن أعالجه؛ لكنه شيء آخر أن أستولي على مخاوض الأردن وأجبر كل من يعبر تلك المخاوض على أن يقول هذا الكلام أو ذاك. أن أرغمه على أن يقول شبولت، فإذا لم ينطق الكلمة صحيحة أقطعه. إن شبولت معناها الطوفان الذي يقسم ويفصل. فإذا لم يستطع الأفرايمي أن ينطق بما يقسم نطقًا صحيحًا، فمن الجنون أن أعامله بحد السيف: أمانة انقلبت إلى جنون؛ لم تعد بعد أمانة، بل انتهت إلى إبادة. وكما وجدنا في أبيمالك إخفاق السيادة البشرية في ما تسعى إلى تعظيم الذات، كذلك نجد في يفتاح نفس الإخفاق حينما يكون الضمير تحت سطوة الروح الناموسية. هي جفوة وصرامة لا ذرة من النور فيها لتخفيف وطأتها. هي دعوة من فم ناسك مترهد. وإذا هي نزعة تاعسة بذاتها، فهي تعمل على إشاعة التعاسة في كل محيطها. ويزداد الأمر حزنًا عندما تمسك الكتاب، تفتح الكتاب المقدس بمقتضاه نفذت القضاء على الهراطقة، وتطبقه بالمثل على من لا يوافقونها في الرأي.

وهنا - كذلك - يطالعنا تاريخ الكنيسة بما يشبه تصرف يفتاح. فإنني على ثقة أننا ونحن نندد بإضطهادات روما الكاثوليكية لشعب الله، شاعرين بالرعب منها، لكن هذا لا يجب أن ينسينا الاضطهادات البروتستانتية لشعب الله. لا يجب أن ننسى تلك القوانين الجامدة الصارمة التي لوّح بها من هربوا إلى بلادنا الأمريكية طلبًا للحرية الدينية، أولئك الذين كانوا يطلبون حرية الضمير لعبادة الله؛ ومع ذلك اشترعوا قوانين من هذا الطراز مؤداها إبعاد أفضل من لجأ إلينا من المستعمرات، من أمثال روجر وليامز وغيره؛ إبعادهم إلى الجزر الهندية. كلها أشياء مثيرة وذات دلالات خطيرة. نتبين منها أننا إذا عزمنا على ممارسة السيادة نيابة عن الله، فذلك هو النصف من الفكر الكتابي، وهو أكثر من مجرد ضمير يفعل الشيء لأنه غير مقبول.

وقد بدا لي أن يفتاح كان يظن أن الله يريد أن يفعل ما لم يكن مقبولاً من نفس يفتاح

ذاته، فقط لأنه كان عملاً غير محبوب. وهذا هو السبب في التضحية بابنته، أو طردها من بيته. فالمبدأ واحد؛ وإذ تذوق طعم الدم مرة فإن دماء اثنين وأربعين ألقا من إخوته لم تطفئ الظمأ للدم. أو ليس خطيراً، أو ليست حقيقة، أن أولئك - في تاريخ الكنيسة - الذين تصدوا للهرطقة وكسر شوكتها، هم أنفسهم الذين أشهروا سيوفهم في وجوه إخوتهم، واصطرعوا معاً - بحد السكين - على أمور لم تكن من مسائل الحق الجوهرية؟ ونحن في بالنا كيف أن لوثر الذي أنقذ شعب الله من أهوال روما وهرطقاتها، يتحول ويخاصم إخوته فيما يتعلق بوجود الرب فعلاً في مواد العشاء، بحيث لم يتنازل في نقطة واحدة تحت أي اعتبار. ولنطبق يا أخي هذه الأمور على يومنا الحاضر، فإذا شئنا أن نفعل خيراً مما فعل يفتاح فلنحذر هذه الحساسية الخائفة التي هي ليست - في الواقع - سوى تعبير عن نفس لا تزال مقيدة بقيود الناموسية؛ حساسية تحاول أن تضع على أعناق شعب الله ما ليس من الامتحان الإلهي في شيء، وإنما هو يقسم شعب الله بعضهم عن بعض، دون أن يفصلهم، عن أعدائهم.

ولنعد لحظة إلى مذبحه رجال أفرايم. فيها تتجلى المباينة مع تصرف جدعون في ظروف متشابهة بالتمام. صحيح أنه في هذه المرة الأخيرة كان الاستفزاز والتحدي أعظم؛ ولكن الاختلاف واضح في الروح التي قوبل بها المسلك الخاطئ. فإن جدعون، في كل تواضعه واتضاعه، لم يعترف بمعارضيه كإخوته فحسب، بل قال إن رجال أفرايم خير منه شخصياً. «وماذا قدرت أن أعمل نظيركم؟». لم يسع إلى الرياسة، لم يساوم عليها. ولم يكن له ما يعيرونه به. كان فيه قدر كبير وفير من نكران الذات، لا ذلك النوع من التضحية بالذات تحت الإحساس الخادع بما يرضي الله.

هل يساورنا الشك في أن يفتاح لو تصرف بمثل هذه الروح لوجد من الوسائل القدر الكافي لتقويم رجال أفرايم، غير أسلوب المذبح الشاملة؟ أنا لا أدافع عن عدم المبالاة أو الضعف. بل يجب أن يكون هناك تمييز. ومن هنا أخفق يفتاح؛ ولعله لا يفوتنا أنها لم تكن غيرة منه للرب، وإنما هو كان يثار لإهانة شخصية. فلأن أفرايم عامل رجال جلعاد معاملة سيئة، هددوهم وأهانوهم، فقد حمى غضبهم عليهم.

وإذ نعود إلى أفرايم يؤسفنا ألا نجد سوى ثمار الكبرياء الغير المحكوم عليها، كانت قد أزهرت من قبل، بيد أنها لم تقل، بقيت في فوها. هي كبرياء المركز الأدبي التي تسعى وراء المنزلة والكرامة. قد تستند على ركيزة من تاريخ ماضي، أو منجزات حاضرة أو هدايا ومواهب،

أساساً لرفعتهما: بيد أنها كبرياء، وإرادة ذاتية.

ولا بد من كسر الشوكة؛ الله لا يحتمل الكبرياء؛ لا يتسامح معها؛ فإن لم نحكم عليها، فإنها تتلف كل شهادة لله أمينة. قد يصابرننا تعالى - كما في أمر جدعون - لكن عنده دروساً لنا نتعلمها من صرامة يفتاح. فلو أن أفرايم تعلموا هذه الدروس، لاستحال انقسام المملكة في عهد رحبعام. إذاً فعلى الجانيين دروس.

وحتى لا نبطئ أو نتوقف طويلاً عند هذه النقطة، أقول بأن الجزء الأخير من الأصحاح الثاني عشر يحمل - في ما أعتقد - العلاج لهذه الحالة الناعسة: مباينة مع إخفاق يفتاح. هناك تجد الخلفاء؛ وكما قلت من قبل: إن الوصف والحديث الموجز عنهم يجعلنا نتوقع ما يؤكد الجانب الإلهي، دون جانب الإنسان. بعد موت يفتاح قضى لإسرائيل أبصان من بيت لحم. وترجمة اسمه "طهارة": اشتقاقاً من كلمة معناه "بييض - يصير أبيض". هنا علاج الطرق التي كان يمارسها يفتاح: أن تكون هناك طهارة. والحكمة النازلة من فوق هي أولاً طهارة، ثم مسالمة. قد يحملك الظن أنني في حديثي عن طرق يفتاح قد نسيت ضرورة الأمانة بين شعب الله. غير أنني لم أنسها، وأريد الآن أن أقدم الجانب الآخر من الفصل الكتابي الذي يعرضها. إن طرق يفتاح يجب أن تنال ما تستحقه من نقد وتشهير. فلا يجب أبداً أن نستولي على مخاض الأردن، ونذبح إخوتنا غير مميزين. قد تقول لي: "إذاً فلنلق عنا كل جدل حول الأشياء وخصوصة، لا نجفل بما يعتقد إخوتنا ويسلمون به، ولا كيف يفعلون، ولا كيف هم يخضعون لله. لنفتح أذرعنا ونرحب بهم ونحتضنهم".

كلاً؛ هذه غلطة على الجانب الآخر. فإن الحكمة النازلة من فوق هي أولاً طهارة، ولن يكون سلام بدون طهارة. ضحّ بأحدهما، تضحّ بالكل.

أنت تلاحظ أن هذا القاضي - على النقيض من يفتاح - كان له ثلاثون ولداً، وثلاثون ابنة. ومرة أخرى تجد في هذا ما يشير إلى زيادة ما لله. فهنا قاضي، عوض أن يقتل إخوته ويضحي بابنته؛ عوض أن يضع حداً لأمل في نمو المبادئ التي يدافع عنها، فإنه يجمع، وبذلك يضاعف أسرته. هو بذلك يقدر أن يواصل في قياس متزايد المبادئ التي يدافع عنها، وهي مبادئ الطهارة. أنت لا تقرأ عن حكم هذا القاضي شيئاً سوى ذلك. ولكن ثق أنه حيث يكون للطهارة المكان الأول، فإن كبرياء أفرايم يمكن علاجها بطريقة ما. فلا يسمح لها أن تصل إلى رأس

وتنتج انقسامًا بين شعب الله، بيد أنها لا يمكن علاجها بغير مبالاة.

وجاء بعده إيلون الزبولوني الذي قضى لإسرائيل عشر سنين؛ ولا شيء يسجله الوحي سوى أنه قضى لهم. وزبولون هو السبط الذي يتكلم عن الثبات في الشركة مع الله. أما إيلون "القوي" فبرينا كيف أنه بعد الطهارة تجيء القوة، وهكذا يجيء النجاح والرفاهية.

إن سياسة شعب الله لا بد أن تتوفر فيها القوة؛ ومن الجنون المطبق أن نتجاهل هذه الضرورة. وإنه لشر مستطير أن ندافع عن عدم المبالاة أو عدم الأمانة لمبادئ الحق الإلهي. وترتيب بيت الله لا بد أن ينفذ بيد ثابتة. أما عدم الاكتراث فإنه فكرة لا يصح التفكير فيها. إن سمحنا بعدم المبالاة، إن أجزناه، قل على الشهادة للمسيح العفاء.

ولا عبرة بالعدد. فإن أخفقنا في الخضوع لسلطان المسيح خشية أن نخسر بضعة أشخاص أو لا نريح أشخاصًا، فنحن إذاً لسنا عاملين بحسب الطهارة الإلهية وفي القوة الإلهية. والواقع إنها مسؤولية خطيرة، مسؤولية أولئك الذين يعملون على إضعاف أيدي من يجتهدون في الاحتفاظ بترتيب الله وصونه.

ولنأخذ مثلاً. الحاجة ماسة جداً للاهتمام الراعوي والملاحظة بين قديسي الله. وحذار من التساهل في تقويم من يعوزهم الترتيب الإلهي «ونطلب إليكم أيها الإخوة: أنذروا الذين بلا ترتيب. شجعوا صغار النفوس. اسندوا الضعفاء. تأنوا على الجميع» (١ تس ٥: ١٤). وفي هذا القول أساس للاهتمام الراعوي القوي الثابت المقترن بالمحبة. فهل يدهشنا إذاً أن نرى الشر الغير المقضي عليه، ينتشر ويغشو حتى يكون من اللازم معالجته بأكثر شدة، مما لو توفرت الأمانة في البداية؟

أو خذ حالة أخرى: لا يمكن أن توجد سياسة قوية حازمة في بيت الله حيث لا تبذل عناية كبيرة في القبول للشركة مع شعب الله. فالضعف في هذا المجال، ضعف في كل المجالات. صحيح أن كل شيء يجب أن يتم في المحبة، بيد أن الكل يجب أن يكون بحسب الحق. ولذلك لا يدهشنا ما نراه من انفجار بين وقت وآخر مرده إلى عدم المبالاة في اتخاذ الحيلة من بادئ الأمر؛ العناية بالقبول، والاهتمام الراعوي الأمين. فليتنا نتعلم من الماضي دروسًا للمستقبل، إن شاء الرب وتأنى.

والقاضي الأخير المذكور في هذه المناسبة هو عبدون بن هليل الفرعتوني؛ وترجمة الاسم

"عبودية ابن التهليل"؛ أي عبادة ابن الحمد: العبادة أو الخدمة النابعة من قلب عامر بالحمد. كان صاحبنا يقيم في موضع يحدثنا عن الفداء والخلاص. هو ليس يفتاح؛ هو ليس شخصاً لم يكن له سوى قانون واحد يقيس به الشعب؛ فإن لم يصلوا إلى مستواه يقطعهم. لكنه شخص يمتاز بروح الخدمة التي كنا نتحدث عنها، وهو روح التدبير والرعاية الوحيدة، روح الخدمة المحبة الصادرة من قلب مملوء بالحمد والتسبيح. وحيث تتوفر هذه الروح؛ حيث يفيض شعب الله بالتسبيح، ساكنين في بيته، أبداً يسبحونه، فهناك خدمة الإخوة، وهناك سياسة بيت الله التي ينبغي أن تصان لا بالعنف بل بقوة الطهارة وسلطانها. فلنضع في بالنا إذاً هذه الأمور التي هي المقابل العكسي لصرامة يفتاح وخشونته. لكن المقابل العكسي للخشونة ليس هو عدم المبالاة. فليتنا نضع في نفوسنا هذا: إن رد الفعل للخشونة هو هذا المميز الثلاثي: الطهارة والقوة والخدمة. فلنمسك يا أخي بطهارة ونقاوة حق الله؛ لنكن ثابتين راسخين حينما يتعرض حقه للخطر، ففي خدمة التسبيح - بقلب عامر بالحمد - سنجد أنه ليس من الحتمي أن تكون يفتاحاً من اليفتاحيين حتى يتسنى لك أن تثبت إلى جانب الله. آه كم يعوزنا سلاح البر لليمين واليسار؛ فنكون في حماية من الأخطار الكثيرة، في أي اتجاه. وليت الرب، يا أخي، يشدّد هذا الدرس في نفوسنا، الدرس الذي أعتقد أنه يعوزنا كما يعوز الآخرين.

الأصحاح الثالث عشر

شمشون و الفلسطينيين: الانتذار

آخر هذه السير، هي أخطر سيرة في سفر القضاة جميعه. هو تاريخ وسجل للحياة، مألوف لدينا منذ الصبوة، تاريخ شمشون والحيل المدهشة التي أظهرها. والأطفال - في اعتقادي - يرونها حيلاً تتفتق عن شجاعة شخصية، لا تصرفاً جماعياً من طرف فريق من الشعب. ومنذ البداية ظهر لي أن هذا هو الطابع الذي تتسم به كل أعمال الله بواسطة شمشون. فكلها عبارة عن نشاط فردي، وليس ثمرة لنشاط جماعي.

ولو وضعنا في بالنا أن السفر الذي نتناوله يطالعنا بقصة وقصة عن كيف يحتفظ شعب الله بشهادة جماعية، أو كيف أخفقوا فيها؛ ولو ذكرنا أن سيرة شمشون هي آخر سجل لمحاولة العمل الحقيقي، وأن هذا العمل أنجزه فرد واحد وليس جماعة شعب الله: إذاً لوجدنا أن ما نقرؤه إنما هو تفسير حزين لانحلال وانحطاط قوة الشعب الروحية. فقد انحطت الأمور جميعاً. بهذا الجزء قد وصلنا إلى آخر الإنقاذات، إذ أن سفر القضاة لم يتحدث بعد شمشون عن خلاص آخر. وحين أقول: إنقاذات، ينبغي أن أصحح نفسي فوراً، فإنها لم تكن قط إنقاذات حقيقية فعلية. ذلك بأن شمشون نفسه كان يعوزه المخلص، المنقذ، لأنه غلب على أمره. بل إنه مات بين يدي العدو.

وهكذا تميل الأمور، وتزداد ميلاً، حتى ينتهي الأمر بالمخلص الذي أقامه الله أن يكون هو نفسه بحاجة إلى مَنْ يخلصه. وتلك هي الأدوات التي كان يريد الله أن يستخدمها لمعونة

شعبه؛ وتلك من أسف هي حالة شعبه - بوجه عام - التي أفسحت المجال لمثل هذا الوضع؛ فلو لم يكن إسرائيل في مثل تلك الحال، لما كُتِب تاريخ شمشون بالطريقة التي كُتِب بها. ذلك أنه كان انعكاسًا ومثلاً على الأمة بأسرها.

أتكلم بهذا كتمهيد ومقدمة لقصة شمشون. لقد انتهت الأمانة القومية، وأنت بالكاد لا ترى إلا ما هو شخصي. وأن تتدهور شهادة الأمة، ولا يبقى إلا ما هو فردي فهذا دليل الاخفاق. قد تسمع قومًا يقولون: "هو يوم الشهادة الفردية حتى من حيث المبادئ المتصلة بشعب الله في مجموعته". وما معنى الشهادة الفردية حين تكون المسألة مسألة شهادة جماعية؟ معناها الخراب؛ معناها تحطيم ما قصد الله أن يبقى مصونًا متماسكًا. وكيف لي كفرد أن أحتفظ بما ينبغي أن يكون حثًا لشعب الله كمجموع؟ إنني أضحي بحق الله إن كنت أتخلي عن الشهادة الجماعية. فبنعمة الله لن نتخلي يا أخي عن إحساسنا بمسئولية الاحتفاظ بالشهادة المتحدة. فلنمسك بهذا حتى ولو حاول الشيطان أن يحطمه، إلى أن لا يبقى أكثر من اثنين أو ثلاثة يتمسكون بالشهادة الجماعية لله. واعلم يا صديقي أن هذه الموضوعات هي أشدها خطورة، أشد الموضوعات التي تواجهنا. وفي نهاية تاريخ هذه الإنقذات يؤسفنا أن نرى كيف تتأرجح وتضعف بين يدي رجل واحد.

لكن لنأخذ الحوادث في ترتيبها، مبتدئين بافتتاحية أصحابنا هذا الثالث عشر، ونواصل الدراسة حتى السادس عشر لنبين مختلف الخطوات ونتعلم الدروس التي توجيها جهد الطاقة. هي القصة المحزنة ذاتها التي طالما وجدناها: قصة الإخفاق والخطية من جانب الشعب، وكنتيجة حتمية، بيع الشعب لأيدي أعدائهم؛ فإن الله لا يسمح للعدو أن يغلبنا على أمرنا، إلا أن يكون ذلك نتيجة قضائية لإخفاقنا. لا يسمح لنا أن نقع تحت سلطان الشر ما لم تبدأ النفس في الانحراف عنه. فإن أضعف وأبسط مؤمن يبقى مصونًا من مكاييد العدو وسطوته طالما كان قلبه مخلصًا للمسيح وفيًا؛ طالما كان مخلصًا وأمينًا، مفتوح الضمير لإنارة كلمة الله وروحه.

شيء مبارك هذا يا أخي وحافل بالتشجيع والتعزية. إذ ماذا عسانا نفعل - أنا وأنت - في مواجهة الشيطان الذي يسره كثيرًا أن نستهيئ بسلطانه وقوته؟ فإنه يحب أن يجعل نفسه غير ذي أهمية على الإطلاق لكي لا نفكر فيه إلا قليلًا. بل إنه ليتمنى أن يحو ذاته من أذهاننا. وتلك خدعة ذلك الكذاب الذي يزيد في نشاطه بقدر ما يقل تفكيرنا بشأنه. خذ في

بالك يا أخي قوة الشيطان وحكمته أو بالحرى مكره ومكايدته؛ ماذا في حوزتنا أن نفعل إزاء قوة كهذه، لو أننا تُركنا في الصراع لشأننا؟

ماذا عسانا نفعل إزاء هذا التيار الجارف، تيار الروح العالمية والديانة الجسدية الذي يحاول أن يجرف شعب الله ويلقي به في المحيط الهادر، بعيداً عن الله؟ وكيف نستطيع أن نقاوم هذا التيار لحظة؟ لكنها تعزية كبيرة أن أضعف قديس، أصغر أولاد الله عمراً، مصون محفوظ من هذا جميعه طالما كانت هناك بساطة الشركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. وقيئاً، إنه طالما أقامت النفس عند قدمي يسوع في هدوء وبساطه تشبهاً بمرم، وأزيد هنا أن الإقامة الدائمة عند قدمي يسوع لا يمكن حسابانها إقامة بدون الاستماع إلى كلامه، بدون النمو الذي تفترضه؛ طالما أقام أولاد الله في هدوء عند قدمي يسوع سامعين كلامه، فلن تستطيع كل قوة الشيطان ومكايدته وخبثه أن تنجح في تحويلهم بعيداً عن الله.

بيد أن هذا يضاعف من ذنب كنيسة المسيح اليوم. فإذا نجول بأبصارنا من حولنا - بل إذ نجول بأبصارنا في محيطنا نحن - ونرى التعرض للانحراف، والسلطة الماكرة التي يمارسها العدو على شعب الله؛ ونرى حالة كنيسة المسيح في مجموعها: فإننا في هذا الذي نشاهده جميعاً تفسير للعوامل التي أدت إلى هذه الحالة. وينبغي أن نذكر أنها - كلها، على وجه الإطلاق - غلطة شعب الله، وليست غلطة نعمة الله وقوته المقتدرة. فقد طالما كانت أشواق إلهنا الكريم أن يمسك بنا، يحمينا، يحفظنا كحديقة عينه، لو أننا سمحنا له بذلك.

إذاً فليكن موقفنا إزاء سبي شعب الله العزيز، هو موقف الاتضاع والاعتراف بمسؤوليتنا، بل وبذنبنا. وليسهم كل منا بنصيب، لا نلقي أحجاراً على أحد من قديسي الله الأعزاء، لا نرميهم بحجارة، بل ليأخذ كل منا حصته في الإخفاق العام الذي خلف حالة القوضى التي نراها اليوم. خراف المسيح التي تسمع صوته، الرعية الواحدة، التي يراها راعٍ واحد بقوة روحه القدوس؛ أين نراها اليوم يا أخي الحبيب؟ لقد تشبثوا، تفرقوا وتبعثروا في كل مكان.

ترى عيب من هذا؟ آه، ما أخطر هذه الحقيقة: إن انحراف المؤمن، انحراف النفس عن الله، هو المسئول عن كل شيء!! ثم كلمة أخرى لضمائرنا أفراداً بهذه المناسبة: بقدر ما تبرد عواطفنا، ويرتخي إيماننا، وتتركز عيوننا على غير المسيح؛ بهذا القدر عينه تكون حصتنا في الانحراف بين قديسي الله.

ولا تقل يا صديقي إنه يوجد قديس لا تأثير له. فإن أبسط مؤمن إما أن يكون حلقة تعمل على ربط الجسد برأسه المجيد، أو يكون عاملاً على إضعاف تلك الرابطة. وكلمة الله تقول «ليس أحد منا يعيش لذاته». إنما للرب نحن، وبالتالي لشعبه أيضاً. كلنا لنا مكان المسؤولية في بيت الله؛ وكل يوم نحياه، وكل ساعة نحياها، إنما هي فرصة بين أيدينا: إما لربط قديسي الله وتوثيقهم أكثر بإلهنا، أو تفريقهم ببدء. والسفر في كونك حلقة وصل مباركة يكمن في الشركة مع الله، الشركة الدائمة. فإن أقمت هناك نتماسك معاً؛ نشدد ما بقي الذي هو عتيد أن يموت.

ويا لها فرصة، فرصة حياتنا! هي فرصة الدهور! حتى في الأزمنة الرسولية لم تكن هناك مثل هذه الفرصة التي لنا، لإبراز الإيمان الشخصي والغيرة وولاء القلب. ومن ذا يأبى أن يعيش في زمان كنيسة الله اليوم؟ ومن ذا الذي لا يحاول أن يحمل جانباً من الأثقال التي من الواجب عملها من أجل تلك الكنيسة التي مات المسيح من أجلها؟ ومن ذا الذي لا يسعى أن يتعلم ما هو تكوين هذه الكنيسة، وما هو فكر الله بشأنها، حتى نوجد في ذات مجرى أفكاره تعالى وبرجولة وإيمان نحمل حصتنا من الألم والخدمة للكنيسة التي مات المسيح لأجلها؟

لنكن شجعاناً يا حبيبي! نحن الآن في أخريات أيام القضاة حيث تتحطم الأشياء. فإذا كان الله قصد أن تُكتب حياة شمشون، فليس لكي نغرق في حمأة الإخفاق عينها التي غرق هو فيها، بل لكي نأخذ حذرنا من إخفاقه فلا نكرره. أو يخطر ببالك أن الله عرض أمامنا تواريخ الإخفاقات بين شعبه لكي نتخذ المنهاج ذاته الذي سلكوه، ونغرق أنفسنا فيما أغرقوا هم؟ أليس أنه بالحري أعطانا هذه التواريخ كإنذارات؟ فإن فيها أمثلة لإيماننا، وعينات لعدم الإيمان. ولنتشجع فإن كلمة الله لنا، وروح الله معنا، ونعمة إلهنا جديدة اليوم كما كانت في يوم الخمسين. وكل الذي يعوزنا هو الإيمان الحي للاتصاق به، وروح الطاعة للسير قُدماً في الطريق التي رسمها لنا مهما تكون الكلفة.

يا أخي الحبيب، العيشة المسيحية نبيلة جليلة، والمكان في كنيسة المسيح شريف فاضل، لكن يفوتنا أن نعرف قدرهما؛ نفشل في إدراك مركز النبيل والكرامة العجيب، ومركز الخطر في الوقت ذاته، الذي هو أبدياً مركز الشرف. وهذا هو المركز الذي يجب أن نفرح إذ نشغله في هذه الأيام. أنا أعلم أنني شطحت كثيراً عما يعلن تاريخ شمشون، لكن القلم جرى هكذا بسبب المكانة التي تحتلها هنا حياة شمشون. وأتمنى أن نحصل بوضوح على هذا الدرس الأخير، وأن نعي الإنذار، حتى أننا ننفذ به حقيقة. والآن نتحول إلى العدو.

الفلسطينيون هم العدو الذي ليده باع الرب شعبه. وقد قرأنا تلميحات كثيرة عن الفلسطينيين في التاريخ السابق. فهذا شجر يقهرهم بمناس البقر؛ ثم وجدنا في أبيمالك، في اسمه، ما يذكرنا بحقيقة الفلسطينيين ومن هم. ولكن فيما قبل هذه الحوادث الجديدة لم نرهم بارزين أمامنا، يشغلون المشهد كله. لذلك أعرض بإيجاز فكر الكتاب عن صفات الأعداء الفلسطينيين.

في المحل الأول: هم القوم الذين أطلقوا اسمهم على الأرض كلها: سموها فلسطين من اسمهم «الفلسطينيين». على أنه مما يدعو للعجب أن الله لا يطلق اسم «فلسطين» في الكلام عن ميراث شعبه. فإن هذا الاسم يمثل باستمرار بلاداً معادية. لذلك نجد نشيد موسى الذي أنشده عند بحر سُوف يقول «تأخذ الرعدة سكان فلسطين». والإيمان في الشعب يظل ينظر إلى فلسطين كأنها أرض العدو حتى يضع شعب الله اليد عليها. والنبى إشعيا يطلق عليها وبلاً باعتبارها إحدى الممالك المعادية، جنباً إلى جنب مع موب وياقي الأعداء. والمرم في سفر المزامير يشير إليها من هذه الزاوية، حيث يتحدث عن أدوم وموب وفلسطين معاً.

هي هكذا إذاً: أرض الفلسطينيين، ومع ذلك فلا حق لهم فيها. إنما هم مقتحمون، أو "تائهون" كما نستوحي من دلالة اسمهم؛ شعب لا حق لهم في تلك الأرض على الإطلاق. فلقد تاهوا، تغربوا، حتى استقروا عند ساحل البحر حيث توفرت لهم السبل للدخول إلى الأرض. وتلك السبل هي التي رفض الله قديماً أن يقود فيها شعبه إذ كان يعوزهم يومئذ ليس فقط التدريب الذي يكسبونه من الصراع والمصاعب، بل كان يعوزهم أن يكونوا مثلاً وعبرة على المدى الطويل: أن الطريق الوحيد الآمن للدخول إلى ميراث الله إنما هو الموت والقيامة.

فإن نهر الأردن يتحدث عن موت المسيح وقيامته، وكل الذين يجتازون هذا الطريق إلى ميراثهم هم شعبه؛ بينما الذين يأخذون لهم مكاناً مدعّين بنصيب وسط شعب الله، ولم يتحدثوا فعلاً بالمسيح في موته وقيامته، هم تائهون، مقتحمون لمنطقة ونصيب الله. خذ مثلاً أي جمهور من الذين يحضرون الاجتماعات المسيحية: قد يُسمى أحدهم باسم مسيحي، فما الذي يميز شعب الله، الذين له، عمن ليسوا له؟ قد يدعى أحدنا أعظم دعاوى؛ قد نطالب بجميع أشكال الكرامة في كنيسة المسيح، لكن هذا لا يجعل منا مسيحيين حقاً. إنما شيء واحد هو الذي يقرر ما إذا كنا - بحق - في ميراثنا: هل دخلنا إلى ذلك الميراث بفضل موت المسيح وقيامته، وبطريق الإيمان الحي بشخصه الكريم؟ هل اتحدنا معه في موته وقيامته بحيث هناك عملياً - وفيما يتصل بنا - خليفة جديدة، وأنا أحياء لله في المسيح يسوع؟ وبذلك طرح

الإنسان العتيق، والموجود الآن هو إنسان جديد. إنه إنسان حي في ميراثه وله حياة القيامة، الحياة التي تربطه بالفرح الأبدي الذي لن يضمحل.

بيد أن هذا ليس فلسطينيًا. الفلسطيني - في تطبيقنا الروحي - شخص قد تسلل عن أسير الطرق، طريق الاعتراف؛ وهي طريق العالم. فيما يتعلق به لم يكن له في مصر عبودية ثقيلة الوطأة، لم يكن له الإحساس بأن الغضب الإلهي ضد الخطية قبول بالذبيحة المعينة من الله. لم يرَ البديل الذي في حبه الشديد له قد نزل إلى مياه الموت والدينونة من أجله. لم يشهد «تيارات ولجج» البحر الأحمر أو نهر الأردن تطفو على ذلك البديل المبارك لكي يفتح له سبيلاً للخروج من أسر العبودية، سبيلاً للدخول إلى الميراث. كلا؛ الفلسطيني غريب عن هذا كله؛ قد تسلل عن طريق قصير يسير: طريق الطبيعة. ولعلك يا أخي القارئ لست فلسطينيًا؛ لعلك لست مقتحمًا إلى ميراث الله!

والفلسطينيون، بهذا الطريق، يشبهون كنيسة العالم. فهي الأرض في وحدة مع الكنيسة. لو أنك راجعت رسائل الكنائس في سفر الرؤيا حتى تصل إلى برغامس حيث نرى الكنيسة في تزواج مع العالم، ترى أنه من هذا التزاوج يطلع جنس ثياتيرا، النظام العالمي الكبير حيث تغتصب الكنيسة مكان المسيح؛ النظام العالمي الكبير الذي مثله روما؛ بيد أنها ليست المثل الوحيد. ففي برغامس قد وجدنا متمسكين بتعاليم النقولاوين؛ والخلافة، روح الإكليروس والطغمة الكهنوتية، روح حكومة الإنسان بالمباينة مع حكم المسيح: هو الطابع الذي تتسم به الكنيسة العالمية.

وفي صلة مع تلك الروح نجد الناموس الذي يتعامل مع الإنسان الطبيعي؛ كما نجد الطقسية والفرائضية التي وإن كان لها حكاية حكمة بعبادة نافلة، فإنها في الواقع ليست سوى زهو المخلوق. أما العبادة الحقيقية فإنها تلغي الإنسان، تغض الطرف عنه، إذ أن رابطته هي بنوع عبادته، لأن العبادة الحقّة تضعه في ذلك المكان. فهي إذ تعظم المسيح، وتفتخر به، أي يمكن أن يكون هناك مكان للإنسان في الجسد؟!

والطقسية على النقيض: إنها تضم الفرائض الجسدية، والعبادة الجسدية، وكل ما يستهوي العين وأذن الإنسان الطبيعي وحواسه؛ هي تضم كل ما يثير ما يقول الناس إنه احترام وورع، ويسمونهم إحساس الورع؛ تضم كل ما يرضي الإنسان بالمشاركة مع الجنس البشري.

خذ - مثلاً - نظام روما الطقسي بكل ثيابه، بكل بخوره، بكل موسيقاه الصخابة، بكل مهرجاناته الفخمة، بكل مواكبه، بأمكن العبادة، بطبقات رجال الدين التي يقدّرها العالم. كلها

لا تتطلب إحساساً روحياً، ولا إرشاداً من الروح وبالكلمة، ولا ميلاداً جديداً. لكن في تناول كل الناس أن يقدِّروا طقسية روما؛ كل ما توحيه فلسطين: التي هي العالم في اقتحامه لامتلاك ديانة الكنيسة؛ وإذ يضع العالم يده ويتملك، فإنه يقحم طقوسه وفرائضه وخلافته الرسولية أداة الاستبداد بشعب الله. وهذه جميعها يسميها الرسول «أركان» العالم «الضعيفة الفقيرة».

وشيء آخر نلاحظه؛ بينما هم يمتلكون شريطاً صغيراً جداً من الأرض - فلسطين على ما نعلم هي جزء صغير منها، فهي الشقة الجنوبية الغربية على سهل شارون القريبة من مصر - فإنهم يستبدون بشعب الله كله. ويهوذا على وجه التخصيص كان معرضاً لغزوات الفلسطينيين. ويهوذا - إن كنت لم تنس - يمثل روح الحمد الذي هو في الواقع روح السيادة والحكم بين شعب الرب. وقد انتشر الفلسطينيون على إقليمهم كله وحالوا بينهم وبين ممارسة الامتياز الممنوح لهم من الله، والاستمتاع بنصيبهم المعطى منه تعالى.

كلام كثير عن الفلسطينيين. فهوذا أسماء أجدادهم توحى بالابتعاد عن أمور الله، الأمر الذي يميز روما: الابتعاد، وإلى جانبه القرب الاعترافي. وهناك دعواهم العريضة بالغفران؛ لكن إن دقت النظر فإنك تراه غفراً بالاسم فقط. هو غفران على شفاه الكاهن يشتره القود بعمل تكفيري؛ وجميعه - برغم ذلك - ليس غفراً حقاً يَكُنَّ الإنسان من الاقتراب إلى الله، ومن الخلاص أبدياً. ثم هم يدعون بأنهم مُعلمون مُفسرون لحق الله؛ وما هو - في الحق - بتفسير. تدعي روما أنها معلم، وإن سألت عما تعلَّم لا تجد أنها تعلم شيئاً. تدعي بحق لها في تفسير كلمة الله؛ وتسالهم ما الذي تعنيه كلمة الله، فيغلقون الكتاب ويودعونه أدراج المكاتب وخانات المحفوظات ويقولون لك: اسمع الكنيسة بدلاً من كلمة الله. وإن سألتهم عن تعليم الكنيسة، يقدمون لك بيانات متناقضة لباباوات وآباء ومجامع، كل منها يناقض الآخر؛ والكل يناقض كلمة الله.

وأنت ترى إذاً أن كل دعاوى روما هذه إنما هي مسميات، مجرد اعترافات، وليست - بعد هذا جميعه - الحقيقة على الإطلاق. وهذا كله نستوحيه من أسلاف الفلسطينيين. لقد نشأوا من كفتوريم؛ وترجمة الكلمة هي "كأنهم يفتاحيون - كأنهم فاتحون أو كأنهم يفتحون". ومن كسلوحييم التي معناها "كأنهم مسامحون" ولكنهم ليسوا فعلاً مسامحين، أي مغفوري الإثم. فأنت إذاً أمام تعليم مصنوع، واقتراب إلى الله مصنوع.

وأنا أعلم أن كثيرين من الأعباء يطيب لهم الكلام كثيراً ضد روما. إنما الناس بالحري

يقدهون في نظام روما. يقولون "روما البابوية: يا له من شيء رهيب! إيزابل تلك المرأة، النبوة الكاذبة، الزانية التي تجلس على الوحش القرمزي". ولن تلاحقهم في هذا الوصف لروما، بالصورة والألوان القائمة. بيد أن الذي أستهده هو الشيء العملي لنا. أنت واثق أن روما نظام شائع وذائع، وأنها كذلك لأنها تستهدف الجسد؛ والجسد فينا هو الجسد في سوانا. أنت واثق أن روما إذا كانت قد دُست بيديها الملوّثتين قدسيات الله، وأخذت نفسها بإقامة بديل للحقيقة الإلهية، فذلك لأن الإنسان الطبيعي - بل حتى بين شعب الله - ما يتفق معها ويتجاوب. ولكن ما علاقة روما بنا؟

ما هي مبادئ روما؟ لقد عرفنا جانباً منها. خذ مثلاً البديل للغفران. فإنه من المألوف أن تسمع بين شعب الله المعترف كلاماً عن الغفران مقترن بحرف الشرط "إن - إذا". فأنت مغفور إذا كنت تتوب توبة كافية؛ أو إذا آمنت بالطريقة الصحيحة؛ أو إذا بقيت في الإيمان. وأي نوع هذا من الغفران، تضيف إليه شيئاً من عندك، والذي يمكن انتزاعه من يدي في أي وقت؟ أي نوع من العفو هو إذا كنت لا أستطيع أن أتطلع إلى وجه الله وأباركه بكل نفسي وأقول له: «يا أبا الآب»؟ ألسنا نتبين من هذا أن قطعة من روح روما لا تزال قابضة في قلب كل من يسمح لعدم الإيمان أن يعيش فيه؟ فإذا كان بين القراء مثلاً من لا يخضع الخضوع كله لكلمة الله في ما يتصل بالغفران، وأن لنا الفداء بدم المسيح، غفران الخطايا؛ إن كان بينهم من يضيف إلى الغفران حالة ما: كأن يقال إنه غفران صحيح إذا كان إيمانك من النوع الفلاني، إذا كانت التوبة والمثابرة من هذا الصنف أو ذاك؛ فليس له سلام، ليس له سلام ثابت.

هذا ليس النوع من الغفران الذي يمنحه الله. فإنه يمنحك غفراناً له صلة بالخطايا الماضية والحاضرة والمستقبلية. قد أخرجنا من مكان غير مغفور إلى مكان يتصل الغفران به. لكن شعب الرب العزيز قد يكونون أحياناً غير واضحين في هذا الأمر. منهم - مثلاً - لا يدركون أن خطاياهم المستقبلية - إذا حدث وأخطأوا - مغفورة بتمامها. بل يجب أن نضع في بالنا أننا نحن المؤمنون بالمسيح شعب مغفور. وطوبى لمن لا يحسب له الرب خطية. إذ المؤمن في المكان الذي لا يمكن أن يعاد احتساب الخطية ضده، من حيث ضمانه وأمنه الأبدي.

أحب أن أظهر هذه الحقيقة في قوتها بقدر ما تحاول روما أن تحيطها بالظلام. أحب أن أجلوها جهد المستطاع على قدر جلاء كلمة الله إياها: إن كل مؤمن في المسيح مغفور بالتمام وإلى الأبد، وإنه خلال حياته كلها على الأرض لن يعود فيوجد في مكان يمكن أن تحسب عليه

الخطية في ما يتعلق بخلاصه. فقد ترك ذاك المكان إلى الأبد. وأنت تعرف ماذا تقوله رسالة كولوسي بهذا الصدد: إنها تضع الحقيقة بصورة مجيدة حيث يقول الرسول «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا، وغلف جسديكم، أحياكم معه، مسامحاً لكم بجميع الخطايا» (كو ٢: ١٣). إن اتحادنا بمسيح مُقام مرتبط بمسامحتنا، بغفراننا؛ وإذا كنا شعباً حيّاً، إذا كانت لنا حياة مع المسيح المقام، فنحن خارج المكان (إياه) إلى الأبد، خارج المكان الذي فيه يتم احتساب الخطية. إلهنا لا يحسب علينا خطية، بلا شروط. «لن أذكر خطاياهم وتعدياتهم في ما بعد» (عب ١٠: ١٧).

كيف دخل الفلسطينيون هناك؟ أنت تلتقي بشعب الله وتسالهم "هل تعلمون أن خطاياكم مغفورة؟ هل أنتم واثقون، مطمئنون، إلى الأبد أنكم أناس مُسامَحون، مغفورون؟". وكثير منهم يجاوبك محدثاً النظر فيك مرة، ورافعاً بصره إلى الله مرة أخرى "شكراً لله" "لقد غُفر لي كل شيء إلى الأبد". على أنه إذا لم يمضِ الناس إلى مخادعهم، ويجعلوا من غفرانهم موضوع شركة وسجود لله، فاعلم يقيناً أن الفلسطينيين يضعون أيديهم. هم يحولون بينهم وبين التمتع بذلك النصيب الحلو، الواضح، الذي هو من حق كل ابن.

لكن هذا شيء واحد. فخذ أمر الناموس. ودعنا نقف عنده بعض الوقت. لماذا تأخذك الرجفة إذا رفعت صوتي عالياً لأقول إن أولاد الله قد تحرروا بالتمام من الناموس؛ لماذا تأخذك الرجفة وتقول: "متحرر من الناموس؟! بلا ناموس؟! أفعل ما أشاء؟! أغرق نفسي في كل أنواع الخطية؟! ". ولاحظ هذه الفقرة "كل أنواع الخطية": هل هذا ما يحبه المؤمن ويشتهي؟ هل كل ما يبتهج به أولاد الله أن يغرقوا في كل أشكال الخطية؟ هب أنه أطلق حراً، فإلى أين يريد أن يمضي؟ إلى أين تشتهي أن تذهب الليلة وأنت لك الخيار؟ إنك تمضي قدماً إلى حضن الآب.

لقد وُلدنا من الله، وهذا مكاننا. لكن علام الضجة الكبرى بين القوم الذين يقولون إنه إذا لم يكن الإنسان تحت الناموس فمعناه فتح الباب لطوفان من فوضى التضارب في القوانين والشرائع؟ لماذا هذا مستحيل كل الاستحالة بالنسبة لجميع المولودين من فوق. مستحيل بالتمام إن واحداً من أولاد الله يشتهي الإغراق في كل أنواع الخطية. شكراً لله فقد كنت عبداً للخطية مرة؛ أحببت الخطية مرة؛ وأعتقد أن إخوتي يشاركونني القول بأنه إذ وضعت نعمة المسيح يدها عليّ فقد جعلتني أمقت الخطية. جعلتني - جعلتك - نبتهج إذ تحررنا من الخطية؛ إن شهوة النفس وأهدافها هي إلى البر وليس للخطية. أليس ذلك صحيحاً؟

لذلك لا يخيفنا ما يبديه الفلسطينى من اعتراض بقوله إن الذى تحرر من الناموس سوف ينعمر فى الخطية. لكن إلى جانب هذا من حقنا أن نساءل: كم من قديسى الله يدركون هذه الحرية من عبودية الناموس. كم من شعب الله يفهمون أى تحرر عملى هذا، من قوة الخطية؟ إنهم يتحولون إلى الناموس فى طلب القوة للبر، فلا يجدون فيه سوى قوة الخطية.

هذا أسلوب عامد، أقصده عامداً، استناداً إلى كلمة الله الغالية؛ إن أى شيء يقل عن العتق الكامل الفعلى، العملى؛ العتق من سلطان الخطية واستعبادها، هو دون نصيبنا المسيحى، ومعناه أننا تحت سيادة الفلسطينيين. وهذا صحيح يا أخى إن لم نكن شعباً محرراً. وأنا أقول ما أو من بأنه حق الله. الأمر الذى يحز فى نفسى كثيراً إذ أرى أن هذا الحق فى دائرة ضيقة من قديسى الله. فإن الفلسطينيين قد دخلوا الأرض، وامتلكوا.

هناك الكثير من الناس يطيب لهم أن يعرفوا حقيقة اليقين، ولكنهم لا يسرون بحقيقة العتق. إلا أن العتق هو بواسطة الحق، حق الله فى بساطته. وهذا هو ما يحرر النفس. فإن الحق الذى نتقبله بالإيمان يحررنا، فنجد أنفسنا وقد أعتقنا من استعباد الخطية لأننا تحررنا من الناموس.

وقد تأملنا - حتى الآن - فى نقطتين؛ وأعتقد أننا قد كوّننا فكرة عن القوة الفلسطينية. نقطتان فقط تحدثنا بشأنهما؛ وإذا لم يكن فى مقدورنا أن نعطي جواباً كاملاً لضمائرنا ولله، بأننا تحررنا من الشكوك إزاء الغفران، وتحررنا كذلك من سطوة الناموسية واستعبادها التى تخضعنا للخطية، فمعنى ذلك أنه يعوزنا أن نتخلص ونتحرر من الفلسطينيين. ومن هنا نتبين مدى صلتنا بالعدو.

ولنأخذ خاصية ثالثة مسألة السجود برمتها. لقد تأملنا فى طقسىة روما الضخمة، بكهنوتها الفخم، وضباب بخورها، وكل ما فى شئونها. وأعتقد أننا يمكننا أن نكون قساة فى أحكامنا عليهم، حيث يمكننا أن نشكر الله لأننا لسنا مثل الباقين. لكن دعنا نقرب من الموضوع أكثر. دعنا نتحدث عن الديانة الجسدية. وأليس هذا النوع من الديانة يضم كل ما ليس من الروح، كل ما يعتمد على الطبيعة وحدها؟ إن روح الله لا يستخدم سوى كلمة الله؛ فكل عبادة لا تكون بحسب تلك الكلمة هى عبادة جسدية. وآه؛ من لا يتعرض لجراح حد ذلك السيف؟ ألا يمكن أن نرى فلسطيناً قابلاً فى إحدى قاعات العبادة البروتستانتية؟ ألا نراه يقتحم هدوء جماعة تجتمع إلى اسم الرب؟ هنا يا أخى عدو مشترك، خطر مشترك.

أليس ذا دلالة واضحة أن يكون الفلسطينيين هم آخر الأعداء الذين يذكرهم سفر القضاة؟ الشكل الأخير للشر؟ عُذْ لحِيْظَة إلى سفر الرؤيا؛ تجد أن ثياتيرا هي الكنيسة التي تستمر حتى النهاية. وأنت قد تنتهي بثياتيرا؛ إذ كل ما بعدها جزئي. ثياتيرا تطالعنا بوجه الكنيسة الكامل؛ ومن خلال ثياتيرا نرى الكنيسة في مجموعها واقعة تحت تأثير ونفوذ روما، حتى حيث يرفضون سيادة روما. فمع هذا الرفض، فإن القوم - عملياً - تحت نفوذ روما، إلى حد كبير. هل لك أن تفسر لى ماذا يعنيه محاكاة روما في فن المعمار والطقوس الكنسية؟ أليس يعني أننا عبيد للفلسطينيين؟ الأمر جد خطير يا أخي. صحيح أن روما وقف على إيطاليا وأوروبا الجنوبية، فيما خلا بعض السلطة في عدة أماكن؛ بيد أن غلطة روما تكتسح العالم في يومنا؛ وهي قائمة قاعدة في كل قلب لم يتخلص بنعمة الله من التعليم الكاذب الذي يساير ذلك النظام. هنالك كميات ضخمة من تعليم أخطاء روما في ما يطلقون على نفسها اسم البروتستانتية، وهذا ما أحب أن أتحدث عنه وأصل إليه.

ولكن كفى حديثاً عن العدو، مع أننا مسسنا بضع نقاط مجرد المساس. وإن كنت قد استطردت فعذري في الاستطالة أن الموضوع عملي، موضوع يجب أن نكون بشأنه في غاية الوضوح. قد أشرت فيما سلف - ولا داعي للتكرار - إلى مبدأ الخلافة والإكليروسية. فحيث تجد عتامة حول التعليم، تجد أن إنساناً واحداً هو الذي وضعه في منزلة القرب إلى الله. والكهنوت، الكهنوت الحقيقي بالتسمية، إنما يزدهر حيث لا مكان للكهنوت الزائف. إن شعب الله جميعهم كهنة، ومع ذلك لا ترى شعب الله جميعاً يدركون حقيقة كهنوتيتهم، إلا حيث يتحررون من استعباد فلسطين.

وما هي سمة الشخص الذي يقيمه الله للتخليص من هؤلاء الفلسطينيين؟ هي سمة الشخص الذي - نظير جدعون في يومه - يوافق الضرورة والحاجة الماسة. وهذا نجده في تاريخ شمشون. وهنا شيئان: ما قصده الله من شمشون، وما كانه شمشون. وكما ترى: هما شيئان مختلفان كل اختلاف. وتاريخ شمشون - في ما كانه - يزودنا بمادة وفيرة للإنذار والتحذير؛ بيد أن تاريخه - في ما قصده الله منه - يرينا من هو الشخص الذي في مقدوره أن يخلص شعب الله من تأثير الفلسطينيين، من قوة الديانة الجسدية.

وشيء جميل أن نلاحظ كيف يعود الوحي المقدس بنا إلى الورا في تاريخه. فليس الحال هنا كما كان مع جدعون حيث رأينا الله عاملاً في فرد بذاته. ذلك أننا في تاريخ شمشون نرى

الله عاملاً في أبويه. وجميل أن تلاحظ - بما يؤكد درس الضعف الذي كنا نتلقاه خلال دراستنا - أن المؤرخ يشير أول ما يشير إلى امرأة، لا اسم لها. هي إنسية في مكان الخضوع: ليس لها من الأهمية قدر كبير - على الأقل في أعين العالم - بحيث يذكر اسمها. وهل فكر أحد حيال اسم أم شمشون؟ وكذلك ننسى أحياناً أن الكتاب لم يذكر اسم أم موسى عند ولادته. ومعنى هذا أن اسمها اختفى وراء اسم وليدها. وكذلك هنا: لا يعطينا روح الله اسم هذه المرأة.

ولكن سبة أخرى تلصق بها، سبة تشارك بها كثيراً من النساء اللواتي أقامهن الله مجرى لبركة شعبه: إنها عاقر. شبيهة بسارة، وحنة، ورفقة: لا شيء فيها من نشاط الطبيعة أو قدرة الطبيعة. موحشة، عاجزة بلا معوان. ولعل إحساسها بهذه السبة - ولو أننا لا نجد كلاماً واضحاً عن فعالية وأثر هذا الإحساس - قد خلق في نفسها من التدريب ما أعدها لكي يعلن الله لها مشيئته. تماماً كما وجدنا في حنة: أنسية تدرت في عمق حول حاجتها تدريباً جعل الله يعطيها سؤلها ويستجيب.

ها امرأة مسكينة بلا اسم؛ عجز بلا مسمى؛ هل هناك ضعف نظيره؟ عجز ذو طابع خطير، شامل، غامض، بحيث لا تقدر أن تطلق عليه اسماً. عجز بلا تسمية تصل إليه كلمة الله؛ وهذه الكلمة الحية تهب المرأة يقيناً بأنه عن طريقها ستخلق حياة وتنشأ قوة؛ عن طريق تلك الأنسية التي لا اسم لها، والتي ضعفها وحده يلتمس الله. ومتى التمس الله عبثاً الضعف والعجز؟ و أين سمعنا أن الإحساس بالعجز المطلق طرح نفسه عند قدمي الله، والله لم يستخدمه؟ إن قوتنا، إن فتوتنا، هي التي يعمل الله على كسرها. أما عجزنا، أما تفاهتنا، فهما اللذان يستخدمهما تعالى.

وإليها، وليس إلى منوح رجلها، أتى الملاك. يحمل خبراً عن ميلاد مخلص، منقذ لإسرائيل من أعتى شراك، من أخطر شراك، يمكن أن يمسك بتلابيبهم: شراك فلسطين. وما الشيء الذي كان الله يريد أن يؤكده للمرأة، ولمنوح رجلها إذ طلب أن يعرف هو بنفسه خبر الرسالة؟

شيء واحد كبير في ما يتصل بهذا الوليد، الذي مُنح منقذاً لإسرائيل: شيء واحد قصد الله توكيده: في كلمة واحدة، أن يكون نذيراً. فقد كان عليه حتماً أن يعاف الخمر والمسكر وكل نتاج الكرم؛ وأكثر من ذلك، حتم على الأم نفسها أن تباعد نفسها عن كل شيء من هذا النوع؛ وحين يولد الطفل، ومن مولده، لا تعلق موسى رأسه. هو ينبغي أن يكون لله نذيراً،

مثلما كان صموئيل، ومثلما كان يوحنا المعمدان: نذيرًا من بطن أمه.

وما النذير؟ عد إلى سفر العدد الأصحاح السادس فتجد ما يعنيه النذير. اللفظ بذاته يعني الانفصال. وما أفعل تأثير هذا اللفظ «الانفصال»! كم يرن صداه بارزًا، قاطعًا! غير أن الله - يا أخي - يقول إنه إذا كان لا بد من نصره حقيقية لشعبه، فإنما النصره في خط الانتذار، في مسار الانفصال عن الأشياء ذاتها التي يعدها العالم ضرورة مطلقة.

الخمر، العنب: رمز على الفرحه الإنسانية، والفورة الإنسانية. إن موسم الجمع، إذ يُجمع الكرم ويندفع دم العنب، كان مرتبطًا دائمًا بتعييد وأنشيد وأفراح؛ كان موسميًا للفرح. ولعلك تذكر للمرنم في سفر المزامير ما قاله بالإيمان «جعلت سرورًا في قلبي أعظم من سرورهم إذ كثرت حنطتهم وخمرهم» (مز: ٧: ٤). فهي مقارنة معقودة - تذكرة لهم - بين أسعد مواسم الطبيعة، أكمل مباحج الطبيعة وأفراحها: وبين أعمق فرحة وأكملها. فالخمر رمز للأفراح البشرية. فهي بمثابة إكليل السنة، إذ يصل كل شيء إلى حد الحصاد والجمع، إذ نضج كل شيء ويُعد للمتع. هو بشير بنهاية الشغل، بأن زمن الراحة واللذة قد حضر. وعندها ترتاح أنامل الكادح لتنهأ بموسم الجمع.

والخمر، مرة أخرى، رمز على الإثارة، على ما يثير الإنسان الطبيعي ويستفزه. وهنالك تعبير مألوف: «متشدد كما من الخمر»؛ وتعبير آخر: «معيّط من الخمر» بمعنى يصيح بصوت مدو بسبب الخمر؛ إذ يحس صاحبه بالدم يتدفق في شرايينه، وبأن كل عضلة في كيانه تهتز بفعل ما أثار في نفسه قوة خيالية - من أسف. ومن هذه الناحية يحدثنا الخمر عن الفرح البشري والقوة، أو الفورة، البشرية.

لكن أفراحنا تصدر عن نبع أنقى من دنّ الخمر: قوتنا من مصدر أقوى مما يثير الطبيعة. والكتاب لا يعني بالخمر، تلك الخمرة الحرفية المادية؛ بل يعني ما يستفز ويستثير الجسد على اختلاف أشكال الإثارة. فقد ترى إنسانًا يعاف الخمر بإطلاقها، ومع ذلك فهو واقع تحت تأثيرها: أقصد من الناحية الروحية. فكل ما من شأنه أن يمنح نشاطًا جسديًا، وإثارة جسدية، أو فورة أو ثورة جسدية في أمور الله: يجب الامتناع والإقلاع عنه.

الله لا يمكن أن يستخدم الجسد. فقد تسمع من يقول إن الإرادة القوية شيء صالح، وإن الكلام الصريح شيء صالح، إذا كان من الجانب الصحيح. ومعنى هذا أن الله يمكن أن

يستخدم الخمر، يستخدم الإثارة الطبيعية في أموره تعالى. لكن الحق إنه - له المجد - ليس بحاجة في عمله إلى قوة الإرادة. وأعتقد أن الصراحة تعني - في كثير من الحالات - مجرد الأنانية، الإغراق في الكبرياء، انعدام ضبط النفس. ولا يعني أن يتكلم أحدهم صادقًا، إن لم يتكلم بقوة روح الله. فكلام الصراحة بدون الروح، كلام جسداني؛ والإرادة القوية، إرادة جسد. هي ليست لله، إنما هي مجرد إثارة خمر الطبيعة. ليست انتذارًا.

فالانتذار معناه انعدام هذا بأجمعه. فقد تكون لي إرادة من حديد؛ وإذ لي إرادة، فينبغي كسرها إذ لن تكون ذات قيمة ما لم تنكسر. يقولون لي إن شاول الطرسوسي كان - طبيعيًا - ذا خلق قوي، الأمر الذي يعلل حياته في ما بعد. فإن كان صحيحًا ما يقولون، فإن نعمة الله إداة خرافة. لو أن شاول الطرسوسي استخدم النشاط عينه الذي كان يستخدمه في خدمة الناموس واليهودية؛ لو أنه حوّل - مجرد تحويل - دفة ذلك النشاط إلى المسيحية، إذًا فلا أثر لمعجزة النعمة في حياته.

وماذا كانت معجزة النعمة؟ الذي منا يعرف تاريخ بولس الروحي، ربما يقدر أن يقول إنه غيّر مجرى إرادته القوية وذكائه القوي إلى مجرى مشيئة الله، ولذلك استخدمه الله. لكن كلا أيها الأجباء. لقد كانت هناك الآنية الخزفية، وكانت جميلة في الواقع. كانت قوة الإنسان، ولكن الله ثبت مع هذه القوة شوكة في الجسد، لكي لا تكون له قوة في ذاته؛ وتلك كانت كلمة المسيح له «تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تكمل». ولم يقل له: "قوتي في قوتك تكمل، إذا سايرت قوتك قوتي".

هذا هو درس النذير، وشاق أن نتعلمه؛ لأنه درس يفحص النفس. وبعد الامتناع عن الخمر، يذكر الشعر الطويل الذي لا يحدثنا عن الافتخار بل عن العار؛ لا عن حيوية طبيعية، بل النقيض بتمامه. يحدثنا عن مكان المرأة، مكان الخضوع، والضعف، والاعتماد. وهذا ما يريد الله أن يستخدمه. وفي المجال الثالث يأتي الاحتكاك بالموت: وهو ممنوع إطلاقًا. يفقد انتذاره من يمس جسد ميت. فالله «إله حي» وكل ما ليس منه يدنس. وكثير مما يروق النظر يقع تحت لعنة الموت.

وهكذا ترى الأصحاب الثالث عشر يؤكد هذه الحقيقة: أن مخلص الشعب من الفلسطينيين ينبغي أن يكون نذيرًا؛ أن يكون شخصًا يرفض إثارة الطبيعة، يأخذ مكان المرأة، مكان العجز الكامل والضعف، ولا يكون فيه سوى نشاط الحياة. وهكذا إن شئنا أن نتحرر من الديانة

الجسدية، فلنكن شعباً منفصلاً، نذيرين بحق. وإذ نكون - بصدق - ضعفاء في ذواتنا، نرفض كل معونة الخليقة وقوتها؛ إذ نكون في عجز مطلق وضعف، حينئذ تستعلن فينا قوة المسيح. وما أجدرنا أن نبتهج عند هذا الفكر! هل بنا من رغبة أن يستخدمنا الله كنذيرين؟ أو نريده أن يستخدمنا ليؤكد وضاعة الجسد، وضاعة الطبيعة، ليكون الفضل كله للمسيح، لا منا؟

إن شئنا أن نكون نذيرين فليكن هذا اختياراً: ينبغي أن تكون فينا الرغبة في الانتذار. والقول قاطع «إذا انفرز... لينتذر نذر النذير». وما كان سوى نذير واحد، نذير حق، سار في أرضنا هذه، ولم يكن انتذاره سلبياً، بل كان نذيراً في كل الإيجابية التي ربطته بالله، وليس فقط فصلته عن العالم. في واقع الأمر لم يكن نذيراً بالمعنى الحرفي. كان يوحنا المعمدان نذيراً بهذا المعنى؛ كان شخصاً امتنع عن كل شيء. «جاء... لا يأكل ولا يشرب» والاستقبال الذي استقبلوه به «فيه شيطان». وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب؛ إنساناً مع الناس؛ فلم يكن سيدنا المبارك بحاجة إلى انفصال ظاهري، خارجي فقد كانت نفسه القدوس منفردة لأبيه بالتمام، ولم يعوزه شاهد خارجي بذلك الافتراز. ما استطاع أحد أن يعيره بالدنس، أو يلصق باسمه القدوس حتى مجرد فكر الخطيئة. اندمج بالتمام في مشيئة أبيه؛ وبالتمام استسلم لأبيه. وقد كان بطلاً كله حينما تحدثوا عنه - له المجد - أنه أكل وشرب خمر. بل إنه أخذ لنفسه اسم التعبير. نعم فهو صديق الخطاة، وقد ارتضى أن يرتبط بهذا التعبير. أولاً يبهج قلوبنا أن نعرفه بهذه الطريقة؟ ولكن من ذا يفكر في أنه كان محباً للخطاة إلا ليخلصهم من خطاياهم؟ من ذا يفكر فيه مرتبطاً بالحالة الواطئة من حوله إلا كمن نزل بالنعمة ليحمل نتائج ابتعاد الإنسان عن الله، لكي يربط شعبه بذاته في انتذار صحيح لله!

هذا - في رأيي - ما نفهمه من التقديم التي قدمها منوح وزوجته. كان منوح قد صلى للرب أن يرسل مرة أخرى الرجل (إياه)؛ وفي نعمته استجاب الله السؤال. ولكن لاحظ أن الملاك جاء إلى المرأة - وإلى الضعف دائماً يجيء - التي مضت واستدعت رجلها. وتلاحظ أن منوح كان يتشوق لمعرفة كل شيء في الموضوع من جديد. بيد أنه لم يحصل على أكثر مما أعطى للزوجة من قبل، مجرد إرشادات عن الانتذار. ثم انهمك في أن يعمل شيئاً له طابع ديني؛ أراد أن يولم وليمة، يصنع عيداً. أراد أن يجز الملاك - ولو أنه يدعوه رجل الله - إلى مستوى واحد مع نفسه. أراد أن يقاسمه الضيافة؛ فأراد أن يعرف اسم ضيفه لكي يكرمه بعد إتمام هذه الأمور.

وأليس ذا دلالة أن الاسم ذاته الذي أراد الملاك أن يحجبه عن منوح - «اسمي... عجيب» - يوحي إلينا بالاسم الذي فوق كل اسم؟ ألسنا نستوحي منه رائحة الانتذار الذي تكلمنا عنه؟ «ويُدعى اسمه عجيباً» اسم مَنْ؟ اسم النذير الوحيد الذي عاش في أرضنا. وكأني بالملاك يحول ناظرهما من الانتذار الحرفي الذي كان يحدثهما بأمره، إلى ذاك؛ ليس إلى ذاته هو ملاك الله، بل إلى من هو «عجيب، مشير، إله قدير، أب الأبدية، رئيس السلام». قد وضع أمامهما المسيح، ولكي يضاعف التوكيد، اختفى، تلاشى في الذبيحة.

فما كان يريده منوح عملاً من أعمال الضيافة - وهو بلا رب ذو طابع ديني - قد أصبح الآن ذبيحة توضع على الصخرة. والصخرة - كذلك - تذكرنا يقيناً بصخر الدهور، بالصخرة الحقيقية، الشيء الوحيد الثابت الراسي في عالم ضعيف وغير مستقر كالماء، وفي وسط شعب الله الفائر مثل رأوين في يومه. على الصخرة المسيح يسوع. هذا هو الأساس الوحيد للشركة مع الله؛ وعوض أن تنبسط الوليمة على مائدة منوح، وُضعت على الصخرة الباقية كالأساس الوحيد للشركة، الأساس الوحيد للقوة التي من حقه أن ينالها من يشاء أن يكون نذيراً، شاهداً لله.

وقد تصرف الملاك طبقاً للاسم الذي أعطاه. فإن هذا الملاك - أنت ترى - هو ملاك العهد. هو الغريب العجيب الذي كان يأتي بين الفينة والفينة في تدبير العهد القديم، بوجه مُقْتَع، بحقيقة شخصيته المستورة؛ ومع هذا جميعه فالصورة تذكرنا أن الرب وملاك العهد القديم هو يسوعنا الحبيب، الرب والمخلص. على هذه الصورة أعلن نفسه هناك. وكأنه - بلسان الحال - يقول لهذين الزوجين المتواضعين، الضعيفين، العاجزين: "إن شئتما أن تكونا نذيرين فاتبعاني إلى حيث أنا بالإيمان. انظراني كمن أنا - قبل كل شيء - متحد، مرتبط، بالصخرة كالمذبح". وهنا يتجلى لنا شخص المسيح. ثم خذ الذبيحة على المذبح، على الصخرة: اللحم الذي يمثل المحرقة وذبيحة الخطية، وتقدمة الدقيق، فيهما حديث عن عمل المسيح. وإذا كان يصعد في لهيب الذبيحة كان يقول لهما - بلسان الحال - أنا بذاتي الشخص الذي في الأعالي، أنا مَنْ ربطكم بذبيحته وبالصخرة.

كل انتذار حق، كل انفصال لله حق، كل شهادة لله حق - وكلها تعني النصر على غير الحقيقة - إنما تتم من خلال اتحادنا وارتباطنا بذلك الشخص العجيب الذي ليس سوى المسيح، مسيح الله المبارك. وإذا هكذا نتحدث عن الانتذار والشعر الطويل؛ إذ نتحدث عن استنكار هذا أو ذاك من الأمور، فإنما هو استنكار فعلي، بيد أنه أكثر من استنكار؛ هو امتلاء العين

والقلب والذهن بالمسيح في المجد؛ هو المسيح في المجد مسيطراً على حواسنا، على كياناتنا. وليس من انتذار صحيح ما لم نتحد به ونشغل به. أَوَ ليس هذا عين ما كان يعنيه - له المجد - في الأصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا: ذلك الأصحاح المقدس، حيث كان يتحدث إلى أبيه «ولأجلهم أقدم أنا ذاتي» (يو ١٧: ١٩). لكأنك تراه في إنجيل يوحنا صاعداً في الذبيحة لله؛ كأنك تراه صاعداً إلى الله. لماذا يأخذ ذلك المكان، يقدس نفسه، يأخذ مكان النذير، ينفصل عن كل شيء في هذا العالم؟ لكي يرينا طريق التقديس الصحيح والانتذار الصحيح، لكي نتبعه هناك، وإذ نتبعه، ناظرين إليه، نتغير إلى تلك الصورة عينها.

وإنما يترك وراءه عطر اسمه العجيب؛ عطر ما هو قدام الله، باعتباره القوة لشهادتنا الانتذارية على الأرض. وهناك، يا أخي، مولد شمشون؛ الميلاد الروحي لكل نذير لله. هناك يُصنع أبطال وجابرة الله، هناك يولدون: يولدون، أولئك الذين هم النوع الوحيد من الأقوياء الذين يمتلكهم الله.

ألست تلاحظ هذا في صموئيل؟ ففي الثالث والعشرين من سفر صموئيل الثاني كان داود يصف الملك الحقيقي؛ يرسم صورة للملك المثالي ففي الحال يقول «ليس هكذا بيتي عند الله*». وبعد هذا مباشرة نقرأ عن «أسماء الأبطال الذين لداود». ما أحفل ما نستوحيه من المناسبة! هناك الملك المثالي؛ هناك من يشبه الصبح بلا غيوم. فبقدر ما تمتلي النفس بالمسيح في المجد تجدد الأبطال. هناك أبطال الله.

مثل إيليا، كرمز للمسيح في صعوده، حيث صعد إلى ما كان فيه. يقول لأليشع: إن رأيتني أصعد يكون لك: أي نصيب اثنين من روحي. وإذا كان أليشع يرمق إيليا مُصعداً سقط عليه رداء إيليا، ومن تلك اللحظة صار - عملياً - الممثل لذلك الذي مضى صاعداً. والكتاب حافل بذلك. فهوذا التلاميذ عند جبل الزيتون: عند الجبل الذي يتحدث عن الروح القدس؛ على مقربة من بيت عنيا، بيت الاتضاع. يا لها دروساً يا أخي! لقد أخذ التلاميذ إلى حيث يستطيع الروح القدس أن يشهد - بلا عائق - للقلوب التي لم يكن فيها سوى الاتضاع، سوى الضعف؛ وهناك يرويه صاعداً؛ ولما صعد رجعوا ليكونوا له شهوداً، يأخذون مكانه، المكان الشاغر على الأرض، الذي خلا بصعوده.

* بحسب ترجمة داربي.

هناك كما قلت مولد الانتذار الروحي. ففي ذاك الصاعد في عطر الذبيحة من فوق الصخرة، يكمن السر الروحي لكل شهادة لله حقة، لكل نُصرة لله. من هناك بدأ شمشون، بدأ يظهر حيويته، قوة الحياة التي كانت له، قبل أن يبدأ الصراع. أظهر نوع الحياة التي كانت فيه: بدأ يتحرك في محلة دان ضد الفلسطينيين.

ونكون كلنا نذيرين بقدر ما نحملق بالإيمان إلى حيث مضى ربنا. بهذا القدر نكون له شهودًا. كنت أوشك أن أقول: شمشونيين. ولكن لا ذلك الشمشون التاريخي. فإنه إذ فشل، ذلك الإنسان المسكين، في أن يحيا بالطريقة التي رسمتها له نعمة الله، كفَّ أن يكون نذيرًا لله، وأصبح أثرًا بعد عين، ذكرى لما يعنيه الانحراف عن الله.

ألسنا نرنو إلى مكان النذير؟ أولًا نفصل أكثر، ندخل بالإيمان إلى ما يجعلنا منتصرين بالإيمان ضد الصور الجامدة الميتة المحيطة بنا؟ النذير إنسان سماوي، آماله هناك، وحياته «مستترة مع المسيح في الله». لقد حُطبت الكنيسة للمسيح بهذه الصورة: فما هي الآن؟ وماذا نحن؟!

الأصحاح الرابع عشر والخامس عشر

شمشون: أحلاف وصراعات

كان حديثنا مؤخرًا مقدمة بالضرورة لحياة شمشون؛ ومن هنا لم يكن لنا ما نقوله بشأنه، بقدر ما بشأن مميزات حياته وخدمته بما يطابق غرض الله، وبشأن الطابع الخاص الذي يطبع العدو الذي كان شمشون مزعمًا أن يتصدى له من قبل الله، ولأجل خلاص إسرائيل.

أنت في بالك أن الفلسطينيين يمثلون الديانة الجسدية العالمية التي تفتح الباب للجسد ليدخل إلى أمور الله، والتي تنطبق على كنيسة روما، وعلى كل ما له مبادئ كنيسة روما. إنها ديانة جسدية بكل شكوكها في ما يتصل بالله، وبكل عنفها في ما يتعلق بالإنسان. وستجد - مرتبطًا بها - ليس فقط الناموسية والطقسية والنظامية بكل أشكالها؛ بل كذلك عنف واستبداد الكهنوت والإكليروس وكل ما من شأنه أن يستبعد كهنة الله والأحرار.

ومنَّ عليه أن ينتقض هذا جميعه ينبغي أن يكون نذيرًا، مفترزًا، منفصلاً. الشخصية المنفصلة، السلوك المنفصل والشهادة المنفصلة، هي وحدها التي في مقدورها أن تمنح القوة على ما هو خارجي، جسدي، رسمي. ولك أن تقول إن الأصحاح الثالث عشر كان برمته مخصصًا لتوكيد هذه الحقيقة وهي أن شمشون ينبغي أن يكون نذيرًا. فقد كان موعودًا به من الله، وغرض الله أعلن؛ وبهذه الطريقة كان عليه أن يمثل الله في علاقته بالفلسطينيين: في الانفصال. وهكذا يُعطى القوة عليهم.

لكن الذي أماننا الآن هو تاريخ شمشون. وإنني لعلّى يقين أنه لا يسع أحدًا منا، نحن

العارفين بما هي نعمة الله في نفوسنا، إلا ويدرك كيف أن غرض الله وإنجازاته أمران مختلفان كل الاختلاف. في اجتماعاتنا نتغنى بمقامنا في المسيح. وأحياناً تبدو ألفاظ الترنيمة وكأنها أقوى وأشد مما يجب أن تكون حين تصف المركز الذي يشغله الخطاة بالطبيعة وبالتصرف؛ لكنها في الواقع ليست أكثر مما ينبغي لأنها ألفاظ كتابية تبين مركزنا في المسيح، ولكن فيه وحده. أما عن الوجه الآخر الظاهر منا في الحياة - أما عن تحويل النعمة إلى تاريخ؛ تحويل مقاصد محبة الله إلى حقيقة عملية يحسها الناس وتراها حتى أعين العالم؛ فذلك أمر يختلف. وهكذا كان شمشون: في مقاصد الله؛ نذيراً، ولكن في طابع حياته الفعلي؛ ماذا كان؟ هذا ما علينا أن نتعلمه، وما له درساً مذكراً! لكم قصر شمشون، وكان - في كل المستويات - دون التجاوب مع أغراض الله ومقاصده.

أول أعمال حياته يصور لنا أهمية الخطوة الأولى، وخطورتها. فالخطوة الأولى كثيرة الكلفة. هي التمهيد للخطوات التالية. والشاب الذي يزمع الدخول في حياة الخدمة لله ينبغي أن يدرك أنه من الضروري أن تكون أولى خطواته في الاتجاه السليم. وهكذا ننظر خطوة شمشون الأولى؛ لقد كانت إلى أسفل.

في مطالع سفرنا هذا قرأنا عن ملاك الرب وقد صعد من الجبل إلى بوكيم؛ هذه مصاعد استوحينا منها هذه الفكرة: أن التواضع هو المكان الجدير بشعب الله أن يشغله، مكان التواضع في حضرة الله: مكان الجبل الخفيض. ومغادرة الجبل مصاد، خطوة خطيرة مرهقة، أما أن تنزل إلى الجبل فشيء مبروك. تقول لي: في شمشون إذاً ما يشجع، لأنه نزل. ولكن كلا يا أخي؛ فنزوله لم يكن إلى الجبل. التصرف السليم أننا في ما له صلة بالله ننزل، ونصعد في ما له علاقة بالإنسان.

بالنسبة لإلهنا المبارك يجب أن نحتفظ بالمكان المتواضع جداً. إحساسنا بقداسته وتفاهتنا وعجزنا ينبغي أن يحفظنا متواضعين أمامه. لكن في ما يتصل برفقائنا من الناس، لا يجب أن نأخذ المكان الخفيض. لكنني لست أعني «برفقائنا من الناس» إخوتنا المؤمنين. فإنه يطيب لنا ويبهج الخواطر فينا أن نلبس التواضع أحداً إزاء الآخر؛ بل أنا أعني العالم، ومعهم لا يجب أن أخذ مكاناً خفيضاً، بل أن احتفظ بمرتفعاتي، بمركزي كإنسان سماوي منفصل عنهم.

فإذاً تقرأ عن شمشون أنه نزل، فإنها خطوة ذات دلالة. هي الخطوة الأولى، وقد كانت خطوة

إلى أسفل، إلى النازل. وأكثر من هذا أنه نزل إلى ثمة ورأى امرأة في ثمة، من بنات الفلسطينيين. نزل، هبط، إلى المكان الذي كان يدعيه الفلسطينيون نصيباً لهم؛ وإذا هبط هناك عقد حلقاً مع أعدائه. فالخطوة الأولى التي اتخذها شمشون كانت - إذاً - عقد حلف مع أعداء الله.

خذ القصة من الجانب الطبيعي. ها هو شاب، مقبل على حياة الخدمة لله. كم كان على قدر كبير من الأهمية ألا يتحالف بحيث يكون التحالف عائقاً لخدمته. كم كان على قدر كبير من الأهمية أن تكون كل خطوة بالاعتماد على الله، في صلاة حارة لطلب الإرشاد، وبخاصة في خطوة خطيرة كهذي، كاختيار الشريك، الرفيق. كم هو بالغ الخطورة أن تكون شريكة الحياة من نفس تفكير خطيبتها، رجل المستقبل. أما أولاً فينبغي أن تكون من شعب الرب؛ وإلى جانب ذلك أن يكون لها ذات إيمانه، وذات طاعته.

لكن أماننا إنساناً كانت شهادته المرسومة له هي شهادة الانفصال، الانفراز؛ وأول شيء عمله أن يربط نفسه بالعدو. إذاً فهكذا قد أنهى - ومن فوره - مسألة شركته وشهادته. الرجل الذي يستطيع أن يقبل فلسطينية في حضنه، لا يمكن أن يكون شاهداً نزيهاً ضد شعبها. ولنطبق هذا شخصياً على علاقتنا بهذا العالم. مَنْ يقبل العالم في حضنه ويستطيع أن يحمل شهادة أمينة ضدهم؟ ومن الناحية الروحية - وفي بالنا ما تعنيه المذاهب الفلسطينية - مَنْ يستطيع أن يداعب الديانة الجسدية - بطقوسها ونظامها الكهنوتي، وكل ما نستوحيه من هذا التقليد الفلسطيني للحقيقة - مَنْ يقبلها في حضنه ويتوقع أن في إمكانه أن يحتفظ ضدهم بشهادة تقوية؟!

آه! ما أكثر الذين يتمنون أن ينتدروا لله، ومع هذا فالخطوة الأولى التي اتخذوها أنهم ربطوا أنفسهم بنظام يناقض مشيئة الله. كيف يمكن لشمشون أن يخلص شعبه من الفلسطينيين إذا كان هو في حضن واحدة منهم؟ وكيف يتسنى لواحد أن يحتفظ - في صدق - بشهادة ضد نظام ما. بينما هو مرتبط به بأوثق الروابط؟ هي خطوة كثيرة النفقات، محملة بالألام؛ أن نحفظ بمركز الانفصال والانفراز؛ بيد أن شمشون حطم شهادته كلها بعمله الاستهلاكي هذا. إنه في الواقع لم يسترد ما خسره في تلك الخطوة.

خذها تفصيلاً وأنت ترى أنه لم تكن لدى شمشون أي تفكير عن الله وهو يخطوها. ولكن كانت لله أفكاره بشأنها، لاسمه الحمد. فهو - تبارك اسمه - يسيطر حتى على أخطائنا

وجهاً لآتنا. ويخبرنا المؤرخ أن أبويه لم يعلما أن ذلك من الرب ليطلب علة على الفلسطينيين لتحطيمهم. أما أن يكون لله غرض، فذلك أمر يختلف عنه أن أنفذ وأتم الغرض بنفسه. صحيح أن مقاصد الله لا بد أن تتم برغم عصياني؛ بيد أنني لن أستخدم مقاصده لأتم عصياني. ولن أكون شريكاً مع الله حين أعصاه. هكذا اخل هنا: فمع أن الله شاء أن يسيطر على الموقف، وأن يدخل شمشون في صدام مع الشعب ذاته الذي سعى لمحالفته، لكن لا عزاء لنا، ولا عزاء لشمشون، من مثل هذه التسوية لأن الله لم يكن في كل أفكاره.

«إياها خذ لي لأنها حسنت في عيني». ما هي فكرة النذير؟ أن يرفض تدليل الذات، أن يرفض مثل هذا الحُسن. فإن إحدى مميزات النذير نكران الذات؛ كان يرفض ما يبعث على إرضاء الجسد طبيعياً؛ كان ينكر على نفسه ما يتمتع به الناس عادة. ولكن أمامنا إنسان، كان مفروضاً فيه أنه يمتاز بنكران الذات؛ فإذا بالشيء الأول الذي يفعله هو إرضاء ذاته. وكم من مرة سلك القديسون سبيل الاتحاد مع العالم لمجرد أن في ذلك إرضاء للنفس. إن شمشون لم يتساءل ما إذا كان زواجه من تلك المرأة يرضي الرب؛ بكفيه أن يرضي نفسه. وألسنا في أحيان كثيرة نطلب إرشاد الرب بعدما نكون قد ثبتنا أغراضاً في نفوسنا؟ شيء ما يرضينا، فنسأل الرب ما إذا كان يرضيه. فلا غرابة إذا لم نتل جواباً واضحاً لأن الرب يأبى أن يأخذ المكان الثاني. إذا أنت كونت فكرك في أمر ما، فكن على ثقة أن محاولتك طلب موافقة الله لن تغير من فكرك، ولن تأتي لك بجواب من الله. كلا؛ بل يجب أن يكرم الله، ولن يكرم أو يتمجد ما لم يكن له المكان الأول.

وفي الأصحاح كله نرى أبوي شمشون متحدين معه. فقد أفلح في جذبهما إلى هذه النجاسة، وجعل منهما شريكين له في غباوته وحماقته. أوليس في هذا جميعه تعليم لنا؟ كان أبواه قد تلقوا الإرشادات من الله بعيداً عنه تماماً. ومن هنا كان إخفاقاً من جانبيهما بغض النظر عن إخفاق شمشون. وماذا عسى منوح أن يعطي جواباً لملاك الرب الذي كان قد أعطاه إرشادات محددة كيف يربيان وينشئان الوليد؟ وأي جواب يعطيان للرب يوم جذبهما شمشون إلى منهاجه الخاص؟ كان في إمكانهما أن يقولوا: قد أنشأناه ليكون نذيراً لكنه انحرف عن سبيل الطاعة لما شبَّ عن الطوق.

بيد أنهما لم يجاوبا هكذا، لأنهما ساءراه في عصيانه. إحتجاً، ولكنهما بعد الاحتجاج ساءراه في طريقه. وكم أناس أعلنوا احتجاجاً ثم جرفهم التيار معاً! كم أناس أظهروا أنهم

يُخدرون ضمائرهم عن طريق احتجاج يعلنونه: يقولون إن هذا الأمر أو ذاك ليس من الرب، وأنه عصيان سافر، ثم في هدوء يسيرون مع التيار الجارف. وكم بيننا اليوم من أناس ربطوا أنفسهم ببعض النُظم التي لا تثبت أمام امتحان حق الله. نُظُم لا تحمل سمات الانتذار والقوم يعلمون ذلك جيد العلم؛ بيد أن أولئك الأعداء الذين يعرفون أن الشيء ليس من الرب، يسجلون احتجاجهم ضده، ثم في يُسر يحتضنونه ويسايرونه. وأعتقد أن في هذا تعليمًا لنا، إنذارًا فعليًا في مسلك أبوي شمشون، أي ضعفهما الذي تجلّى في خضوعهما لما يُرضي شمشون. وفي مناسبة نزوله لخطبة هذه المرأة الفلسطينية، نقرأ عن أولى ضربات شمشون القوية. هاجمه أسد، فمزقه شمشون ولا سلاح بيده. لم يكن قد أضع قوته بعد، وكانت فيه بعض جدة العزيمة الروحية. لم يكن قد تدنس بعد بالشركة والاتحاد مع الفلسطينيين.

على أننا نريد أن نستخلص من هذا درسًا روحياً. أما وقد نزل إلى أرض الفلسطينيين فهل كان من عجب أن يلاقيه شبل أسد، يزمجر للقاءه؟ إن تخلي إنسان عن مكانه المعين له من الله، وهبط إلى مستوى جسدي، هل من عجب أن يجد نفسه هدفًا لغزوات المقاوم: الشيطان، الذي هو كأسد زائر يلتمس من يبتلعه هو. والشيطان يبلغ أقصى درجات ازدهاره عندما يتخلى القديس عن سبيل الطاعة. لكن في سبيل الطاعة ذاته لا توجد أسود؛ إنما الكسلان هو الذي يقول الأسد في الخارج فأقتل في الشوارع. وماسمعنا قط بإنسان قُتل في الشارع. قد يُستهدف للهجوم حينما يكون في طريق العصيان؛ بيد أن الأسود - كما صورها يوحنا بنيان في روايته الخالدة - مكبلة بالسلاسل بحيث لا تصل إلى طريق الطاعة. وفي طريق الله لا يمكن للشيطان أن يهاجم: سبيل الطاعة، سبيل الأمان؛ اهجرها تجد الأسد أمامك.

لقد رسم الله طريقًا محددًا لرجل الله الذي نزل من يهوذا إلى إسرائيل؛ فقد كُلف بمهمة، أن ينقل شهادة ضد ملك إسرائيل، على ألا يأكل ولا يشرب ولا يرجع من الطريق الذي أتى منه. سبيل واضحة، وقد تكون محفوفة بالخطر كما حدث عندما مد ملك إسرائيل يده ليقنتله. لكن الحماية كانت مكفولة له، فإن يد الملك يستفعجرت، وما كان يمكن أن يشفي إلا عند قول رجل الله. إذاً فليس في طاقة الملك أن يهاجمه، ولا أذى في طريقه؛ لكنه إذ تخلى عن طريق الله، طريق الطاعة، وأصغى لكلام النبي الشيخ، ومضى معه ليأكل ويشرب، صادفه أسد وقتله. هناك أسد حينما تتخلى عن طريق الله.

ومن هنا كان. يجب أن يأخذ شمشون من زمجرة الأسد عبرة ونذيراً؛ على الأقل يدرك أنه سائر في منطقة الشيطان. ولكي يكفل لنفسه الأمن أخذ الأسد وشقه كشق الجدي، علامة على نوع من الإيمان. بيد أنه من الفضيحة والعيب أن نقابل أعداء معينين. أظن أنه لم يكن لإسرائيل مفخرة في هزيمة عماليق. لأنه لماذا حارب إسرائيل عماليق؟ ما كان لهم أن يحاربوه لو لم يكونوا متخلفين في المؤخرة. لو سعوا باجتهاد وفي المقدمة لما كان في ميسور عماليق أن يأخذهم من الخلف. قد يقول واحد إنه دخل في معركة رهيبة مع الشيطان لكنه يشكر الله لأنه كسب المعركة؛ ولكن كيف دخلت في معركة مع الشيطان؟ هل دخلت في منطقة نفوذه؟ هل تخلّيت عن سبيل الإيمان حيث كان يريدك الله أن تكون؟ حسن أن تكسب نُصرة، لكن بعض الانتصارات تحدثنا بغاية الوضوح عن الظروف التي استدعت هذا القتال.

نحن نعرف معنى الأُحجية التي نطق بها شمشون على أثر هذه النُصرة. كان قد نزل بعد هذه المعركة بأيام فوجد دبراً من النحل يحتل جوف الأسد. فأخذ من جوفه عسلاً وأكل وقدم منه لأبويه. ولما نزل ليأخذ زوجته - وهو ما يزال ينزل، إذ عقد النية أن يتمم الحلف، وأن ينفذ شهوة قلبه - عرض أحجيته على أصحابه «من الأكل خرج أكل، ومن الجافي خرجت حلاوة». نعرف التفسير المألوف لهذه الأُحجية، ولا أحب أن أناقشه أو أعترض عليه ولو أنني أعتقد أنه يوجد ما هو أكثر منه. وإليك أولاً هذا التفسير: الشيطان هو الأكل، الأسد «إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتصماً من يبتلعه هو» (١بط ٥: ٨). وكما كان في هزيمة الأسد فرصة للحصول على الطعام، هكذا حينما كنا أسرى الشيطان وتحت سطوته جاء ربنا المبارك وغلبه على أمره. «لكي يببب بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (عب ٢: ١٤). وكنتيجة، كانت سيادة الشيطان علينا فرصة للمسيح لكي يقهره. وهذه الفرصة بالذات صارت وسيلتنا للحصول على طعامنا الروحي، أغنى أطعمة السماء، عسل من الجوف. صحيح أنه من صليب المسيح خرجت كل حلاوة وكل طعام. وليس من يشك أنه حينما انهزم الشيطان عند الصليب، فُتح الباب على مصراعيه؛ باب بيت الكنز الإلهي، ومن موارده التي لا تفرغ أخذنا طعامنا الدائم. نأكل ونشرب بوفرة لأنه قتل الأسد الذي كان في الطريق. هذا - كما قلت - هو التعليل أو التفسير المألوف لأُحجية شمشون. ولا أريد أن أفق طويلاً عنده في ما يتعلق بالناحية التبشيرية. ولك - بكل يقين - أن تستخدمها كقطعة تبشيرية، إنجيلية.

ولكن دعنا نطبق الأُحجية على اختباراتنا. فنحن نقول: في قوة الإيمان وجدت حلاوة

كنتيجة لهجوم الشيطان. خذ مثلاً: لقد زمجر عليك بنوع خاص من التهديد، بنوع خاص من التجربة لاقبته، وهزمته، وإذا استطعت أن تقهره وجدت لنفسك وجبة روحية، أكلاً روحياً. ويبدو أن هذه الفكرة مستوحاة من المزمور الثالث والعشرين «ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقي».

وكذلك نجدها عند التطبيق على المجموع. فقد يهدد العدو جماعة من شعب الله؛ وهم في بساطة إيمانهم يصادفونه ويشقونه؛ ويمزقونه؛ تطبيقاً لكلمة الله «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يع: ٤: ٧)؛ فلا تبقى له قوة أكثر من قوة جدي. وكنتيجة لملاقاة الشيطان وهزيمته يجد القديسون أდسم وجبة روحية لنفوسهم. وكم كانت هجمات العدو فرصة لبركات حقيقية كاملة! هذان تطبيقان مألوفان؛ ولا أريد أن أنقضهما. على أنني - وهذا اعتراف مني - حينما أفكر في هذا الرجل شمشون وفي الفرص الكثيرة التي كانت ممنوحة له، وكيف أنه أخفق في استغلالها كل إخفاق؛ حينما أفكر في المهمة التي وهو في طريقه لإنفاذها صادفه الأسد، وكيف أنه واصل تلك المهمة بعد أن قهر الأسد: أرى أن هناك - ولا بد - نوعاً من الإنذار، درساً مرتبطاً بهذا الحادث؛ وهو ما أحاول أن أعرضه على القارئ.

العسل حلو؛ وأنت تذكر أن أرض كنعان موصوفة بأنها أرض تفيض لبناً وعسلاً. والعسل في كنعان جيد، نافع. وشكراً لله لأننا سنتمتع إلى الأبد بأكل السمين وشرب الحلو؛ شكراً لله، فلا ريب في أننا في السماء سنستطيع أن نأكل العسل من حقولها بلا خوف من خطر. أما العسل في أرض الفلسطينيين فله دلالة أخرى. «أوجدت عسلاً؟ فكل كفايتك». وقد نهى الله عن مسألة تقديم العسل مع الذبيحة: لقد حرّم العسل. والعسل يمثل الحلاوة الطبيعية، والجاذبية الطبيعية. إن الحلاوة ذات الطابع السماوي طعام كامل في السماويات؛ أما تغذية الطبيعة، والاستمتاع بحلوى الطبيعة على أرض العدو فهذا شيء آخر حسبما أعتقد. أكل العسل بهذه الطريقة ليس أكلاً من نفائس المسيح، بل مما ينقلب شراكاً للنفس.

لقد واجه شمشون إذاً العدو في صورة واحدة. فالشيطان بوصفه أسداً هرب وهلك. وهذه إحدى صور هزيمته. لكن نجد بطن جثة لا أذى فيها، في جوف عدو مقهور، يوجد عسل مأكراً، خبيث، يُبعد النفس عن الله. ولست أرى أن هذين التطبيقين متعارضان أحدهما مع الآخر؛ فإننا إذ ننظر إلى الأهمية من زاوية الانتذار الحقيقي، كما نراها في ربنا المبارك النذير الحقيقي، نجدها تشير إلى ما في الإنجيل من حلاوة وبركات. أما إذا نظرنا إليها، إلى

الأحجية، على ضوء الحقائق، وكيف كان شمشون منحرفًا عن الله، كيف كان في طريق النزول، وإذا وجد الأسد أن زئيره لم يرهب شمشون، حاول أن يجرب ما يفعله معه العسل.

ما أتعس هذا الشمشون! إنه أبدًا يكشف أسرارهِ. كان مشوقًا - أبدًا - للحديث عن أمور لم يكن ينبغي أن يعرفها سواه. أمور لم يكن ينبغي أن يعلم الفلسطينيون شيئًا عنها، أراد هو أن يحدثهم بأمرها. وأنت تلاحظ أنه لم يكن يحدثهم عنها (صراحة) بل كان يعرض عليهم أحاجي. ولماذا الأحجية؟ أو ما كان ينبغي أن يرى أنه اختلط بذلك الشعب اختلاطًا مرعبًا؟ نزل لكي يتزوج بامرأة واحدة، فيجد نفسه في رفقة ثلاثين من الفلسطينيين. وأي رفاق أولئك لرجل عتيد أن يكون لهم عدوًا مريرًا؟ ارتبط بواحدة، فتطورت هذه الواحدة إلى ثلاثين. وها هو في عقر داره مع رفقة مستكملة من الفلسطينيين، ارتبط واتحد بهم.

الدروس من الوضوح بحيث لا يفوتنا - يقيئًا - أن نراها. فأنت عتيد - مثلاً - أن تساوم في شأن نقطة واحدة. أنت توشك أن تتبنى مبدأ واحدًا، ليس كتابيًا. تتبناه، تحتضنه، والمرأة كما هو معلوم يكنى بها عن مبادئ السلوك. تعتنق مبدأ فلسطينيًا واحدًا وتقول: هذا يرضيني ويحسن في عيني كثيرًا. إنه جزء من نظام ديني، خطوة قصيرة صوب النجاح الروحي تأتي بالمعجزات وتقول: هو شيء نافع ولا بأس من استغلاله. صحيح أنه فلسطيني، لكنه يجتذب الجماهير.

خذ مثلاً: هذا إنسان يريد أن يركز بالإنجيل؛ عرضة لأن يعتنق واحدًا من مبادئ الديانة الرسمية، واحدًا من مبادئ الناموسية، يحتضنه، يدخل في شركة اتحادية معه، يستغله. أنت تريد أن تأخذ واحدة، تقترب بفلسطينية واحدة، ولكنك ستجد بيتك مملوءًا، تجد ثلاثين، يرافقونك، يزامنونك، هم أصحابك. هم شركاؤك الروحيون. لن تتبنى مبدأ واحدًا غير كتابي دون أن تجد مجموعة كاملة من الضيوف، من نفس طرازه، في أثره يتبعون.

لست أعتقد أن أحجية شمشون تعني من خلال شفثيه - شفثي إنسان غير أمين نظيره - ما اعتدنا أن نفهمه بشأنها. كلا ولست أعتقد أننا نقدر أن نتحدث عن شمشون كرمز للمسيح. وكيف لإنسان غير أمين نظيره أن يكون رمزًا للمسيح في فدائه؟ وليعذرني القارئ إن أنا قلت إن حديثًا كهذا يملأ نفسي بالامتنعاض، أن يحاول أحدهم أن يربط هذا الإنسان بشخص سيدنا الحبيب بأي نوع من الروابط والتوافق. على أنني إذ أفكر في مقاصد الله في

النذير، وفي ما كانه المسيح من هذا الوجه، أستطيع أن أرى مباينة. أما لو كان شمشون أميناً لصح أن يكون للمسيح رمزاً. غير أنني لا أجزئ لنفسي أن أفكر في شمشون التاريخي كرمز للمسيح. هل حدث أن فهمنا أن الرب يسوع المسيح نزل واتحد مع أعدائه بهذه الطريقة؟ أما من أجل النفوس بالنعمة، ليلاقيها بالنعمة، فإنه نزل إلى أوضع مكان.

لكننا لا يمكن أن نفكر فيه - له كل المجد - يحتضن الأعداء، أو يفعل ما من شأنه التعريض بقداسته أبيه. ولذلك، ومع أن أفكار الله هي أن يُخرج من الأكل أكلًا ومن الجافي حلاوة، وأن كل من يحل الأحجية، من يعلن الله السر له، ينال ثياباً، مقاماً جديداً أمام الله، يلبس الحلة الأولى - مع هذا كله، فحينما نفكر في الأحجية من الجانب الشخصي نجد أمامنا إنذاراً.

كان شمشون يريد أن يكشف سره، وأنت ترى الشخص الذي يريد أن يكشف سره، وفي الوقت ذاته لا يريد أن يكشفه، فإن السر لا بد أن ينكشف، والشخص الذي يهادن أعداء الله ويداعبهم، ويتكر من الأساليب والمقترحات ما يفتح لهم الباب إلى أسرار حياته الروحية، سيجد أن المبدأ ذاته الذي تبناه كشريك حياته هو الذي يغدر به، يخونه، فيكشف السر الذي يتمسك به. وكذلك كانت الحال مع شمشون. أولئك الرفاق - ويا لها حالة تعسه - يا لهم رفاقاً تاعسين، حتى من مجرد النظر إليهم من الزاوية الطبيعية الخالصة؛ مواطنو الزوجة يهددون بها بإحراق بيتها إن هي - بطريقة أو أخرى - لم تفصح لهم عن سره. وما أتعسها صحبة تلتصق بنذير! يحرقونها وبيت أبيها بنار. وهي، خشية هذا الوعيد تقضي الوقت الذي كان المفروض أن يكون وقتاً سعيداً، تقضيه كله باكية، إذ كانت تعلم ما عليه مواطنوها من قسوة وعنف يمكنهم من تنفيذ التهديد فلا يبقى لها بيت وقد تفقد حياتها إن لم تكشف عن سر شمشون.

وها هو شمشون يلاقي مصيره لأنه كشف سره؛ ولعله لم يفتنا أن ندرك أن تصرفه الأول مع زوجته حينما كشف السر لها. يحمل في طياته مصيره. إذاً فقد أباح بسرّه، وانتهى به الأمر أن يكشف عن أعماق أسرار انفضاله الكاملة لله، سر شهادته وقوته.

وفي الأصحاح الذي أمامنا الشيء الكثير مما يوحى بالأسى العميق؛ ولقد عرضت هنا فقط الخطوط العريضة، ولي ثقة بأنه في متناول القارئ أن يطبقها لنفسه ويرى مداها العريض. بيد أن لي كلمة أحب أن أقولها - أو كلمتين، فيما يتعلق بالتطبيق على الجانب الكنسي. ذلك أنه حتى صاحب الذهن الروحي، القديس الذي يشتهي أن يرضي الله - عرضة للدخول في

أحلاف ليست من الله؛ وبخاصة في أيامنا التي نعيش فيها. ذلك أن النصرانية - على ما ترى العين - حافلة بالقدر الكبير من النشاط الديني. وجانب كبير منه يتسم بطابع الإحسان، وبكمية كبيرة من السمات الإنجيلية - كما يقولون.

وأمامنا قديس يشتهي - صادقاً - أن يعمل شيئاً لله؛ وربما تصور أن مركز الانتذار الذي هو فيه، راكد، لا أثر فيه للنشاط الملحوظ. قد يرى أن سبيل الانفصال - انفصاله هو وإخوته المشاركون له في هذا السبيل - بطيء الخطوات من حيث الكرازة بالإنجيل. قد يرون أنهم لا يمتازون بحرارة القلب كما يمتاز غيرهم من معارفهم؛ ومن هنا يتعرض لتجربة الاشتراك بنفسه في ميدان النشاط الكرازي، في الإنجيل. فتسمعه يقول: لا بأس من هذه المشاركة التي أنا أسلم بأنها ليست كتابية بالدقة، ليست هي ما يطلب الله بالضبط، وإنما أشارك في هذا الميدان وحده. وكم ذا ألقينا إخوة لنا وجدوا أنفسهم محاطين بالفلسطينيين، لأنهم ضحوا بنقطة واحدة. أتكلم من الناحية الكنسية، لأن هذه الحقائق مقصودة لنا في هذه الأيام، لإنذارنا في الأمور الكنسية؛ وإذ نتساهل في نقطة واحدة بالذات، نجد أنفسنا وقد سلمنا بأكثر منها؛ ونحن الخاسرون.

وقد ظفر شمشون بأعدائه مؤقتاً؛ الله - حتى في هذا - مسيطر على الموقف. كشف صاحبنا سر الأحجية لامرأته، وهي بدورها أخبرت به أصحاب شمشون؛ إذ استبان الغدر بنفسه، من جوابهم عليه، قال: «لو لم تحرثوا على عجلتي لما وجدت أم حيتي» كان الأجدر به أن يقول: "لو لم أحرث على عجلتكم". بيد أنه - كما ترى - ينحي باللائمة عليهم من أجل حلف هو أنشأه، وكنيجة له كشف عن أسرارهم لهم. أو ليس السر، الأحجية، لهم؟ وكيف كان له أن يحصل عليه لولا نزوله إليهم؟ كيف كان له أن يمتلك السر لو لم يصادفه الأسد وهو في طريقه هابطاً إلى أرض الفلسطينيين؟ فرما كان حقاً لهم أن يحصلوا عليه بتلك الطريقة.

والآن دخل في عداً مكشوف معهم؛ لقد أصبح هناك شق، إذ لا يفوتك أن إيماناً حياً كان في شمشون؛ لم يكن ميتاً، وإنما تدنس بذلك الحلف الذي طمس بصيرته. وهكذا قتل بعضاً من الفلسطينيين الآخرين، نزل إلى مكان آخر وهناك قتلهم وأخذ حللهم أسلاباً. من جنس لباسهم أعطاهم: استلبها وقدمها لهم كما في سخرية؛ لم يمنحهم شيئاً من عندياته: تماماً كما يحدث مع من لم يحصل على أسرار الإنجيل من الله مباشرة، بطرق الله. فكم أناس يصادفونك،

من امتلأت أدمغتهم - لا قلوبهم - بسر الإنجيل، ويقولون لك إنه من بين فكي الشيطان خرجت حلوة بركات الله، وهم إنما يرددون ما سمعوه من آخرين، إذ لم يتعلموه في نفوسهم. هي حلة تبدو جديدة ولكنها نسخة من الطبيعة العتيقة. إنه مجرد قلب صفحة جديدة، تجديد ظاهري فحسب، وليس تحرراً للنفس فعلاً. أما لبس الحلة الأولى فهذا معناه عمل في القلب، معناه الوجود في حضرة الله.

أما الأصحاح الخامس عشر فيطالعنا بأكثر من مجرد تحالف من جانب شمشون. وربما يمكن القول إن الصراع لجلب الحلل للفلسطين كان أفضل. ففي وقت حصاد الحنطة نزل ليفتقد امرأته بجدي معزى، وهناك وجد أنها أخذت منه: فما من حلف فلسطيني يقيد؛ حتى الفلسطينيون لا يتقيدون به، فكم بالحري جانب الإيمان؟ هكذا أخذت منه امرأته؛ وعندما أعلن احتجاجه أجابه صهره بأنه ظن أنه هجرها فأعطاها لصاحبه، وعرض عليه غيرها. والفلسطينيون على استعداد أن يعرضوا رباطاً جديداً بهم. لكن شمشون يرفض العرض ويسعى للانتقام من الفلسطينيين بسبب هذا الخطأ. لكنها نقمة شخصية؛ وهنا يتدخل العامل الشخصي لوضع الأمور في نصابها السليم.

وهنا نستوحي الكثير. لأحدثك حديثاً قد لا يرتفع إلى مستوى اللائق، غير أنه لا بأس لتوضيح الأمر. هوذا إنسان يرتبط بما ليس من الله، بمبدأ الفلسطينية؛ ويرى أن القوم قد غدروا به، عاملوه بخشونة، فيكشف عن إباطه. ولكنك كم تجد أناساً عوملوا بضعف - كما يقولون - من جانب زملاء الكنيسة التي طالما عملوا الكثير من أجلها. بذلوا أموالهم، وأعطوا من وقتهم، وضحووا بالكثير، ولكنهم لم يلقوا سوى الجحود. ومن هنا يبدو الغيظ والرغبة في الانتقام؛ وكم من مشاحنات كنسية كان مردها إلى المعاداة الشخصية، لا الغيرة من أجل مجد الله. هكذا الحال كانت مع شمشون: غضب من أجل ما عومل به، ومضى وأخذ عدداً من ابن آوى: شيء غريب على النذير أن يعيث به؛ فإن ابن آوى هو أنجس الوحوش التي تملأ فلسطين، لأنها تعيش على الجيف، وتخفي في الرمل عظام ضحاياها؛ صورة للحسد الذس يعيش على الجيف أو الفساد. أخذ هذا الذي يعيش على الفساد، ثلاث مئة ابن آوى، وربطها معاً، ذيلًا بذيل ووضع مشعلاً بين كل ذنين وأطلقها جميعاً. لم يكن يهمه ما تفعل بنات آوى، ولا نفهم أنه قتل ولو فلسطينياً واحداً، إنما أحرق الحنطة، والكروم، والزيتون؛ وهذه تشير - في الأرض - إلى بركات روحية، وتمثل حقوق شعب الله. لماذا - بالحري - لم يطرد الفلسطيني ويستمتع

بالخنطة والزيتون والكروم؟ لماذا يحرقها ويستحيي العدو؟

وكم ذا ينتج عن الخصومة الشخصية، ومحاولة تبرير الذات - وما من طرازهما - من آثار كهذي: إحراق الروحيات التي كان ينبغي أن نتمتع بها، دون إحراق العدو. وأنت، أما رأيت قط بنات آوى طليقة، مسيبة، لتهرق من على وجه الأرض كل ما يمكن أن تتغذى به النفس؟ اسمع ما يقول الرسول «إذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضاً، فانظروا لئلا تفنوا بعضكم بعضاً» (غل ٥: ١٥). وهكذا لست أرى في إطلاق شمشون لهذا القطيع من بنات آوى أي تصرف نبيل أو مسلك روحي. ويبدو أنه إنما كان يلعب؛ لم يكن جاداً؟

هل يخطر ببالك أن يفتاح، مع ما كان عليه من خشونة، يطلق على العدو بنات آوى؟ وهل جدعون يفعل هكذا؟ هو بدوره أمسك مصباحاً، لكنه لم يستخدمه لإلهاب الجسد. أمسك به ليحتفظ بالشهادة؛ المصباح والبوق إعلان لسيف الرب. وهكذا لا وجه للشبه بين الثلاثة. وأظن أن شمشون كان على المستوى الواطئ وهو يفعل ما فعل؛ فلم يحصل نُصرة لله. وهنا لنحذر يا أخي أن نقاتل بنات آوى، لنحذر استخدام الجسد أحداً ضد الآخر. لنحذر إثارة وإلهاب ما يعيش على الفساد. وإن كنت تنطق بهمسة تعلم أنها تثير النفور وتخلق العداوة، فمعنى هذا أنك تضع مشعلاً في ابن آوى وتطلقه. «مثل المجنون الذي يرمي ناراً وسهاماً وموتاً. هكذا الرجل الخادع قريبه ويقول ألم أَلعب أنا؟». والعدد التالي (أم ٢٦: ١٨-٢٠) يضيف إنذاراً بشأن الوشاية.

الفلسطينيون يثأرون من امرأة شمشون وصهره، بسبب ما حدث، فيحرقونها وأبأها بالنار. وينتهي الأمر بشمشون فيقف موقفاً مكشوقاً ويضرب الفلسطينيين ساقاً على فخذ، فتقوم مذبحه عظيمة. بيد أن فترة كبيرة من الزمن كانت قد مضت قبل إتخاذ هذا الصراع العلني المباشر. ولكن في كل هذا لا نستوحي مظهرًا للقوة الإلهية، وإنما نجد عرضاً للقوة البدنية التي وإن كانت خارقة للطبيعة غير أنها لم تمجد الله: عمل عابث دون مستوى كرامة عبد الله.

هذه أفكار خطيرة يا أخي، قد لا تكون لها صلة مباشرة بشمشون؛ لكنني أعترف إنني وقد تأملت طويلاً في حياته - من البداية حتى النهاية - قد وجدت القليل مما يدعو للشكر، والكثير مما يدعو للأسى. والقليل هو ما نجده الآن، وهو الشجاعة المجيدة الواحدة في كل تاريخه: أقصد العدد التاسع من أصحابنا.

لكن خاتمة العدد الثامن توحى بشيء آخر. نزل وأقام في شق صخرة عظيم؛ في قمة الصخرة. «الوبار طائفة ضعيفة ولكنها تضع بيوتها في الصخر» (أم ٣٠: ٢٦) إذ أقام هناك، الأمر الذي يشير إلى المسيح واختبائه فيه، نتوقع أن نجد هنا أكثر مما وجدنا من قبل.

الفلسطينيون يرفضون موضعًا كهذا. فمن فورهم صعدوا وعسكروا في يهوذا وانتشروا في لحي. فقال رجال يهوذا: لماذا صعدتم علينا؟ فقالوا صعدنا لكي نوثق شمشون لنفعل به كما فعل بنا. جعل شمشون من نفسه إنسانًا خارجًا على القانون؛ ومع أنه تخلى عن الكفاح - كما يبدو - أو اعتزل من مناطق الفلسطينيين، وأخذ مكانه بين رجال يهوذا، فإنهم كانوا مضطرين للانتقام. ما فعله شمشون ضدهم لم يهزمهم؛ ومن هنا واصلوا طريقهم، طالبين دمه.

ولكن ما أبشع الصورة التي نراها في ما يلي. جاء رجال يهوذا إلى شمشون، مذعورين من أنه قد يتصدى للفلسطينيين. «أما علمت أن الفلسطينيين متسلطون علينا»: إننا عبيد للفلسطينيين؟ كان استعبادهم من الدناءة والمذلة بحيث لم يرعبهم سوى الخوف من محاولة تصدي تلك السلطة التي كانت جاثمة عليهم. وكم ذا نرى جمهورًا من شعب الله يبدو عليهم الذعر لمجرد قيام فكر بمقاومة ومناهضة ما يبدو أنه اعتداء من جانب الفلسطينيين.

وتمثيلاً لما أريد أن أقول: هناك جانب كبير من المبادئ العظيمة، أو الضخمة، مثل التي أشرت إليها؛ اعتنقها النصارى المعترفون، مثل الأفكار الغير الكتابية عن التبرير والسجود وغيرهما. وقد أومأت إلى نظرة الفلسطيني نحو هذه الأمور. فإذا عرض لواحد أن يحتج ويقول إن هذه ليست من حق الله، وإنما هي من صنيع العدو، وشهادة على قدرته؛ ترى الناس يرفعون أيديهم ذعرًا. ما هذا! شخص عادي، غير معيّن يقوم بالخدمة المقدسة! التحدي الصريح بأن هذه إنما هي أنظمة بشرية، غير كتابية، ومضادة لما يقصده الله! أما علمت أننا عبيد للفلسطينيين؟ فماذا تقصد من إثارة المشكلات التي تفتح الباب لكل قوة العدو ضدنا؟ هل التشبيه أقوى من اللازم يا أخي، حين أقول إنه هكذا ينفر شعب الله من فكرة المقاومة لسلطان هذا الحاكم المرعب الذي يقبض على قديسي الله الأعزاء بين يديه بقسوة؟

ويقول شمشون لرجال يهوذا: إنما أسألكم شيئًا واحدًا. أنكم أنتم لا تقتلونني، هل تقتلونني؟ هذه هي الشعاعة اللامعة الوحيدة في كل تاريخ حياته. ويجاوبونه: كلا؛ بل نوثقك ونسلمك إلى يد الفلسطينيين. أما هؤلاء فيستطيع أن يلاقيهم؛ لا يتهيبهم. وما دامت الحلقة التي

تربطه جوهرياً بشعبه، ما دامت محفوظة هذه الحلقة بينه وبين شعب الله فلا يقطعونه - أتكلم من الناحية الروحية - فإنه مستعد أن يلاقي الفلسطيني.

وهكذا أوثقوه بحبلين، ليسلموه - كزعهم - لأيدي الفلسطينيين. وإذا وُجد في مواجهة العدو يبدأ الإيمان فعله، وينحل الوثاق - الذي يشبه التعاليم المقيدة، والتنظيمات والترتيبات البشرية - الذي قيده به شعبه حتى لا يفلت، مثل كتان أحرق بالنار، لم يكن له عليه من سلطان.

جميل هذا. وأعتقد أن له صلة وثيقة بإقامته في قمة الصخرة. إن شعبه الروحي، إخوته، إسرائيل، لم يكن لهم الإيمان أن يفعلوا ما فعل. بل كانوا من الخسة والوضاعة بحيث سلموه للنظام - كله - الذي كان مضاداً لله، وأن يفعلوا كل ما كان ضرورياً لوضعه في أيدي العدو. لكن هنا - على الأقل - إيمان بسيط يعتمد على الله، ويستخدمه الله. هو ليس في متناول أيدي الفلسطيني، وفي ساحة الوعي سيقاتله بإيمان قوي، قتالاً غير معوّق أو مقيد.

ويؤسفني - مرة أخرى - أن أشير إلى ما هو مميز شمشوني يتصل به باستمرار: أغنى احتقاره لانتذاره. «كل أيام انتذاره للرب لا يأتي إلى جسد ميت» (عد ٦: ٦). هذه هي شريعة النذير؛ وفي عرف الإسرائيلي، أنه إذا كان هناك ما يمتاز على غيره دنساً، هو الاقتراب من الميت، ولس العظام. ولو أن النذير الإسرائيلي فعل هذا، يفقد انتذاره الطقسي. ومع هذا فإن شمشون بكل ما تلقاه من دروس الماضي، يستخدم في قتاله ضد الفلسطينيين سلاحاً قذراً؛ يأخذ لحي حمار؛ اللحي علامة وبرهان الموت، والحمار في ذاته حيوان غير طاهر.

الحمار يرمز إلى الإرادة العنيدة؛ والإنسان الطبيعي كجحش الفرا. فيستخدم شمشون ذلك السلاح الغير الطاهر ويحقق به نُصرة؛ لكنك لن تستخدم الجسد، لن تستخدم شيئاً غير طاهر، لن تستخدم الإرادة العنيدة، إلا وتعاني بسببها. وبغض النظر عن سلامة السبب، فأنت تستخدم حينئذ سلاحاً خاطئاً، تحصد آثاره عاجلاً أو آجلاً. وهنا دليل على أن الرجل شمشون لم يقدر انتذاره. لم يدرك أن أسلحة المحاربة ليست جسدية، بل قادرة بالله. حبذا لو استخدمنا أسلحة روحية في قتالنا الروحي؛ لا أسلحة العدو؛ لا نزل إلى مستواه الخفيض، مهما يكن عظيماً في عيني شمشون إن لحي الحمار يكوم الفلسطينيين - كما يقول بلغته - بذلك السلاح وحده. له الحق أن يفخر كما شاء؛ بيد أنه استخدم سلاحاً غير طاهر؛ وهنا يلقي

ظلاً حتى على هذا الجانب المشرق من حياته.

وبعد كسب المعركة تبدو شعاعة أخرى محببة. فلأول مرة نسمع عن هذا الرجل العزيز التاعس أن نفسه ترنو إلى الله. «عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي» (مز ٤٢: ٢). فإننا نراه في شدة من الظمأ. إن نفسه حتى بعد تلك النُصرة العظيمة متضايقة بسبب الظمأ القاتل. لكنه يتحول إلى الله، يستعين بالله؛ وإذ به في المكان ذاته الذي دعي «لحي» على اسم نُصرته يشق الله الكفة التي هناك فيخرج منها ماءً لإنعاشه: رمزاً آخر للمسيح.

الجزء هذا الذي تناولناه بدأ بصخرة، وبصخرة انتهى. ففي صخرة أقام، ومن صخرة شققته يد الله اندفق الماء ينعشه ويحييه. ودعيت العين: "عين حقوري" أي عين من يدعو الله. ولاحظ أنه في مناسبة الإشارة إلى العين، وإلى الكفة الصادرة منها العين، نقرأ عن شمشون أنه قضى لإسرائيل عشرين سنة. أي أن مدة قضائه كانت مرتبطة بتلك الفترة، تلك الفترة من حياته، الفترة المشرقة. فبقدر انفصاله عن الفلسطينيين، وصراعه معهم على المكشوف، كانت له القوة للقضاء لشعب الله. وما كان له أن يقضي بينهم قضاء فعلياً صحيحاً يوم كان متحالفًا مع أعدائه. ومن أسف أنه لم يستطع أن يكون قاضياً بحق وهو يطحن في سجن الفلسطينيين. ولكن في هذه الفترة من الانفصال المطلق عن أعدائه، حينما أقام - كما قلت - في صخرة، وحطم القيود التي قيده بها حتى قومه، ووقف في شجاعة الإيمان الإلهي، استطاع أن يقضي، ويقضي لشعب الله.

هذا يأتي بنا إلى نهاية ذلك الجزء من حياته؛ وبتركنا - عند الأصحاح السادس عشر - أمام ظلام دامس، وإخفاق تاعس. كانت شعاعة الضوء قصيرة المدى من حيث مساحة التسجيل التاريخي، ولو أننا نرجو أن تكون هنالك أمانة لله هادئة لم يسجلها المؤرخ.

وأرجو ألا يساء فهم هذا النقد. فإنني - بحق - أعتقد أن هذا الرجل السادس في ترتيب أبطال إسرائيل، هو رجل ينبغي أن نتعلم منه جانباً من الدروس الكبيرة الأهمية. وأعتقد أن الدروس الواضحة المكتوبة على الصفحات الأولى هي دروس إخفاق؛ فكل محاولة ترمي أن تجعل من شمشون رمزاً للمسيح، تخدش مشاعرنا الروحية. كلا يا سيدنا المجيد! أم أننا نفكر أن نجعل من داود في خطيته رمزاً للمسيح؟ قد نجعل منه ذلك في رفضه، وفي ملكوته النهائي. كما قد نجعل ذلك من سليمان في عظمتة ومجده. ولكن سليمان منحرفاً عن الله،

هل هو حينئذ رمز للمسيح؟ كواحد من أولاد الله أصبح أن يكون - في عصيانه - رمزاً لذلك الطائع الوحيد؟ إن معالجة الكتاب على هذه الصورة تؤذي ضمائر القديسين وتظلم ربنا المبارك. إنما لنا الحق أن نحصل من تلك الحياة على إنذار، من حياة إنسان كان جديراً به أن يرمز للمسيح؛ وها هو مجرد منارة، لا تدعونا إلى المرفأ بقدر ما تحذرننا من الصخور، الصخور التي تحطم عليها.

وما هو الإنذار يا أخي؟ «لأنها حسنت في عيني». لأنها ترضيني. فلنكن إذًا على حذر من إرضاء الذات. المسيح لم يُرض نفسه؛ فلنحذر أن نُرضي أنفسنا. لنحرص على انتذارنا فلا نحطمه، ولا ننقضه. وليتنا نذكر أن صليب المسيح هو الذي صلبنا للعالم والعالم لنا؛ وأكثر من ذلك أن «الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» (غل ٥: ٢٤).

الإصلاح السادس عشر

شمشون: أيامه الأخيرة

وقفنا عند ألمع جزء من حياة شمشون، ولو أنه لمعان لم يكن يخلو من عتامة الضعف ونتائج الإخفاق لو لم يتحول بكليته إلى الله. على أنه برغم الخلاص الجزئي الذي حصله بفضل اعتماده على الله، وصراخه إليه تعالى للمعونة فقد كان هناك ما يشبه أن يكون حركة جماعية بين شعب الله.

كل ما فعله شمشون قبل ذلك كان شخصيًا. فعلى مسرح الحوادث ظهرت إرادته الشخصية، ولو أنه - حتى بصفته الشخصية - لم يستفد شيئاً من ضربات قوته، ومن نُصرتَه على أصناف من الفلسطينيين. وكل ما جاء بعد هذه الفترة التي حدثت فيها حركة قومية كان - كذلك - شخصيًا؛ ولذلك فإن شمشون بوصفه قائداً قومياً قد أخفق وحتى في ذلك الجزء (عندما ضرب وانتصر) لم يقف على رأس شعبه، لم يقدمهم إلى النُصرة، وإنما كسب النُصرة لهم. في كل هذا احتفظ بشخصيته، بفرديته؛ وحيث نرى قدرًا من الشخصية القوية التي تستبعد شعب الله؛ حيث نرى قدرًا من الأنانية، فهناك الضعف والإخفاق.

إنه لن يُشرك الشعب معه، كما فعل جدعون - مثلاً - وكما فعل يفتاح. وكل ما فعله كان على مسرح ليراة الآخرين، ليروا كيف يعمل وحده. وعلى رغم هذه الجزئية، فإنه في هذه الفترة حدثنا المؤرخ عن قضائه. ولن يخطر ببالك أن يكون قاضيًا يوم تحالف مع الفلسطينيين.

وأمثاله كثيرون في تاريخ الكنيسة، لم يكونوا مغمورين؛ كانوا ذوي مواهب لامعة، لكن

يبدو أنهم لم يكونوا متطابقين مع مركزهم كأعضاء جسد المسيح. أدهشوا الناس ببراعتهم. ولفتهم إلى ذواتهم. أما في ما يتصل بالعمل الدائم فقد كانوا بلا قيمة. ولا شك أنه في كل فترة من تاريخ الكنيسة وُجد أناس كهؤلاء، كما أن يومنا الحاضر لا يخلو من هذا الطراز.

أولاً نرى أن السر في هذا جميعه هو نقض الانتذار؟ هناك قدر من التحالف مع المبادئ الفلسطينية، قدر من الإخفاق في التمسك بالانفصال الروحي عن كل ما يشوه الشركة التامة. أليس الرجل ذو المواهب هو - مثلاً - عرضة، بما له من لباقة وفصاحة، لأن يُسكره نجاحه الذي لا يخلو من خمرة بهجة الطبيعة؟ مثل هؤلاء الأشخاص يشق عليهم أن يدفنوا الذات، ويأخذوا مكان الخدمة الوضيع. إنه أليمالك الفلسطيني يقحم شخصيته حينئذ. وهذا مبدأ منتشر؛ فكل نهضة، مهما تكن قيمتها الروحية، مهما تكن كتابية في قسماتها، لا تقدر أن ترتبط بشعب الله كجماعة على أساس ما هو مرسوم في كلمة الله، لن تبارح النظام الفردي، ومن ثم تكون جزئية.

على أننا مضطرون أن نترك هذه اللوحة المشرقة من حياة شمشون، وننزل إلى كآبة حياته الأخيرة. وإن كان الدرس الذي نتلقاه هنا محزناً، لكنه ليس مبالغاً فيه، فإن الله نفسه قد رسم الصورة لأجلنا لكي نعرف كيف تبدو الأمور في عينيه تعالى. فالدرس الذي أمامنا درس لازم، هو بمثابة دواء مقوٍ لنفوسنا، يفعل فيها ما يفعله الدواء المر المذاق. وأدوية الله لا بد أن تكون مرة المذاق لكي يكون لها فعلها في النفس، بحيث تحفزنا إلى الصراع الفعلي ونتبين هل نحن في صف الله أم لا.

وهناك مشابهة ملحوظة بين ما نجده في مطلع الأصحاح السادس عشر، وبين ما وجدناه في بداية حياة شمشون العلنية. ومن هذه المشابهة نتبين انحلالاً أدبيّاً، لأنه لم يسلك حتى مسالك مألوفة، بل نراه يشبع رغباته على رغم اللطخة التي يتركها ذلك على أخلاقه الأدبية. ينزل شمشون إلى غرة لكي يشبع شهواته، غير عابئ باللطخة التي قد يتركها تصرفه هذا على اسم الله، وعلى اسم شعبه كذلك. يذهب إلى هناك فريسة شهوانيته؛ واعلم يا أخي أنه إذا وقع واحد فريسة للجسد من داخل فلن يطول به الوقت حتى يقع فريسة للخارج، فريسة ظاهرة أيضاً.

في هذا الجزء نرى شمشون ذاهباً إلى غرة؛ خطوة تكشف عن حاجة نفسه إلى حكم على الذات عنيف لا يرحم، ولكن لا شيء من ذلك أظهره صاحبنا. وقد يبدو من الغرابة أن تكون

لإنسان قوة على الإطلاق، إنسان يضحي كل التضحية بضميره كما فعل شمشون؛ ومن المحزن أن تلك القوة لا تبقى سوى فترة قليلة بعد موت الضمير. وإنما هي رحمة الله المتأنية، هي التي تلجم شخصاً كهذا حتى والضمير في رقاد، ممنوعاً من الحركة والله في رحمته مازال عنده كلمة للنفس مستخدماً تلك القوة المخترنة إلى فترة أخرى باقية.

وهكذا وبرغم حالة شمشون النفسية التاعسة التي كانت السبب في هذه جميعه، استطاع أن يتنبه من استغراقه في نصف الليل ويحمل مصراعي غزة اللذين يحتجزانه داخل أسوار. حملهما وألقاهما على رأس جبل مقابل حبرون؛ نوع من التحدي للشعب الذي خيل إليهم أنهم احتجزوه ما دام المصراعان موصدين.

لا ريب أن شمشون تصور أنه قام بعمل عظيم وهو يحمل ذينك المصراعين، ويتحلل من القوة التي كانت تقيده. لكنه في الواقع لم يتحلل منها. إنما هي رحمة الله تكلمت معه وأظهرت له أنه لديه القوة للتحلل إن شاء، حتى ساعتها. ومن هذه الحقيقة، حقيقة أنه لم يشأ أن يتحلل، وإنما استخدم - مجرد استخدام - القوة التي كانت فيه: من هذه الحقيقة تتبين كيف أنه أهمل إنذار الله، وكيف أنه لم يكن لديه ما يعطل تطور الإخفاق في المستقبل.

وبرغم هذا جميعه، فإن هذا الجبار لم يكن إلا متراجعاً؛ كان يهرب من الفلسطينيين. ومع افتراضنا بأنه على كتفيه حمل مصراعيهم، لكنه إنما كان يهرب منهم؛ لم يواجههم. فلم تكن لديه القوة للمواجهة. وأتى له القوة وضميره ليس متوافقاً مع الله؟ وكيف تكون القوة لشخص ضميره ليس سليماً في حضرة الله؟

يقول الكتاب إنه أخذ المصراعين إلى رأس الجبل المشرف على حبرون: جبل يبدو وكأنه يتجه صوب حبرون، غير أن حبرون كانت أبعد منه بعدة أميال. كانت غزة على الساحل، أما حبرون فكانت بعيدة، في المنطقة اليهودية الجبلية، على بعد أميال. وكان هناك جبل يشرف عليها، وإلى هذا الجبل - صعد شمشون. إن حبرون معناها شركة؛ ولكي تعود إلى الشركة، إلى الله، يقتضي الأمر أكثر من هزات القوة.

هب إنساناً أخذ في مصيدة؛ في شيء مضاد لله، شيء يقيده؛ لكنه له من القوة ما يكفي للتحرر من ذلك الشيء؛ وإنه ليريك قوته إذ يعطي ظهره لذلك القيد ويتجه قدماً صوب حبرون، صوب الشركة. إنه لم يصل إلى حبرون. كل ما في الأمر أنه صعد إلى الجبل حاملاً المصراعين، ولم يتقدم خطوة أخرى. فمن المحتمل كثيراً أن تكون هذه النُصرة الجزئية شركاً له؛

لأنه لو كان قد أتقن درس ضعفه، لانطرح على وجهه قداء الله. ونأعفى نفسه من ذلة أخرى. وهكذا ترى النفس الراجعة رجوعاً جزئياً، تمضي نحو موضع الشركة مع الله لكنها لا تصل إليه؛ تقف بمبعدة عنه؛ فتكون المصيدة في المرة التالية أعنف وأردأ لأن الله لا يسمح لنا بأن نتلاعب بالضمير أو بكلمة الله.

الذهاب إلى غزة كان عملاً خاطئاً؛ وإذا كانت رحمة الله هي وحدها التي أنقذته من غزة، فإنما لكي ترده إلى ما يتجاوب مع خبرون: إلى الشركة مع الله. وإذا لم يطل به المدى حتى يصل إلى هناك، فإن إخفاقه التالي لا بد يعلمه ما كان يعوزه حقاً. ونحن، ما أحوجنا إلى ذلك الدرس. وأحس برغبة في الوقوف طويلاً عند هذه النقطة؛ فنحن نشاهد قدراً من الرجوع إلى الله: في التخلي عن هذا الإغراق أو ذاك؛ في التخلي عن هذه الرابطة أو تلك؛ ولكنه جزئي، ليس التخلي كاملاً قاطعاً. صحيح أننا اقتلعنا الثمار الظاهرة من الخارج، لكننا لم نقتطع الجذور ذاتها، ولم نرجع إلى الله رجوعاً واضحاً. وهوذا ما يقوله الله «إن رجعت إليّ» (إر ٤: ١). فالخطر من الرجوع الجزئي للشركة، الخطر من نصف الطريق إلى خبرون والتوقف عند هذه النقطة. إنما يعوزنا أن نسترد الشركة، واسترداد الشركة يعني أكثر من مجرد حمل مصراعي غزة إلى جبل يبعد قليلاً؛ يعني الرجوع إلى الله، وهذا بدوره يعني الحكم على المبادئ التي كانت تقيدني في أغلالها، وعلى الأصل الذي أبعدني وأضلني؛ وحينما أحكم على الأصل، أحكم بالتالي على الفروع.

هذا هو الدرس الذي نستوحيه من تصرف شمشون؛ ومثل هذه التصرفات لا تجلب سوى الحزن لقلوبنا. ولست أعتقد أنه كان يفاخر بما فعل. ولكنك قد يعنّ لك أن تسأله بالحري: كيف أتيت إلى غزة؟ وإلى أي مدى بعدت عنها يوم تركتها؟ وهكذا حينما ترى إنساناً يتحدث عن مبلغ قوته، إرادته، في التخلي عن هذه العادة أو تلك، في التخلي عن هذه الشركة أو تلك؛ فتراك بالحري تسأله: كيف هوت بك قدمك أولاً إلى تلك العادة، وكم هي المسافة بينك وبينها الآن؟ هل قطعت المسافة - رجوعاً - إلى الشركة مع الله؟

وكلمة - عبوراً - عن حقيقة إنجيلية: نشاهد في يومنا قدراً كبيراً من الكرازة، دعوة للخاطئ للخروج من غزة والتقدم صوب خبرون، ولكن دون أن نأتي به إلى خبرون. كما نشاهد قدراً كبيراً من التخلي عن هذا الشيء أو ذاك، من الإقلاع عن هذه العلاقة الشريرة أو تلك؛ من الحكم على هذا التصرف أو ذاك؛ ومع ذلك فقلما يذهب الإنسان إلى أبعد من هذا عمقاً؛

إلى القاع أو القرار. والقاع أو القرار هو نهاية الذات؛ يجب أن أرى ذاتي، ليس كخاطئ يستطيع أن يحلل نفسه من سلاسل خطايه. بل كمذنّب عاجز في حضرة الله أن أرى نفسي شيئاً لا قيمة له، لا يملك إلا أن يطرح ذاته بكل خطايه وتفاهته عند قدمي النعمة المطلقة، فأجد في صليب المسيح الخلاص ليس من غرة، ليس من هذه العادة الشريرة أو تلك، ليس من هذه الحالة الخاطئة أو تلك، بل أجد الغفران والعنق بالنعمة من الذات بصليب المسيح.

وهذا يأتي بي مباشرة إلى حضرة الله: مباشرة إلى حبرون؛ مباشرة إلى حيث أعرف علاقتي بالله: وهذا ما فعله نعمة الله بالمباينة مع الكرازة أو المناداة بإصلاح الذات أو تعديل الإنسان العتيق. إن الإنجيل يخلص الإنسان خلاصاً تاماً - في نعمة الله - من كل مكان كان فيه أسيراً، ويطلقه حرّاً للتمتع بالشركة مع الله.

ويا لها من تعزية أن أجد بشارة كهذه أنادي بها. يا لها تعزية - أخي العزيز - ألا نشير إلى جبل يبعد عن غرة قليلاً ونقول للناس: نحن نقودكم إلى الطريق صوب حبرون، صوب بيت الله، صوب الشركة مع الله، ثم نترككم عندها. بل امتيازنا - بالحري - أن نعلن أنه بواسطة موت المسيح ربنا وقيامته تتحرر النفس بالتمام، وتوجد في حضرة الله. وهذا ما يعنيه صليب المسيح، ما يعنيه دم المسيح. هو يعني هذا: أن الطريق إلى حضرة الله قد أصبح بالتمام مفتوحاً، بحيث نستطيع أن نقترّب بيقين الإيمان إلى حضرة الله، وأن تكون لنا به أسعد الصلات وأقدسها.

ولو أننا - كمسيحيين - لا يعوزنا أن نخلص مرة أخرى؛ بيد أنه يطيب لنا أن نتحدث عن طريق الخلاص وكيف تكون. نحن أنفسنا قد خلصنا مرة وإلى الأبد؛ وهذا يمنحنا الكفاية للتمتع بحقيقة الخلاص الغالية؛ ولعرض تلك الحقيقة - عرضاً ملؤه المحبة والجد - على كل قلب غريب عن محبة الله. إن نعمة الله تأخذك من مكان الاستعباد، من مكان خدمة شهواتك، وتضعك - أنت بالذات - في بيت الله، وتمنحك سلاماً إلى الأبد معه: بفضل عمل المسيح. فياله إنجيلاً غالياً! هو خدمة المصالحة، خدمة استرجاع النفس البعيدة، النفس العائشة في العداوة، تغرباً عن الله: استرجاعها إليه في كامل الثقة، في ملء السلام في حضرته المباركة المقدسة.

كل هذا يتباين مع ما فعله شمشون. فإنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل كما رأينا، ولذلك لم نشأ أن نربط بين اسم ربنا القدوس وبين مثل هذا التاريخ الشائن. وأربأ بنفسي أن أرسم خط مشابهة ظاهرة - كما يفعل الناس - وأخرج منه بقطعة إنجيلية كأن أقول: هكذا حمل ربنا

يسوع مصراعي غزة وفتح لنفوسنا الباب للإنتلاق. كلا؛ فما أريد - ولا أنت - أن نُقرن اسمه القدوس بمثل تاريخ الفضايح هذا. أن ذاك التاريخ المزري هو مجرد مباينة بما فعل المسيح. أما بالنسبة لشمشون فلم يكن ما فعله سوى خلاص جزئي - وفي رحمة الله؛ خلاص جزئي من شيء لا يزال سيدهاً له، وعتيد أن يوقعه مرة أخرى في مصيدته. إذاً فحذار أن نُقرن اسم ربنا القدوس بمثل هذا السجل المزري.

نحن نعرف إنساناً خرج من مدينة بطريقة مغايرة جداً لطريقة شمشون: نعني بولس. إن الشيء الذي أبقاؤه في المدينة هو الوفاء للمسيح؛ وأخذ اليهود يراقبون أبواب دمشق (مصاريعها) نهاراً وليلًا حتى لا يهرب عن طريقها. غير أن قوة الله كلها كانت لجانبه، كل قوة المسيح مُقامًا؛ ولكن ماذا كان دور بولس؟ لم يحاول أن يعرض عضلاته ذلك العرض الغبي؛ لم تتدخل المعجزة بينه وبين أعدائه الذين كانوا يراقبونه. لكنه - في مظهر الضعف الكامل - تدلى في زنبيل وأفلت من أعدائه. كان نذيرًا حقًا، ضعف نفسه كان شهادة مستمرة لقوة أخرى تعمل بضعفه: قوة لم تجعل منه مصارعًا أو رجلاً رياضياً بدينًا أو روحياً، وإنما جعلته إنسانًا متواضعًا.

ومن الجميل حقًا أن نجد في الأصحاح الحادي عشر من الرسالة الثانية إلى كورنثوس إشارة إلى ذلك الزنبيل، إشارة يعقبها في الأصحاح الثاني عشر كلام عن اختطافه إلى المجد، حيث تكشف وأعلنت له أمور لم يكن من الجائز التُّطَق بها. فإذا لم يكن لبولس هنا سوى الضعف، بحيث لم يخرج من المدينة إلا في زنبيل تدلى منه، فقد اختطف إلى المجد ليرى ما هو له فعلاً، وما هو لنا فعلاً، يا أخي. ولما نزل من هذه المرتفعات شرح له الرب - هكذا أتخيل - كيف أنه غير مسموح له بقوة في ذاته. وذلك لكي تحل عليه قوة المسيح، ولكي تكمل تلك القوة في الضعف.

فأيهما تفضل أن تكون يا أخي؟ شمشون على قدر كبير من قوتك المعجزة؟ أم ذلك الخادم المسكين الضعيف الذي وقع في الفخ كما يقع غزال جبان في الغابة؛ اصطاده أعداء قساة، لا ضمير لهم، فخرج من المدينة بمظهر من مظاهر الضعف لكي يتأكد أن قوة المسيح الأبدية من حقه؟ أيهما تفضل أن تكون؟ إن فضلت بولس فهذا معناه أن نتعلم الدرس من بولس؛ وإن فضلت شمشون فمعناه الإخفاق في تعلم الدرس عينه الذي ألقاه من حياته.

ولكن هيا نتقدم إلى الجزء الآخر من الأصحاح، الجزء الأكثر عتامة، لكنه جزء يصدر عنه لضمايرنا صوت قوي. وهنا نرى شمشون يذهب مرة أخرى، ولكن على ثقة من أن الشخص

الذي لم يرجع رجوعًا صادقًا، لا يطول به المدى حتى يسلك الطريق ذاته، وإنما إلى أردإ. وقد علمنا سيدنا مثالاً: إذا خرج الروح النجس من إنسان؛ أنه لا يتركه فارغًا. أي أن هذا الإنسان قد تحرر جزئيًا من ذلك الروح النجس. ولكن ما جدوى الإنقاذ من روح شرير واحد، إذا كان القلب الفارغ يفتح أبوابه على مصاريحها داعيًا لسبعة أمثال قوة الشر، هي أشر من الأول؟ ماذا انتفع في حالة كهذه من الإنقاذ حتى من الروح الشرير الأول؟

لم يتنبه شمشون لإنذار الله الذي أوصله إليه في لفافة من رحمة. وهنا أستطيع أن أقول إن الله يعطينا - كجماعة - أوقات نهضة؛ فترات للشفاء من نتائج أخطائنا إذ ننهض من غزة التي كنا ونحن فيها في معازل الفلسطينيين، وخرجنا منها بطريقة مدهشة. نرى المصارع وكأنها ليست حواجز تعوقنا، فنستخف حملها. لكن هذا الخلاص الجزئي - سواء في ما يتصل بجماعة الله أو بالمسيحي فردًا - قد يكون نذيرًا لخطوة أخرى للهبوط، ما لم نظهر حكمًا صادقًا على الأصول وعلى الجذور. وهكذا يئسنا الله إنذارات بهذه الطريقة اللطيفة. وما يعوزنا حقًا هو أن نتناول هذه الإنذارات كما يريد الله منا - ليس كأن الأمور سائرة في مسار صحيح ولذلك لا حاجة بنا إلى سهر أو حكم على الذات عميق - بل نتناول الإنذار ونغضي إلى أصل الأمور: سواء عن جماعة الله أو المؤمن بمفرده.

وها هو شمشون يعود - كما قد تفعل الجماعة أو القديس فردًا - إلى ذات الشيء الذي حسب أنه تحرر منه. والمدحش أنه يعود - حرفيًا - إلى غزة عينها. يقع في شرك امرأة في وادي سوري، اسمها دليلة؛ في وادي "الشباك"، "الفخ"؛ أحب امرأة؛ وإذا أنت أتيت إلى وديان الفلسطينيين فلا يكون لك روح التواضع الذي يحدثنا به وادي الأرض. إن الوادي الفلسطيني يعني درجة من النزول الأدبي؛ يعني هبوطك أدبيًا، روحياً. إذاً فقد نزل إلى الوادي الذي نُصّب له شرك فيه، واسم الوادي يترجم كما رأيت "فخًا". وسنرى كيف تحقق هذا.

هناك وقع في الفخ، أسير الطعم. لم يذهب إلى هناك بفعل قوة خارجية. وماذا عساه يضعنا تحت تأثير الشر؟ ليس قوة خارجية تحاصرنا؛ إنما طعم الجاذبية هو الذي يُخضع شعب الله لتأثير الشر. هو إغراء، يستهويه مذاق القلب وشهوته. ذلك بأن الله لن يدع كل جحافل الشر تقوى على القديس الذي يكمن في قلبه الوفاء لله. بل إن أضعفنا طبيعيًا، أكثرنا عجزًا من الناحية الطبيعية، أقوياء، أشداء كال المسيح نفسه لأن لهم قوته ما دام القلب مخلصًا ووفيًا له. وكل ما ينصبه العدو من فخاخ، وكل ما قد يكون من أودية سوريّة، لن تكون له سلطة

على قديس له القلب الذي - أول كل شيء - لم يقع في مصيدة أي إغراء في الوادي. هنا دليلة، امرأة فلسطينية مرة أخرى؛ ومنها نتبين مدى ضلال شمشون تأثرًا بهذه المبادئ التي لم تكن من الله، أمور من الطبيعة لن توافق مشيئة الله. وأنت تعلم أن المرأة - من الناحية التشبيهية - تذكرنا بمبادئ السلوك، مبادئ الشهادة غير الصحيحة، أو التي ليست بحسب الله: مبادئ تقصر دون حق الله. وشمشون تأثرًا - بهذه الطريقة - ببعض مبادئ الشر الذي ليس بحسب الله. افتتن به وسعى أن يرتبط به. هنا جبار يقع في الفخ؛ المرأة الضعيفة، التي يعني اسمها "الضعف - العجز"، هي التي تجذبه وتقيده بقوة وليس في قدرة شيء ما أن يخلصه منها، لأن قلبه واقع تحت تأثير تلك القوة.

إلى هناك ذهب وارتبط بها. ونرى أن الفلسطينيين استغلوا الموقف كل استغلال. نرى أنه إذا كان شمشون قد وضع نفسه تحت سطوة المبدأ الذي ليس بحسب الله، فإنه عتيد أن يوضع تحت سطوة قوة منظورة، أقوى مما على قلبه. قدموا لهذه المرأة أجرًا. والفلسطينيون قوم لا يعرفون التردد لتحقيق مآربهم. ففي المرة الأولى يوم توسلوا إلى إحدى صويحبات شمشون، كانت طلبتهم مقترنة بالتهديد بإحراقها وبيت أبيها بالنار؛ والآن يتقدمون إلى صاحبة أخرى وفي أيديهم فضة، ألف ومائة شاقل من كل واحد، إن هي استطاعت أن تغرر به ليكشف عن سر قوته.

قلعة قلبه كانت لا تزال منيعة. والشيء الغريب أن يخطئ إنسان مثلما أخطأ شمشون، ومع ذلك تكون قلعة قلبه في الجانب السليم. لم تكن في قبضة العدو ولو أنها كانت غير آمنة بطول الطريق. بل إن قلعة الرجل، باطنه الدفين، كان لا يزال لله الذي في مُطلق الرحمة كان يتدخل بالعبارة لحسابه. وقلعة القلب هذي هي التي كان على دليلة أن تحاصرها وتسترق منه مفتاح القلعة ليندفع العدو إلى الداخل ويضع يده بالتمام.

قد فكرت طويلاً في ما فعله شمشون هنا حين كشف للفلسطينيين سر قوته، ومبلغ ما يعنيه ذاك التصرف. فما الدرس الروحي الذي لنا أن نستوعبه من كشفنا السر عن قوتنا لأعداء الله؟ أليس الدرس أننا ننطوي على سر؟ لا عبرة بما هو ذلك السر رغم أننا في الواقع نحتفظ بسر حقيقي، بل العبرة بالحقيقة ذاتها، وهي أن القلب يكون على استعداد لإخبار الآخرين بسرره. فقد نلاقي أشخاصًا في أشغالنا، ونظهر أمامهم متأدبين، وبذلك ينتهي الأمر. نتعرف

إلى أناس، معرفة عابرة أو دائمة، لكنها على الحالين ظاهرية، لا تحملنا على التوريط. غير أنه على المدى الطويل تتطور الصداقة ونتعمق في علاقاتنا مع القوم؛ وعلى المدى الطويل أيضاً تتوثق العلاقات مع بعضهم، بحيث نكشف لهم أسرار القلب. وأن تتوطد الصداقة مع أحد، فهذا يعني أن أبوح له بسر قلبي.

فبقدر ما أحتفظ بأسراري، فأنا منفصل عن أوثق الناس اقتراباً مني؛ أنا بعيد عنه. أما إن كشفت أفكاري، إن تحدثت بأغراض ومقاصد ذهني الدفينة، فمعنى ذلك أنني اندمجت معه وأصبحت صديق، لا انفصال لأحدنا عن الآخر. أنا حينئذ في قبضة ذلك الشخص؛ لسبب بسيط وهو أنني أعطيته قلبي. والمثال البسيط أقدمه في امرأة مسيحية قدمت عواطف قلبها لرجل غير مؤمن. والأمثلة الأخرى عديدة، لأفراد وجماعات.

وتلك كانت الحال مع شمشون. فإنه إذ كشف عن سر قوته نقض الحائط الذي كان يفصله عن الفلسطينيين؛ وتخلّى عن قلعة نفسه التي ظلت حتى ذلك الوقت منبوعة. ولا شك أن عديد الصور يحضر ذاكرتك، تمثيلاً لهذه الحال؛ إنما أريد أن أبين من ثلاث زوايا مدى تعرض شعب الرب لهذا الخطر: شعب الرب أفراداً؛ وخدام الرب خاصة؛ وكنيسة المسيح في شهادتها الجماعية قدام الله وقدام العالم.

فالمسيحي - فرداً - عرضة أبداً لنقض سور الانفصال بين نفسه والعالم. وكم ذا رأت العين شبائاً امتلأت قلوبهم محبة للمسيح وبهجة في الرب: هاجمتهم التجارب الماكرة لكي ينتقضوا ما يفصلهم عن العالم؛ والتجارب لا تعرض عليهم في شكل قبيح أو صورة شريرة. فإن الشيطان لا يعرض على المسيحي عالماً شريراً. إنما يعرض عليه عالماً لا ضرر منه، يعرض عليه الجانب الجذاب فيه، لا الجانب الخبيث الشرير. وإذا ما نشأ في النفس إحساس بالتخلي، إحساس بالكشف عن أسرار القلب، فمعنى ذلك أن النفس قد رفعت علم التسليم. ليس بالكلام طبعاً، بل عملياً عن طريق كشف ما يميز النفس عن العالم. تسليم الأسرار نتيجة حتمية لنقض انفصال النفس عن روح العالم. فأنت قد أودعت شرك بين يدي العدو، ويقدر ما أودعت خسرت قوتك، خسرت كل قوتك الروحية.

وكم ذا رأت العين شماشنة* كثيرين تعرفوا من قوتهم بمثل هذه الطريقة. داعبوا شيئاً

* جمع شمشون.

صغيراً، بلا أذى في الظاهر، تافهًا في الظاهر. لكن في أعقابه يأتي شيء آخر لأن مبدأ الشيطان أن يضاعف كأس الفتنة، نقطة نقطة: الفتنة التي تملك ناصية الفكر. وهكذا المزيد على المدى البعيد حتى - كما تقول دليلة - "يكشف كل قلبه".

تمامًا كما نرى عند إحدى عيون الخزان (الهويس): مصراع من حديد يقف حائلًا دون اختلاط المياه، والفارق كبير بين منسوب المياه في هذه الناحية ومنسوبة في الناحية الأخرى. وإذا بيد العامل المختص تفتح الأبواب السرية قرب القاع، فتتسرب المياه ويرتفع المنسوب، حتى أخيرًا يصبح المنسوب من الناحيتين واحد. وبذلك يتم فتح المصاريع بسهولة كاملة.

ونحن يا أخي: أليس بيننا وبين العالم أبواب سرية، شركة مع المبادئ الشريرة، مع أفكار هذا العالم؟ لا أتكلم عن فساد، بل عن تسوية الفوارق في المناسيب، بين العالم وبين أولاد الله؛ بحيث يضيع الفارق الذي يميز القديس عن العالمي. أما وقد أصبح الاثنان على منسوب واحد، فماذا يمنع انطلاق كل ما خلف الخزان واندفاق كل ما في العالم؟

ضاع الانتذار الشخصي، الفردي. ولكن خذ الأمر في ما يتصل بخادم المسيح. فلو أن هناك من يتحتم عليه أن يُبقي نفسه بمعزل عن روح العالم، روح الفلسطينيين، فذلك هو خادم المسيح. فإن سر قوته هو ما كنا نتحدث عنه. سر قوته هو الحكم على الذات، الضعف، العجز المطلق الذي يتوكل على القوة الإلهية. فإن هو لم يتعلم الدرس، إن لم يأخذ ذلك المكان، فهو ليس عبدًا للمسيح؛ وإن كان قد أخذه، فليس أمامه قوة يخشاها مثل التحالف السري مع ما ليس حسب الله. إن تلك الأبواب السرية التي تقوده بالتدريج إلى كشف أسرار قلبه، تقوده بالتدريج إلى أن يقف على مستوى واحد من العالم: تمتص قوته؛ ولن تستطيع الموهبة، أو الفصاحة، أو ما يشبه ذلك؛ لن يستطيع أن يحتل مكان خصل الشعر الطويلة التي تتحدث عن حياة الانفصال لله.

طبّق القاعدة على كنيسة الله. فهي من أسف قد حلقت خصل شعر ضعفها التي كانت مجدها وفخرها؛ فترى اليوم كنيسة تقف على نفس المستوى مع العالم. ترى كنيسة عالمية؛ ولا أحب أن أطيل في هذا، فكلنا نندب الحال. ولكن تلفت يا أخي إلى أية شهادة متحدة لله: ألسنت تجدد نفس الشيء؟ نفس المخاطر التي يهدد بها العالم؛ خطر الكشف عن أشياء الله الثمينة، ليس عن طريق الكرازة، بل عن طريق فتح قلوب القديسين وأذهانهم حتى يكونوا في نفس المستوى مع المحيطين بهم.

فما أيسر ما نُقلد الشيء ذاته الذي يحيط بنا. وما أيسر على ذلك الشيء أن يتسلل حتى إلى أكثر جماعات الله حرصًا، إذا لم يكن سهر واهتمام دقيق. ما أيسر ما نرى العدو وقد استحوذ على كل ما نملك، بحيث لم يبق بيننا وبينه أسرار، بين نفوسنا وبين ما يحيط بنا. وهكذا تسمع البعض يقولون: لماذا كثرة الحديث عن الانفصال، إذ لا فارق بيننا؟ وما قيمة هذا الحديث عن الانفصال؟ آه يا أخي: إن مجرد إلقاء هذا التساؤل يبين أنه لم يعد بعد أثر للتمييز والفوارق. لقد كُشف السر: وما بقي منه شيء.

ولنلق نظرة على خطوات الكشف عن أسرار شمشون. أما أولاً فقد خدع صاحبتة حينما سألتها عن سر قوته وكيف يوثق. لم تكن له نية البوح بأسراره ومن هنا أخبرها بشيء تافه: قال لها إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تحف أضعف وأصير كواحد من الناس. وأتصور أن شمشون كان في باله ساعتئذ ما فعله رجال يهوذا معه حين أوثقوه وسلموه للفلسطينيين. ولا ريب أنه تذكر كيف وهو موثق استطاع أن يحل الوثاق. وهنا يكرر الفكرة. وإذا صاحبت به دليلاً قائلته: الفلسطينيون عليك يا شمشون، قطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة إذا شم النار.

هل افتخرت يوماً بنُصرة قديمة بصورة جعلت من تلك النُصرة بداية لفتح جديد؟ كان في ذهن شمشون هنا نُصرة له قديمة على الفلسطينيين، وكيف أنه قطع الأوتار. وكأنني به يقول: سأعيد التجربة، سأقطع الأوتار، سأحدث صاحبتني بما فعله بي رجال يهوذا؛ وبعد ذلك سأكشف عن مبلغ قوتي العجيبة. وهكذا فعل: لقد قطع الأوتار. ولكن لا تنسَ أيها الأخ الحبيب أن هناك، وترًا جديدًا أحاط بنفسه. ذلك الوتر الجديد هو مباهاته بنُصرة قديمة على مسمع من المرأة التي لم يكن لها صالح في أن تعرف شيئاً عنه. بيد أنه لم يخبرها بالحق؛ كلا ولا كشف لها عن حقيقة السر في قوته؛ وإنما كان يعابثها، وكانت النتيجة أنها في مدى قصير عرفت الكثير. ومهما يكن من أمر، ولو أن شمشون كان يعابث غير جاد، ولو أنه كان يداعب الشر، فقد سار الخطوة وانتهت بتسليم نفسه لأيدي العدو.

وددت لو زدت الأمر وضوحًا. وأعتقد أن ضمائر القراء تدرك ما أعني. فأريد أن أقول - يا أجباء - إن التحالف مع ما ليس من الله، لا بد أن ينتهي بالتحطيم والتخريب، كما وقع لشمشون.

في المرة الثانية اشتد ساعده؛ فقال: ليوثقوني بحبال؛ ولم يدرِ أنه إنما كان يضيف حبلًا

جديداً إلى الجبال التي أوثق بها. كان يزداد في طريق الانحدار؛ وأرى في ذلك رحمة الله، إذ يضع الله يده على شمشون ليسترده ولو أنه يأبى أن يصغي لرحمة الله. وعوض ذلك نراه يمعن ويتخذ خطوة أعمق في طريق الشر. فإن استخفافه وعيشه في المرة الثانية، بعدما تيقظ ضميره، وتيقظ برحمة الله مرة أخرى، يرينا أنه في خطر أشد مما سبق.

أود أن أتكلم بكل لطف؛ فالموضوع خطير غاية الخطورة. أفلم يستخدم الله ضميرك لتخليصك من فخ، ومع ذلك استمرت التراجع إلى الفخ عينه؟ إذاً فقد تضاءلت حساسية ضميرك، كما حدث مع شمشون. وهكذا ينطبق الأمر مع الكنيسة في مختلف الطرق التي تحدثت عنها قبلاً. ثم جاء الجواب الثالث. إنه لا يزال يتعابث معها؛ بيد أن العبث يزداد اقتراباً من الفتيلة، وها هو صاحبنا يزمع أن يكشف أسرار قوته. فيقول لها: «إذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدى». تكلم عن شعره؛ لكنه لا يقول: إذا حلقوا شعري، أو شيئاً من هذا القبيل. بيد أن الشعر كان مصدر قوته؛ وها نحن نراه يوشك أن يكشف السر. كان يتحدث عن قوته الروحية، وكأنه يقول لها كيف يمكن أن تؤخذ منه تلك القوة. إنما كان يقول لها زيقاً، ولو أنه كان يدور حول الشيء ذاته؛ كإنسان يُحدث العالم عن إيمانه، قد لا يكشف عن السر تماماً، وقد لا يكون مندمجاً مع العالم بالتمام، بيد أنه يدور حول الأمر ذاته الذي يفصله عن العالم. وبأي حق تكلم شمشون مع فلسطينية عن انتذاره؟ لا حق له. وهذا يذكرنا بحواء وهي تكلم الحية.

وهكذا يتخذ الخطوة الأخيرة. وستكشف دليلاً السر كله. وثق يا أخي أن إنساناً ما يعابث الشر ويداعبه، لا بد أن يصل إلى آخر مدى في الطريق كما حدث مع شمشون التاعس، ما لم يتدخل الله في رحمته. قال لها خذي شعري. هذه هي النقطة. وقد وصل بها إلى النهاية؛ وكأن لسان حاله يقول: إن راح شعري، إذا انتهى انتذاري إلى ضياع، سأضعف كأني إنسان. أو ليس ذا دلالة أنه هنا لا يتحدث عن الامتناع عن الخمر أو الانفصال عن الموت؟ إن ماضي تاريخه نبئ أنه لم يكن يحرص على هذين الشقين من انفصاليه الانتذاري. إن الشعر الطويل يوحى بالضعف، بروح الاعتماد على الله. أفما كان جائزاً أن يُبقي شمشون على ذنبك الشين بعد ضياع انفصال القلب المقدس؟

إن الاعتماد على الله - نجد مجاله الطبيعي والأدبي في الصلاة؛ هي التعبير عنه. والندير الكامل الوحيد كان رجل صلاة. ولنكن على ثقة أنه ليس هناك خطر أعظم من ضياع الإحساس

بالحاجة إلى الصلاة. والمخدع المهجور معناه ضياع روح الاعتماد - ضياع الشعور الطويل. ما بي رغبة في أن أعيد وأزيد، بل كل ما أقصده أن تحدثنا ضمائرنا متأثرة. فهل أنت يا أخي تعد الصلاة ضرورة حتمية؟ هل هي عندك - وعندي - عادة من عادات الحياة؟ من الجائز أن العدو قد يستخدم حتى معرفة النعمة لكي يضعف الشعور بالاعتماد، وبهذا يقلل من أوقات الصلاة. ولكن اعلم يا أخي أنك إن أهملت الصلاة، فأنت في خطر فعلي من ضياع انتذارك. والأمر كذلك فيما يتصل بالشهادة الجماعية. فإذا لا تبقى للمعرفة الإلهية القوة لإخضاعنا، لنكون متواضعين، بحيث نبدو غير مكترئين للصلاة المتحدة فلنعلم أن «الفلسطينيين علينا». إذا لاحظت أن اجتماع الصلاة مهجور من الكثيرين؛ إذا لاحظت ضعفاً في الصلاة الجماعية، وقلة في عدد المتشاركين فيها؛ فتلك علامات مميزة على أن الشهادة تتدحرج من مكانها الصحيح: بغض النظر عن ماضيها العظيم حين كان يستخدمها الله. فما لم نسترد مكاننا الشهادي، فإن كل شيء يتحول إلى "فلسطينية" من الشكليات الصورية. فليتنا نتنبه إلى هذه الأمور. ولكن هيا بنا نرجع إلى قصة شمشون المحزنة.

لقد حدثها بأكثر من أكذوبة بحيث لم يعد الفلسطينيون يصدقونه؛ لكن صاحبته، يا أخي، كانت تثق به، تصدقه. فإن هذه الزانية التاعسة تعرف متى يخبرها بالسر. هذا العالم التاعس يعرف جيد المعرفة متى يتخلى المسيحي عن انفصاليه، ومتى تتحطم الأسوار. وبعد ذلك ما هي إلا إغفاءة، مزيد من النوم الذي طالما سقط فيه، حتى يسند رأسه في حجر هذا العالم التاعس، وهكذا يضيع كل شيء؛ يستيقظ ليجد أن قوته قد فارقت إلى الأبد، بسبب غلطته.

ما أخطر هذا! وليتنا نخفيه في قلوبنا لئلا يصبنا نفس المصير، ونسقط على نفس الكيفية التي رسمها الله. تقول له «الفلسطينيون عليك»؛ وفي تصوره - ذلك الرجل المسكين - أنه في إمكانه أن يفعل ما قد فعله مرات كثيرة من قبل. «أخرج حسب كل مرة وأنتفض»؛ ولم يعلم أن قوته فارقت. وكم مؤمناً تهاون مع العالم، وظل يتهاون، ولم يكن يعلم أن قوته الروحية فارقت. لم يعلم شمشون أن الرب قد فارقه، لكنه خرج. قد ينتفض، ولكنه إذ فقد سر قوته، خسر اعتماديته على الله، فقد صار ضعيفاً كالأضعف.

وكثيرون من أصحاب الإرادة الذاتية يمارسون أشكالاً من النشاط بعدما تكون القوة قد تخلت عن حياتهم. قد «ينتفضون» في نشاط العمل الديني الدائب: الكارز، المبشر، قد

ينتفض على منبره؛ الزائر في خدماته الافتقادية قد ينتفض؛ معلم مدرسة الأحد قد ينتفض في فصل الدراسة؛ بيد أن القوة قد ولت يا أخي! يا للحزن! يا لكسرة النفس! يا للعار!

هنا شهادة انتذارية، اعترف الله بها قبلاً؛ لكنها أسندت رأسها على ركبتي فلسطينية وأضاع خصل شعرها. قد تباهي بقوتها، ومداركها؛ قد تنتفض، ولكن من أسف قد زال المجد؛ إياخابود! ألا ليت الرب يحفظنا متضعين، مصلين، معتمدين. فالخطر محقق بنا؛ فلنكن صاحين، وإلا فإننا نتنبه من حلم الراحة لنجد أنفسنا في قبضة الفلسطينيين.

العالم قد يحسب تصرفات شمشون تطوراً إلى مزيد من القوة. فهو قد كفّ عن تزمته الصارم، وانعزاليته الجافة، وطاعته العمياء. كف أن يمثل دور المرأة، وهكذا تسنى له أن يحتل مكانه بين الرجال، ويكون نافعاً. هكذا يقول العالم، وهكذا تقول كنيسة العالم؛ لكن الإيمان يندب النذير المضيق، يبكي ولا يريد أن يتعزى «كان نذرنا (جمع نذير) أنقى من الثلج وأكثر بياضاً من اللبن... صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد» (مرا: ٧).

أخذ الفلسطينيون شمشون، ونزلوا به إلى ذات المدينة - غزة - حيث كان يلهو. أوثقوه وأنزلوه إلى الموضع نفسه الذي طالما مضى إليه طواعية؛ موضع استعباده الاختياري أصبح مسرح استعباده الاضطراري. والآن عليه أن يطحن. جزء القوة الباقي، يصرفه طاحناً حنطة الفلسطينيين، بدلاً من أن يصرفه كإنسان الله الطليق، ليقض لشعبه المحبوب. يا له تحذيراً مخيفاً؛ ياله درساً لنا!

شمشون أضاع قوته أولاً؛ وتلك غباوة منه. ثم قلع الفلسطينيون عينيه، لأن الديانة الرسمية لا تطيق العين المفتوحة. أعني أنه ضيع قدرته على التمييز، ولن يستعيدها. ويا لها ذلة! خسارة لا تعوّض! ويا لها من ثلاثية خطيرة كنتيجة للخطية: أوثق، قلعوا عينيه، يطحن في بيت السجن!

أعتقد أن هذا الدرس المحزن يمكن أن ينطبق في مجالات أوسع؛ يمكن أن ينطبق على أية صورة من صور المهادنة مع الشر. ولكن إذ نعي في بالنا ما هو المبدأ الفلسطيني - الديانة الجسدية العالمية، في الكنيسة - نرى أن للشر خطراً مزدوجاً.

لكن حذار أن ننسى أن انزلاقات شمشون هذه لا تعني الشر الأدبي المكشوف؛ ولو يراها العالم موضعاً للإحترام. وقد أشرت إلى هذا قبلاً. فهناك نظم دينية، وعقائد، وممارسات،

جسدانية المظهر والمخبر، على قياس ما كانته اليهودية؛ هنالك هذه النظم حتى بعد دخول المسيحية. فالاتجاه إليها، نوع من التحالف والعبث مع الفلسطينيين. وأستطيع أن أقول إن كنيسة المسيح اليوم هي على وجه عام: هناك.

طبَّق هذا على نوع من الشهادة. فهوذا الله يقيم شهادة إنتذارية مثلما كانت فيلادلفيا وسط ثياتيرا الفلسطينية الفاسدة، وساردس الرسمية المائتة. أو ليس ذا دلالة أنه بعد فيلادلفيا تأتي لاودكية، كما لو كان الله يريد أن يحذرنا من خطر الإنزلاق رجوعًا إلى أشر وأردأ مما تخلصنا منه قبلاً؟ فلنكن يا أخي على حذر؛ لنصح ونسهر.

وأذكركم أيضاً بأن أية شهادة "تقضي لإسرائيل". كل نهضة من الله، تؤثر على الكنيسة بأجمعها. ومنّ منا - اليوم - يستطيع أن يقيس أبعاد تأثير تلك الشهادة التي - وهي منفصلة ومحتقرة - أشاعت نور الحق الإلهي على مجموعات القديسين التي لا تزال مقيدة في أغلال الفلسطينيين؟ فحذار أن نضيع مكانة الشرف والعزة باحتضان مبادئ تسلبنا قوتنا وبصيرتنا، وتحوّل أحرار الله إلى مجرد طاحنين للحنطة لكنيسة العالم.

بقيت بضع كلمات عن مدى الاصلاح والعلاج الذي يمنحه الله. ولنلاحظ أمرين: أحدهما خاص بشمشون، والآخر بالله. أما ذاك فقد «ابتدأ شعر رأسه ينبت». لقد تعلّم. علم مرة أخرى أن لا قوة فيه. عادت إليه شارة الاعتماد، شارة الانفصال والانتذار؛ لكنه أضاع شيئاً لن يستعيده. أضاع بصره، ولن يسترده، لأن الله لن يردّه - ردّاً كاملاً - ما أضعنا الحق فيه المرة بعد الأخرى بعنادنا وخطأنا المتكرر. إنما يرضى برد جزئي. إن كنيسة اليوم ينبغي أن تكون نذيرة لله. وبين وقت وآخر من تاريخ الكنيسة نشاهد قدراً من الرجوع؛ ولكن هل نرى ما يشبه الرجوع إلى الأيام الرسولية، الخمسينية؟ إن الكنيسة - من أسف - قد أضاعت عينيها حتى ولو استردت قليلاً من اعتماديتها الظاهرية؛ ومقدار القوة التي في متناولها - نظير شمشون - ليس شيئاً بالقياس إلى ما كان يريده لها الله، لو لم تنحرف، لو لم تتباعد عنه.

إن بعضاً منا يقدر أن يتحدث عن رحمة الله الهادية، التي ترد النفس. ولكن هل تستخف يا عزيزي بالخطية التي أضلتك وأبعدتك؟ بعض منا يقدر أن يتحدث عن كيف أعادنا الله برحمته؛ أفلم يكن ذلك مصحوباً بفقد شيء يتجاوب مع فقدان شمشون لعينيّه؟ فهل رجعنا

إليه رجوعاً تاماً وكاملاً وكأننا لم ننحرف؟ وماذا عن العمر المضيق؟ ماذا عن تلك المواهب المضیعة التي كانت يمكن أن تتطور وتنمو إلى التمام لمجد الله؟ لقد ضاع هذا وذاك؛ لن نستردها؛ وهكذا نحس أن القوة التي استردناها يصاحبها فقد الإبصار الذي لا نسترده. وهكذا لا نقدر أن نضع وجوهنا في وجه العالم مرة أخرى. وما نحن إلا بقية مسكينة راجعة في رحمة الله، ولكن ببصيرة مقيدة، محدودة.

أما فيما يتعلق بشمشون فإن اعتماديته تنمو. استعاد ضعفه فاستعاد قوته. ولكن ماذا من جانب الله؟ الفلسطينيون أبداً يخطئون؛ الشيطان أبداً يتعدى؛ ذلك بأن الفلسطينيين أرادوا أن يعظموا شخصاً آخر. أرادوا أن يعظموا داجون إلههم؛ وهنا تصبح المسألة لا بين شمشون المسكين العاشر وبين الفلسطينيين، بل بين داجون وبين الله.

يوم أخذ التابوت من إسرائيل، وكان الأمر يومئذ بين إسرائيل والفلسطينيين، سمح الله بسبي التابوت، لأنهم كانوا شعباً مرتداً خاطئاً، ولا حق لهم في التابوت (١ صم ٤). ولما أدخل التابوت إلى بيت داجون، وُضع أمام داجون - كنوع من الإقرار بسيادة وأسبقية داجون - حينئذ كان لا بد أن يتكلم الله لنفسه، كعاداته، ويتهاوى داجون محطماً (١ صم ٥). وهكذا هنا: شاء القوم أن يصنعوا احتفالاً لداجون وينسبوا إليه الفضل في انتصارهم على شمشون؛ وكانوا بذلك يتحدثون الله؛ ومن ثم كان لا بد أن يتكلم الله؛ وقد تكلم، وبأمدى كلامه!

تجمعوا في جماهير غفيرة ليعيدوا لداجون؛ ودعوا شمشون ليلعب لهم. وبأله إسفاً انحط إليه شمشون، حتى يلعب للفلسطينيين. وهوذا - أخي - رجل موهوب؛ فصيح؛ له دراية بالكتاب؛ ينافق الروح العالمية في الكنيسة المعترفة! أراه يستخدم فصاحته، ودرايته الكتابية: كل هذه يستخدمها: لأي شيء يا ترى؟ يبدو لي أنه إنما هو يطحن للفلسطينيين أو يلعب لهم. وكم من رجال يا أخي يبدون شماشنة أصليين، ولكنهم في واقع الأمر عبيد للفلسطينيين، تاعسون فاقدو البصر.

هلا سمحت لي ببضع كلمات قد لا تروقك في كثير لكنها صادقة؟ إن الله في رحمته العظيمة قد أعاد لنا في هذه الأيام الأخيرة مجموعة من الحق الغالي. ولست أشاء أن أخصص، بل إنما قصدت أن أذكركم بأن هذا الحق قد فتح لنا كتبنا المقدسة. فاستخرجنا من كنزه جددًا وعتقاء، لبنيان قديسي الله ومسرتههم. وقد أفادت الكنيسة كلها بخدمة الحق هذي، بطريق مباشر أو غير مباشر.

الحق في البداية احتتمل عار المركز الذي وضعه الله فيه. لكن الأمور تغيرت. فإن حقيقة مجيء الرب، وحقيقة كمال مركز المؤمن في المسيح، وحقيقة الدينونتين المختلفتين للأشعار، وحقيقة الطبيعتين في المؤمنين: كل هذه الحقائق أصبحت - ماذا أقول؟ - شعبية. كثرت الكتابات عنها وذاعت، وجماهير ممن لا تعرف المصدر الكنسي لهذه الكتابات أفادت بها. هذا نشكر الله من أجله، وبكل إخلاص.

لكن تأثير هذا الحق - في البداية - فصل الذين قبلوه، فصلهم عن العالم وعن كنيسة العالم. قاد أشخاص تابعيه أن يروا أنهم خارج النظام الذي - كنظام - كان فلسطينياً؛ كان ديانة جسدية. فهل الحق يفصلنا نحن الآن؟ إن لم يكن يفصلنا، أفليس معنى هذا أن القوة الممنوحة من الله نستخدمها في الطحن للفلسطينيين؟

أنت تفهم أنني لا أتكلم عن شعب الرب العزيز، بل عن أنظمة طالما قيدتهم واستعبدتهم. ولكن ألا يصيبنا جانب من المسؤولية؟ ليس من حقنا أن نُقحم الحقائق الكنسية؛ ليس من حقنا - كذلك - أن نرفض تقديم حق الله حيثما وُجدت أذن لتسمع؛ بيد أنه يجب ألا ننسى أن الحق يحرر من أخطاء الفلسطينيين، متى قبله الإنسان على صحة. لنع هذا، وفي صلواتنا لنطلب من الله قوة تخلص شعبه الخاص. وحذار أن نكتفي بإقامة نظام عالمي إذ نجعل الحق شعبياً.

على أن الله حينئذ يتدخل؛ وعن طريق هذا الإنسان بالذات الذي يتجلى ضعفه الآن بأكثر وضوح. لقد انسحق، وانتهى من ذاته؛ وحينما كان يكشف عن قوته أمام الفلسطينيين كان لسان حاله يقول: لا بد أن أتحرر من هذا الاستعباد. وإلى ذلك سبيل واحدة: أن يتحرر هو من نفسه. إذ انتهى شمشون من ذاته، انتهى من تلك العبودية. ألقى بثقله على الأعمدة، لأن هيكل الفلسطينيين خلا من عمودي ياكين وبوعز، ومن هنا لم يقف على قدميه، كما وقف هيكل الله بفضل الحقيقة الأبدية الكامنة في معنى العمودين: "هو يُقيم"، و"فيه القوة". أمسك عمودي بيت الفلسطينيين وانحنى، كأنه يقر بغبائه المطلق؛ فمزق الكيان التاعس برمته. انسحق هو تحت الثقل، كما انسحق تحته أعداؤه كذلك.

ولكن خطير يا أخي التضحية بحياة الرجل بجملتها. لقد انكسر؛ خلص كما بنار. كل شيء ضاع، وهو إنما قهر الفلسطينيين في موته. السلاح الذي قتلهم، قتله هو بالتمام.

ولكن عودة. في نهاية القصة نجد الدرس عينه الذي طالما شددنا عليه: وهو أننا إذا أردنا أن نكون منصورين حقًا، فلتكن نُصرتنا أولاً على الذات؛ فلما انتهى شمشون من شمشون - وكان ذلك من أسف في ختام حياته - انتهى كذلك من قوة العدو. وما الذي يجعل فراش الموت للمسيح أمرًا نادرًا؟ فالناس يتحدثون عن الميتة السعيدة كأنها شيء غريب. وكان خليفًا أن تكون شيئًا مألوفًا لانطلاق شعب الله إلى الرب. وأعتقد أننا كثيرًا ما نرى مسيحيين لا ينتهون من ذواتهم إلا وهم على فراش الموت. إن شخصًا كهذا قضى عمره كله في مسيرة العالم، إلى أن وجد نفسه في مواجهة مع المسائل الأبدية، فانهى من ذاته، وانتهى من حياته. وعلى مرأى منا تلمع نفسه المتحررة وهي صاعدة إلى الله.

وكان ينبغي أن يحدث هذا قبل الآن. كان ينبغي أن نصل إلى فراش الموت قبل هذا الوقت بطويل زمن. كان ينبغي أن ننهي من الذات قبل هذا الأوان بكثير. إن نهاية الذات يجب أن نصل إليها عند الصليب؛ وهناك يجب أن نقيم، حاسبين أنفسنا أبدًا أموالًا للخطية، ولكن أحياء لله في المسيح يسوع. فلنصل إلى النهاية، لا عن طرق العناية، ولا عن طرق يد التأديب الإلهية. لنصل إلى النهاية، ليس كما وصل إليها شمشون، بسحق حياتنا، بل في كل هدوء وطواعية؛ وبالإيمان نطبق الصليب على كل ما من الإنسان العتيق، فيحيا: ليس أنا الذي يحيا، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ. ومن ثم تتحول دفعة التاريخ بالنسبة لنا فنبدأ من حيث انتهى شمشون. نبدأ بموت الذات؛ وبالتبعية ننهي بانتذار صحيح بحسب مقاصد الله.

لقد تتبنا هذا الإنسان المسكين مبتدئين بمقاصد الله إزاء ما ينبغي أن يكون؛ وسرنا في تاريخه، ورأينا في ذلك التاريخ إخفاقًا في تنفيذ مشيئة الله في الانفصال عن العالم. وإذا وصلنا إلى النهاية نكتشف سر هذا جميعه: أنه لم يكن قد انتهى من ذاته. ولا تدع زلزلة هي التي تجعلك تنتهي من ذاتك. بل امضِ إلى غرفتك، إلى مخدعك، واحمل معك حق صليب المسيح، واسأل الله بالروح القدس أن يجعل ذلك حقيقة عملية في نفسك حي لا تتعلم الدرس في مرارة الاختبار؛ بل بحق الله تتعلم معنى القول «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غل ٢: ٢٠).

الأصحاحان السابع عشر والثامن عشر

تطور الوثنية

قد فرغنا من دراسة تواريخ عديد من الإنقاذاات التي أنفذها الله لشعبه عن أيدي القضاة الذين أقيموا لذلك الغرض. وفي اعتقادي أنك توافقني على أن آخر أولئك المخلصين كان له من تلك العملية مجرد الاسم "مخلص - قاض". وكل ما في الأمر أنه كان موصول التاريخ بالقضاة السابقين، باعتباره المحصلة النهائية للضعف الذي كان متجليا في مستهل التاريخ في أولئك الذين أقامهم الله.

هذا الضعف وصل إلى الذروة في شخص اشتهر بقوته؛ بيد أن تلك القوة لم تعمل شيئا فعليًا في خلاص شعب الله، بغض النظر عن معرض القوة التي كان في مقدورها العجائب، لو أنها استخدمته بالوسيلة الصحيحة. فقد نستخدم قوة الله بطريقة مغلوطه؛ وكم رأينا أشخاصًا زودتهم النعمة في غناها بمواهب وكفايات معطاة من المسيح، وأسأوا استخدامهما إما لتعظيم أنفسهم، أو لتبديدها - بطريقة ما - بحيث لا تجدي نفعًا في بناء قديسي الله.

بشمشون تنتهي قصة تلك الإنقاذاات؛ فلم يعد سفر القضاة يحدثنا عن خلاص أو مخلص. فقد تدرج الهبوط، وانتهى بأسر المخلص ذاته عوض أن يسبي سبيًا، كدعوة دبورة لباراق في مستهل تاريخ تلك الخلاصات. ففي بكور ذلك التاريخ كانت تلك الترنيمة وهي - كما قلت وقتها - الوحيدة في السفر بأجمعه. ولعل عصر دبورة وباراق كان ألمع عصور تلك الحقبة برمتها. أما الآن فلا ترنيم، بل آهات الأسير السجين الذي انتهت حياته بانتهاء آخر عمل قام

به، لم يشأ أن يخلص به قديسي الله، بل أن يثأر من أعدائه من إبصاره الضائع.

والآن قد وصلنا إلى الجزء من السفر الذي يمتد من الأصحاح السابع عشر حتى الختام، وهنا نجد أسلوبًا جديدًا للعلاج. فلم تعد القصة بعد قصة انحلال إسرائيل واستعباده في أيدي العدو؛ ولا انحطاطهم واستصراخهم لله في طلب العون، وإقامة مُعين يأخذ بأيديهم مع عرض الخلاص الذي أتته. لم نعد نقرأ شيئًا عن هذا بعد؛ وإنما لنا - في قسمين رئيسيين - تصوير كامل للحالة النفسية للشعب الظاهرة في انحرافهم عن الله، باعتبار ذلك يمثل جذور المشكلة، ثم غدرهم بإخوتهم والفساد الأدبي الذي أثمره.

ولا أريد الآن أن أتحدث عن الجزء الثاني، أي علاقة الشعب أحدهم بالآخر إلا بأن ألفت القارئ إلى هذه الحقيقة وهي أننا كثيرًا ما نقلب الأوضاع. فنعطي اهتمامًا أخرى للثمرة أكثر من اهتمامنا بالأصل الماكر الدفين. وكل من يقرأ أحداث خاتمة السفر لا يسعه إلا أن يندى الجبين من رفاقه، إن لم أقل من الشعب الذي دُعي باسم الرب. غير أن الظلم والفساد اللذين اتسمت بهما معاملاتهم أحدهم للآخر، كان منبعه علاقة الناس بالله. ومن هنا نقرأ عن هذا أولاً.

هو تاريخ الوثنية وقد دخلت بين الشعب كنظام مألوف. وأنت تلاحظ أن هذا التاريخ يمتد بحيث يشغل زمن القضاة كله. والواقع أن هذه الوثنية لم تتوقف إلا في أيام صموئيل النبي، قبيل إدخال الملكية. فقد رأينا طلائعها في تاريخ دان. بيد أن ما نقرأه هنا ليس شيئًا جاء في أعقاب زمن شمشون. لأن الأحداث هنا ليست مرتبة ترتيبًا تاريخيًا، بل ترتيبًا أدبيًا. أمامنا موضوع جديد هو تاريخ الشعب الداخلي، بينما يطالعنا الجزء السابق بتاريخه الخارجي. في الجزء السابق قرأنا عن الاستعباد من الخارج والتحرر منه؛ والآن نقرأ عن حالة القلب من الداخل، تلك الحالة التي كانت في ردايتها أقسى من الاستعباد الذي قيدهم به العدو من الخارج.

الوثنية هي الموضوع الذي سنتأمل فيه. بيد أنها ليست وثنية عبادة البعليم والعشتاروث، آلهة الأمم الذين سكنوا في وسطهم أو الذين كانوا من حولهم؛ فنحن عتيدون أن نجد آلهة من صنع وطني؛ وعن قيام الوثنية، وتقدمها وتطورها: وثنية مارسها شعب عمل على الاحتفاظ بالأسماء الصحيحة، وعلى علاقتهم الشكلية بالله.

لم يكن ارتدادًا بمعنى التكرار لكل ما يدعى إلهًا. لم يكن هو العدو الخارجي آتيًا كطوفان، يحو كل أثر لله ولسلطانه. إنما أناس - إسرائيليون جنسًا، استخدموا اسم الرب بورع،

واستعانوا بخدماته - أدخلوا نظامًا من عندياتهم، قنوا به اسم الله القدوس.

وأنا على يقين من أن معرفتنا بكلمة الله تكشف لنا أن هذا الشكل من الوثنية، مع أنه أكثر من شريكه خبثًا، هو أخطر منه بسبب هذا الخبث بالذات. فإن الشيء الذي ينساب سهلاً بين شعب الله المعترف وكأنه هو مشيئته تعالى، أمعن في الأذى مما يحمل على جبهته أسماء التجديف، بحيث يتسنى لكل من يراه أن يتبين فيه بديلاً عن الله.

هذا ما سنراه هنا؛ وإننا لواجده في الجزء الختامي من السفر، ومنه نطل على حالة نفسية كانت سائدة، غير محكوم عليها من الشعب خلال الفترة كلها، وقد أثمرت وبسرت ذلك الارتداد المخيف، الوثنية الخارجية. هنا حالة نفسية دفينية جعلت الوثنية شيئًا ميسورًا، وهي التفسير والتعليل لقوة العدو.

والآن هيا بنا نتدارس ما وصفناه قليلاً ونرى كيف يبدأ. وإن العين لتقع على بضعة مشاهد غاية في الإذلال، ومع ذلك فهي المميز للوثنية. فهوذا غلام يسلب أمه، والأم تلعن من سلبها الألف ومائة شاقل؛ دون أن تعلم أنه ابنها الذي سلبها. فقد سلبها هذا القدر من الفضة وأخفاه؛ ولكنه رعبًا من اللعنة خشى أن يستبقيه فترة أخرى، ومن هنا فقد أعاده إلى أمه. وإذا بتلك الأم التي منذ لحظة لعنت، تعود - وفي كثير من التقوى - لتبارك، ليس لأن ابنها ندم ورد المسروق، بل لأنها استردته. تبارك ابنها من قبل الرب، وتخبره بأنها قد كرست الفضة للرب لعمل تمثال منحوت!

إنها لا تمنح الفضة كلها، فإنك لن تجد أية وثنية، أي إله نقيمه بأيدينا، يكلفنا كل شيء. ومهما تكن دعوى ذلك الذي أقمناه في مكان الله، فإنه لن يكلفنا ثروتنا كلها؛ هذا لنكن على ثقة منه.

خذ نظام روما ذاته. إنه يضع يده على كل شيء ويدعي ملكيته إياه؛ ولكن ضع في بالك يا عزيزي أن أشد المخلصين للنظام أنفسهم يعلمون جيدًا أنهم إنما دفعوا اليسير جدًا مما يملكون، لقد دفعوا فقط مئتي شاقل فضة من الألف والمئة شاقل الفضة. إنهم يعطون من أموالهم بسخاء؛ كرماء في ولائهم للنظام. ولكن حقيقة الحال أن هناك قدرًا كبيرًا من إرضاء الذات مسموحًا به. فالرجل الذي يبكر جدًا في شهود القداس، مسموح له أن يفعل ما يشاء طيلة اليوم؛ والاشخاص الذين يتدينون خلال صوم الأربعين يومًا، بوسعهم أن يكونوا على

النقيض بقية العام، وهكذا.

فالوثنية إذًا لا تقدم كل ما لديها لتصنع إلهًا، وإنما تعطي فتاتًا، وتضيف إليه قدرًا من نشاط الاعتراف لاستكمال النقص في التكريس. إن روما تطالب بكل شيء من أجل آلهتها الكاذبة. تطلب لها كل شيء لكي تسوّغ لنفسها أن تفعل ما تشاء.

ولنلاحظ جيدًا مَنْ كان هذا الإنسان. كان رجلًا من جبل أفرام، اسمه ميخا. ولك أن تفكر في أن رجلًا يحمل هذا الاسم، يجب أن يكون دليلًا ضد كل أشكال الوثنية. اسمه يترجم "مَنْ مثل الرب؟" وهذا الاسم كان من شأنه أن يقرر ويسوّي أية مشكلة عن الوثنية.

أخذت الأم مائتين من الفضة المستردة، وصنعت تمثالاً منحوتًا، وبعدما أقامته اختفت - كما يبدو - من صفحات التاريخ بعد ما أظهرته من الغدر وعدم الولاء، وكيف كانت على تمام التناقض مع الأمانة في إسرائيل، ولو مع أم شمشون. وقد أقرها الابن في هذا جميعه، حيث نراه يأخذ تمثاله المسبوك المنحوت وقيمته في بيته صمًا.

هو من سبط أفرام: وهي نقطة تستدعي منا الانتباه. فنحن نعلم أن الخيمة كانت مقامة في أفرام في شيلوه. هو السبط الذي يمثل أنشطة الحياة الإلهية بالمباينة مع يهوذا الذي يمثل حقائق الحياة الإلهية. والحق الإلهي ينبغي أن يكون قاعدة السجود الإلهي؛ وهكذا ترى أن الأمور في إسرائيل لم تأخذ استقرارها في مركزها الحقيقي حتى تخلى الله عن شيلوه - كما نقرأ في المزمور - وتخلي عن سبط أفرام واختار صهيون التي أحبها قائلًا «هذه هي راحتي إلى الأبد؛ ههنا أسكن لأنني اشتيتها».

إن يهوذا يمثل الحق الإلهي والحمد أو السجود الذي ينطلق من قلب استنار وامتلأ بالحق. أما أفرام. ومعناه الإثمار، فيمثل سلوك الحياة الإلهية ونشاطها الذي هو ثمرة إدراك الحق. وأنت تجد صورة توضيحية في مريم ومرثا. في الأولى نجد ما يتطابق مع يهوذا؛ فهي كانت قد جلست عند قدمي الرب لتسمع كلامه. فهي بهذا الوضع في مكانة من يقبل الحق من الرب، وإذ هي هناك فإنها في الخضوع الصحيح للسيد، تتعلم فكره من نحوها. ولزام على شعب الرب حقًا أن يتعلموا فكره بهذه الوسيلة. أما مرثا فتمثل ما هو صحيح وملائم في مكانه، أي الخدمة؛ بيد أن الخدمة تصدر أبدًا عن الشركة، وإلا فإنها تحسد تلك الشركة وتغار منها. أفرام يحسد يهوذا. وكم من قلب امتلأ بالحسد المرثوي (نسبة إلى مرثا) لأنه ليس في مكان

الخضوع الحقيقي، التعلم الحقيقي. لكن يهوذا أخضع لأفرايم؛ صار أفرايم متسلطاً، ومن هنا ظهر التبرم وعدم الرضى، ولم يصبح المسيح صاحب السلطان في النفس.

هذا فتح الباب للوثنية. فإنه من قلب كثير من حياة النشاط المثمر تنبع الوثنية. هناك تجد ما يميز أفرايم، قدرًا كبيرًا من الغيرة، وقدرًا كبيرًا من عمل ما هو صواب وملائم في ذاته. فإن كل شيء يبدو صحيحًا وملائمًا ما خلا شيئًا واحدًا: سيادة حق المسيح على النفس.

وفي يومنا الذي نعيشه، من المألوف أن نرى كيف يوضع أفرايم فوق يهوذا، كيف نضع نشاطنا المسيحي، عملنا المسيحي - وليس هو دائمًا عملاً مسيحيًا بل نوعًا من الإحسان - وبأمثاله من مختلف ميادين النشاط ننحرف عن الله رويدًا، رويدًا والنتيجة أننا نُعظم الإنسان ونرفعه أمام الإيمان وحق الله.

ولاحظ كيف أن هذا يقود إلى الوثنية. فهنا خدمة: مباركة وصحيحة؛ تعني بأهدافها، لخدمة الناس وأعواز الجنس البشري. هذا النشاط في الخدمة يواصل طريقه. وقد يمتد إلى خدمة التبشير؛ وقد يمتد إلى عرض الحق على شعب الله. على أنه إذا كان القديسون هم الذين نضع نصب عيوننا ونحن نعرض الحق، فذلك من شأنه بكل تحقيق أن ينتهي إلى الوثنية. وإذا رأينا واحدًا منا مشغولاً بالكراسة بالإنجيل، ومستغرقًا في عمله بحيث يدحرج من نفسه مطالب كلمة الله، فهذا يقود إلى الوثنية.

وهكذا تجد أن مواطنًا من جبل أفرايم - رجلاً من السبط الذي يوحى بالثمر والخدمة والعمل - هو الذي أدخل الوثنية بين شعب الله. وإذا تضع في البال كيف أن سبط أفرايم - كالصورة التي رأيناها في جدعون ويفتاح - كان أبدًا يُظهر الغيرة، ويمتلىء أبدًا بالاعتزاز بخدماته، وبفكرة التعالي التي تحكمه، ترى كيف أن الوثنية تسير مع الكبرياء جنبًا إلى جنب، وبطريقة ملفتة.

بيدنا الآن - في ما أعتقد - الخامات والعناصر التي تمكنا من الرد على السؤال: ما هي إذاً الوثنية التي نراها أمامنا؟ إن لم تكن هي - على سبيل الإطلاق - إقامة معبود زائف في مكان المعبود الحقيقي؛ إن لم تكن هي خدمة البعل وعشتاروت؛ فماذا عساها تكون؟ هي - جذريًا - التصريح لنشاط الحياة الإلهية في النفس بالانحراف عن حق الله، وهكذا الخدمة تقود الكبرياء، والكبرياء بدورها تلد إرضاء الذات، وهذه بدورها تشكل وتصوغ أوثانها ومعبوداتها بما يوافق هواها، عوض أن تصوغ ذاتها لتوافق رغبات الله.

والفكرة الجذرية في كل وثنية واحدة تتكرر؛ وأستطيع أن أقول إن الوثنية التي نراها في إسرائيل هي فعلاً الوثنية في الجنس البشري ولو أن هذه أسبق من تلك. الأصل في كل وثنية هو إرضاء الذات، التي على هواها تشكّل الإله والمعبود الذي يستهويها. الوثنية تبدأ بالذات وتشكيل إله، ليس بالضرورة من فضة، ولا من صناعة أيدينا. في هذا القرن المستنير قد تقول إن الخطر قليل جداً في أن يصوغ الشعب آلهة بأيديهم. على أن هناك أداة أكثر مهارة من الأيدي، أعني به ذكاء الإنسان، وحيث يُستعاض بالذات عن مشيئة الله، نرى نشاط الذهن الإنساني يشكل إلهاً يرضيه، وبشكله باسم الرب، باسم الإله الحقيقي.

انظر حوالينا اليوم - مثلاً. انظر إلى تشكيلات أيدي الإنسان حيث تراها في كل مكان. ومن المحقق أنك تلمس خدمة المثال وفي يده آلة، يشكّل تمثالاً مسبوكاً. ولكن أليست جميعها باسم ذاك الحبيب الذي نعرفه؟ ألم يستطع القوم أن ينقشوا اسم يهوه على تماثيلهم جميعها؟ أو لسنا نسمع في يومنا ما تردد في يوم هارون حينما قال للشعب «غداً عيد للرب»؟ ولما اجتمعوا وجدوا العجل الذي صنعه الإنسان، تماثيلهم جميعاً، صورتهم جميعاً. أليس الناس اليوم يسجدون للمسيح فعلاً على طريقتهم، يعبدون إلهاً صنعه بأيديهم، من مخيلتهم، وسموه باسم الإله الحي؟ هنا أنا لا أتكلم عن المسيحية الحقيقية بل عما هو حادث في المسيحية المعترفة. إن الأساس الجذري في دائرة الاعتراف المسيحي هو إحلال النشاط المسيحي محل الإيمان المسيحي. لكن ينبغي أن يكون الإيمان هو الأساس، وحيث لا يكون الإيمان المسيحي أساساً، فمن المحتم أن يكون وثناً من أي نوع، مهما يكن مبلغ النشاط، ولو كان في الواضح نشاطاً مثمرًا لله.

تفاصيل التطور غاية في البساطة. في العدد الخامس نجد أنه كان للرجل تمثال، فاقتضاه الأمر أن يكون له بيت يضع التمثال فيه. وما دام له بيت فلا بد أن يكون أفود أو ثوب كهنوتي وترفيم (تماثيل صغيرة)؛ ويرأس هذه جميعاً كاهن. وهكذا يقيم ميخا واحداً من بني كاهناً، لكنه سرعان ما وجد شيئاً خيراً من الكاهن الذي من إنتاجه، إذ وجد شخصاً هو - جزئياً، على الأقل - كاهن لله.

هنا يأتي اللاوي؛ وهي ظاهرة أو واقعة لها دلالتها. غلام من بيت لحم يهوذا، من عائلة يهوذا. كنا منذ قليل نقول إن يهوذا ينبغي أن يكون في الطليعة. وها رجل يتخلى عن المكان الذي يتفق مع الإيمان بالحق الإلهي، وفي قلق من عدم الرضى يطلب ما هو أفضل لنفسه. وكما نرى في الأيمالك إنساناً يهجر بيت لحم، بيت الخبز، لأنه افتقر إلى الطعام؛ كذلك نرى الشيء

عينه، إنساناً يترك بيت الخبز ليعمل على تحسين ظروفه. وكيف يتسنى لإنسان أن يحسن ظروفه خيراً من البقاء في بيت الوفرة؟ ومع ذلك فهذا هو مسلك عدم الإيمان. فإن القلق الناشئ من عدم القناعة يباعد الإنسان عن البركة، ويضعه يقيناً دون المكانة التي كان يشغلها قبلاً. مضى الغلام إلى جبل أفرام؛ وإجابة لسؤال ميخا عن حقيقة شخصيته قال إنه يسلك على غير هدى، يطلب عملاً حيثما اتفق. فيقول ميخا: لك عندي عمل «أقم عندي وكن لي أباً وكاهناً وأنا أعطيك عشرة شواقل فضة في السنة وحلة ثياب وقوتك». «فرضى اللاوي بالإقامة مع الرجل وكان الغلام له كأحد بنيهِ. فملاً ميخا يد اللاوي وكان الغلام له كاهناً». مهمة يسيرة على ما يبدو؛ رجل يستطيع أن يصوغ إلهاً، في مقدوره حتماً أن يملأ يد كاهن ليعنى بذلك الإله. ويختم ميخا القصة كلها بهذه الملاحظة التقوية «الآن علمت أن الرب يحسن إليّ لأنه صار لي اللاوي كاهناً».

قصة مضحكة يا أخي؛ تأملها بامعان وأنت ترى الحقيقة كلها؛ تأملها، فيسهل عليك أن تطبقها على ما هو حادث حولنا اليوم. فهوذا لاوي قلق، يحاول أن يحسن ظروفه، وهوذا مكان قد وصل إليه؛ موضع حسن. هو مجرد لاوي. ولا ريب أنه في قلقه كان يتمنى لنفسه مستوى أرفع؛ وربما تمنى أن لو كان كاهناً، ليس له الحق فقط في أن يخدم في الأمور الإلهية بل له الحق كذلك في الاقتراب إلى الله، أن يتوسط بين الله وشعبه، وبذلك يكون وصلة شركة. وها قد حانت الفرصة. فقد دعاه ميخا أن يدخل إلى بيته، وأن يكون له أباً وكاهناً. وعرض عليه أن يكون مسؤولاً عن جميع صواحه الدينية، لكي يتحرر هو من كل همّ بشأنها، إذ أنه سيودعها جميعاً لآخر يعنى بها. وحتى يطمئنه على معيشته وعده بمرتب سنوي، وهكذا يكفل لنفسه مورداً متصلاً لفترة طويلة. فهو ضمن راتباً لمدة سنة كاملة بالإضافة إلى قوته وكسوته.

لماذا كُتبت هذه القصة، يا عزيزي، وكأنها نبوءة عما يجري كثيراً من حولنا اليوم؟ أليس كل ما فيها أن لاويّاً يترك المكان الذي له، وفي قلق يحاول تحسين ظروفه؟ وأن عاملاً في ميدان الخدمة المسيحية يجاهد لكي يكون أفضل من عامل، فيترك بيت الخبز: الروحي والزماني؟ وإن هذا العامل يريد أن يشغل مكان الكهنوت، والشعب - من الجهة الأخرى - يؤيده في ذلك المسعى؟ فأنت تعرف أن قلب الإنسان لا يحب أن يكون في صلة وثيقة بالله؛ يحب أن يتوسط له أحد، بينه وبين الله. ومن هنا نشأة الكهنوت؛ جيد - مثلاً - أن يكون للناس واحد منهم يعني بالأجزاء المقدسة والحساسة من الدين، فيوفر لهم الضمير المستريح ليفعلوا ما شاءوا.

نعم، وإنه لشيء غاية في الأهمية أن نرى كيفية تطبيق هذه الظاهرة: علام تنطبق؟
 إن خدمة الكلمة شيء مبارك. لكن لنضع في البال أن هنالك طبقتين اثنتين من الكهنة -
 كما وجدنا في تاريخ جدعون - طبقة ليس فيها سوى شخصية واحدة: رئيس الكهنة؛ وهذا لا
 يجرؤ أحد أن يغتصب مكانه. أما الطبقة الأخرى من الكهنوت فإنها تشمل كل شعب الله.
 «أنتم جنس مختار وكهنوت ملوكي» (١بط ٢: ٩). والطبقتان هما: المسيح وحده، وكل شعبه.
 أما الكهنوت الذي يصنعه الإنسان فيتناول خدمة الكلمة ويحولها إلى كهنوت. كان اللاوي
 في العهد القديم يُعَدُّ الذبيحة لكي يقدمها الكاهن لله؛ وهكذا فكل خدمة صحيحة إنما تقوم
 على إعداد خامات الحق الإلهي لشعب الله لكي يقدموها ذبائح قلبية.

أما الخدمة - أية خدمة - التي تجرؤ أن تغتصب من شعب الله مكانهم بوصفهم كهنة، فهي
 إنما تغتصب من الروح القدس مكانه في قلوبهم. أي نوع من الخدمة يقتحم أقداس قلب
 المؤمن، ويحاول أن يملئ إرادته من حيث السجود، فهذا لاوي يتحول إلى كاهن. واعلم أنه حيث
 يوجد الكاهن صنعة الإنسان، فمن خلفه إله من صنعة الإنسان. ماذا أقصد؟ أقصد أن الذهن
 البشري يعمل على تشكيل إله من ابتكار أفكاره. يأخذ اسم المسيح، يأخذ جانبًا من حقائق
 المسيح، وتعليمه؛ ومن هذه المواد جميعها (ونلاحظ أنه من الفضة كان تمثال قصتنا) يشكل
 ما ليس هو المسيح.

وإنني لأرجو أن تتأمل خدمة أيامنا الحاضرة مما تحمل اسم المسيح: هل هو المسيح الله الذي
 تعرضه الخدمة، أم هو مسيح الإنسان؟ المسيح الذي تشكلت ملامحه في قالب الفكر الإنساني،
 أم المسيح المعروض علينا من روح الله في كلمته؟ ألسنا نرى في نصرانية اليوم مسيحًا يوافق
 أفكار الناس؟ والنتيجة الحتمية أنه حيث يوجد كهنوت بشري، فهناك بلا ريب معبود بشري.
 الإله الذي يعرفونه اليوم، الذي يعترف به الناس اليوم، الذي يعلمون به وعنه يتحدثون:
 ما هو؟ أليس هو إنسانًا؟ تأمل ملامحه وصفاته: هل هو صاحب القوة المطلقة؟ إن شاء
 الناس أن يعبروا عن أفكار قلوبهم يقولون إنهم كائنات صنعوا أنفسهم، هم عمال أحرار، كما يحلو
 لهم أن يصنعوا أنفسهم؛ هل هو إله مطلق القداسة؟ سنرى أن الناس صاغوه، وجعلوا صفات
 قداسته مطابقة لأفكارهم، وليس لما أعلنه الله في كلمته المقدسة. هل هو إله البر؟ الناس

اليوم يصفرون سخرية ممن يقف على المنبر معلناً البر الكامل ودينونة الله الكلي القدرة.

من هنا نفهم السبب في أنك لا تسمع اليوم كرازة المسؤولية، بمعنى أن الناس لا بد أن يقفوا أمام الله، أمام عرش الدينونة العظيم، لينالوا أجر ما فعلوا في الجسد: دينونة أبدية، إذا كانوا خطاة غير مخلصين. من هنا أنت لا تسمع شيئاً عن الدينونة القادمة؛ من هنا محيت تلك الكلمة المُرعبة «جهنم» من قاموس الكارزين. من هنا قدموا الله بهذا الأسلوب الواهن، المتواضع: إلهاً محتقراً من الإنسان، كما يسخر الوثنيون من آلهتهم، ويتصورون أنهم يقدرّون أن يخدعوه. وسفر المزامير يوبخهم أعنف توبيخ حين يخاطب الله قومًا حاولوا نفس المحاولة «ظننت أنني مثلك» (مز ٥٠: ٢١).

هكذا صنع الإنسان إلهه؛ ولا بد له أن يصنع كاهنًا ليأخذ بيده في عبادة معبوده؛ وفي هذا فتح الباب على مصراعيه لكل هذه الوثنية التي تعرف باسم مسيحي. ثم هو بذلك سعيد. يزعم أن عمل الرب في تقدم؛ يزعم أن الرب سيباركه لأن له كاهنًا، ولأن له بيتًا؛ لأن له أفودًا ولأن له تمثالاً يدعوه إلهًا. ما يعوزه شيء، فليسترح مقتنعًا بالواقع.

على أن حالة كهذه لا يمكن أن تثبت أو تتوقف؛ فإما أن تدان، وإما هي إلى ذبوع. قد تأملناها في صلتها بالفرد. ولنتأمل الآن كيف بدأت تنتشر حتى بسطت سلطانها على سبط برمتها، هو سبط دان. وكما أن يهوذا يمثل الحق، الذي هو قاعدة كل حكم بين شعب الله، هكذا يمثل دان تنفيذ ذلك الحكم. دان معناه يدين، وهو يمثل الدينونة في نبوءة يعقوب. «دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل» (تك ٤٩: ١٦). وما له دلالة ملحوظة أن يعقوب تنبأ بالارتداد الذي نرى طلائعه هنا.

في سبط دان نرى شعبًا لا ميراث لهم: عمليًا. ذلك أن هذا السبط لم يمتلك ميراثه. يقول الوحي: «في تلك الأيام كان سبط الدانيين يطلب له ملكًا للسكنى. لأنه إلى ذلك اليوم لم يقع له نصيب في وسط أسباط إسرائيل». لقد احتل الفلسطينيون جانبًا كبيرًا منه، كما أنهم لم يتمكنوا من طرد الأموريين، ولذلك طوردوا إلى الجبال وضُغظوا معًا في بقعة صغيرة فلم يتمتعوا بميراثهم.

الفرصة مواتية لدخول الوثنية، إذا. فإن شعب الله الذي لا يشبع، ولا يتمتع، بكامل الاستمتاع بميراثهم، هم مهيتون بكل يقين للعدو، ولقمة سائغة لهم، يدخل بينهم ويسببهم

ويضلهم. فالقلب الخاوي، القلب الذي أخفق في الدخول إلى نصيبه هو القلب المفتوح لهذه الغزوات. تمامًا كما كنا نرى ما يميز أمة إسرائيل في مجموعها، حيث أخفقت في امتلاك نصيبها، فالقلب الذي لم يمتلئ بما هو ملكه الخاص، الذي لا يتمتع به، مهياً لدخول العدو فيه وجذبه إلى الوثنية. الدانيون يصبحون قلقين، كما رأينا سابقاً في اللاوي «مثل العصفور التائه من عشه هكذا الرجل التائه من مكانه» (أم ٢٧: ٨).

وهناك قصة طويلة عن كيف ذهبوا ليتجسسوا نصيباً آخر لهم. مضوا إلى الجزء الشمالي من الأرض؛ ودلالة الشمال هي التحول عن الرب، أن نعطيه ظهورنا. الشمال هو الجزء السري والغامض؛ وفي الشمال - أنت تذكر - كان يابين متسلطاً، في حاصور. إلى الشمال من الأرض مضوا، وهناك تجسسوا مكاناً لهم بين شعب لم يكن قد انزعج بعد.

لست أريد أن أقول شيئاً ضد انتصارهم على إقليم هو فعلاً ملكهم؛ بيد أن النقطة هي أن نشاطهم لم يكن في نطاق ما منحه لهم الله. فلو أن نشاطهم اتجه ضد الفلسطينيين؛ لو أنهم قنعوا بتوسيع التخوم الموهوبة لهم من الله، لكان ذلك إيماناً. أما هنا، فإذا لم يكونوا قادرين أن يدخلوا ويتمتعوا بما أعطاه لهم الله حقيقة، فقد سعوا إلى موضع آخر ليطلبوا موضعاً أسهل مما كان يحتله الفلسطينيون. وما أكثر ما أنزل شعب الله إلى الحل الأسهل؛ ما أشد ما رغبوا في أن يستقروا في ميراث هو أيسر من الميراث الذي منحه لهم الله. ومع أنه كان ميراثاً وعراً، خشناً، لكنه أنتج أفخر الثمار.

أو ليس مألوقاً في تاريخنا أن نختار ما لا يكلفنا سوى القليل؟ ونحاول أن نواجه الأعداء المستريحين المطمئنين، الذين من اليسير قهرهم؟ بدلاً من مواجهة الذين هم أقوى منا، والذين نهاب قوتهم، والذين - إذا لم نكن في شركة حقاً مع الله - فانهم سيهزموننا في يسر؟ وهكذا ينصرف دان إلى حيث يجد له نصيباً، عوض أن يذهبوا إلى الموضع الذي عينه لهم الله.

إن الأشياء التي تخشاها والتي تعوقك حيث كنت، وتلتف من حولك، وتحول بينك وبين التمتع بما هو لك بوجه خاص: هي الأشياء ذاتها التي عليك أن تواجهها وتقهرها. وإن تاريخ الكنيسة حافل بالقدر الكثير من الانصراف إلى مواضع غريبة. ولست أعني بذلك الارتحال لبلاد غريبة حاملين إنجيل المسيح؛ لكن أهم شيء يا أخي ينبغي أن يضعه شعب الله أمام أعينهم هو أن يتوفر لديهم نشاط النفس في التمتع بما هو من نصيبهم هنا.

فالشيء الذي يقع على مقربة منك، الشيء الذي تتأمله وترهبه والذي يعوقك عن التمتع الحقيقي بامتيازاتك، هو الشيء ذاته الذي عليك أن تغلبه؛ وإلا فإنك مثل دان تتحول من أفقك الخاص وتفتح أبوابك لتقف على مستوى أقل، فيما يتصل بالله وأمور الله. أليس هذا صحيحاً؟ أليست خطورته بالغة بالنسبة لنا؟ أليس أن روح المهادنة والسعي وراء الأيسر من المناهج، هو الذي يفتح الباب لإهانة إلهنا المبارك وعدم طاعته؟

وهكذا إذ يمضي الجواسيس يتعرفون على صوت هذا اللاوي في بيت ميخا. هو كاهن؛ وهم يطلبون الإرشاد على أساس ما أقامه هذا الكاهن. طلبوا التوجيه من إنسان كان قد انحرف عن الطريق الذي دعاه الله إليه. يطلبون الإرشاد من إله هو من صنع الإنسان؛ إله انتزعت عنه كل مؤهلات الحكمة والقداسة والبر؛ وضع مكانه تمثال من وحي خيال الإنسان وفكره، شيء ليس عسيراً على الإنسان أن يطيعه ويتبعه.

وطبعي أنهم يحصلون على التوجيه الذي يعوزهم. فعلوا ما يفعله الناس في أيامنا: يسألون إلهاً هو صنعة أفكارهم. وأنت يا أخي حين تطلب إرشاد الله، هل تطلبه من وثن أم من الله الحي؟ إن مشيئة الله الحي مُعلنة في كلمته. ولكن ما أكثر ما نسمع أشخاصاً يقولون: الرب قادني إلى هذا الطريق أو ذاك؛ الرب وضع في قلبي أن أفعل هذا الشيء. وربما لا يكون هذا أكثر من رغبة دفينية في قلوبهم لكي يعملوا ما عملوا.

إن الله لا يعمل عن طريق العناية فقط، ولا يهدي شعبه عن طريق الإنطباعات التي لا تسندها كلمته. قد تقول: الرب قادني أن أفعل هذا الشيء أو ذاك، ولكن إذا لم تكن كلمته المقدسة هي التي أرشدتك، إذا لم يكن روحه القدوس هو الذي قادك من خلال تلك الكلمة، فاحذر لئلا تكون ميولك هي قائدك؛ وأردأ من ذلك لئلا يكون العدو قد وضع في ذهنك فكرة ما، ورتب الظروف بحيث ظهرت أمامك وكأنها بترتيب العناية. هنالك قدر كبير مما يدعي إرشاداً وقيادة من الرب، بينما هو في الواقع استرشاد لإنسان لاوي في بيت ميخا يأخذ مكان الكاهن؛ استرشاد بتمثال يمثل إلهك - أو إلهي - دون الإله الحي الحقيقي.

ثم يمضون في طريقهم، ليتجسسوا الأرض؛ أما الجو المحيط بهم فيبدو وكأنه في صالحهم، ملائم لآمالهم وانتظارهم. فهنا تسوية سيرة، نصر رخيص. في مقدورهم أن يقوموا بالعمل كله في سهولة؛ فيذهبون إلى الدانيين وجمعون السبط، عددًا كبيراً منهم؛ وبدأون إرساليتهم.

وهنا أيضًا أمور مألوفة لدينا؛ قد تثير فينا ابتسامة حزينة، لولا أن شدة الحزن يزيل تلك الابتسامة. فهذا فريق من الشعب يريد أن يستفيد بخدمات إنسان يخدم في منطقة معزولة نائية. كان كاهنًا لعائلة واحدة. أليس هذا أفضل؟ هكذا يتناقشون: لك عندي يا صاح ميدان للخدمة أوسع. نحن ندعوك لمهمة أخرى؛ ليست مهمة صغيرة، مغمورة، أسرة واحدة؛ انتقل وخذ معك جهازك وارجل معنا لتعنى بسبط كامل. أفليس ذلك خيرًا من منطقة نفوذك الصغيرة؟ أليس خيرًا أن يمتد تأثيرك ليشمل سبطًا من إسرائيل برمته؟

وهكذا، إذ كان صاحبنا اللاوي يتوقع مثل هذه الترقية، فقد سرَّ للصفقة واعتبرها إرشادًا من الرب أن يتسع أمامه أفق الخدمة. وفي عبارة أخرى يحصل على دعوة إلى مكان، مجال الخدمة فيه أوسع، وهكذا عنَّ له أن يذهب. لا أحب أن يفهم القارئ أنني أقول كلمة بمفردها ضد الخدمة الصحيحة للمسيح، الخدمة التكريسية التقوية، مهما يكن اسمها. وإنما أنا أتحدث هنا عن الظروف التي تجعل من اليسير لإنسان أن يقحم نفسه في دائرة الكهنوت، ويغتصب - بين شعب الله - لضررهم، وإهانة إلههم، مكائًا ليس لأحد أن يشغله سوى المسيح. فإننا أمام هذا الاقتحام لا يسعنا إلا أن نظهر كل احتقار، وأن نتجنبه إطلاقًا. فإذا قال الرب عن نظام الإكليروس «الذي أبغضه أنا» يلزم علينا أن نبغضه كذلك، وبكل قوة؛ بوصفه سبيلًا لإقحام الذات في أمور المسيح، وعاملاً على إخلاء مكان الروح القدس.

وبعد المقاومة الغير المجدية من جانب ميخا حيث ظهر له أن السبط أشد منه، وأن وسائل الإغراء التي عرضها القوم أفضل مما كان في إمكانياته، مضى اللاوي إلى ميدانه الأوسع فرحًا أشد الفرح، وحمل وثنيتته، تمثاله، أفوده، وكل جهازه: إلى دان. وإلى يوم سبي الأرض (وبا لها كلمات خطيرة الدلالة)، إلى أن جاء الله في الدينونة، وأخذ التابوت من شيلوه، كان هذا الشكل من الوثنية سائدًا على سبط دان. ساد هناك، حتى خمر الأمة كلها، وفتح الباب لصورة من الوثنية أعمق، صورة هي مجرد وليد لوثنية اللاوي ذاك: أعني دينيك العجلين اللذين أقامهما يريعام بن نباط: واحدًا في أفرام على مقربة من نشأة الوثنية، والآخر في دان حيث كانت نهاية طريقها.

وهكذا تجد الوثنية المطلقة مميزًا لكل إسرائيل المرتد في أيام الانفصال الذي وقع في عهد يريعام بن نباط، وما أشد ما انتشر! لاحظ يا أخي كيف أن نظام الإكليروس اليوم قد خمر بيت

النصرانية كله، إذ ترى كيف أن خدام المسيح (الذين كان يجب أن يكونوا هكذا) قد اندفعوا إلى مكان القدسية الكهنوتية. وإن كان أماننا ما ينبغي أن نتحداه ونتجنبه بكل ما في نفوسنا من نشاط، فهذا الشيء هو ما يناقض حضور الروح القدس في كل مؤمن، ما يناقض كهنوت المسيح الوحيد المطلق في الأعالي، ما يناقض حقيقة المكانة التي صارت لكل مؤمن، مكانة الدخول إلى الأقداس بدم يسوع.

لنتجنبها مهما يكن الاسم الذي نتخلله؛ ولنضع في بالنا أن الكسل الروحي هو الذي يفتح الباب لطبقة الكهنوت. ودعني أخبرك أن الأوثان لا تتسمى دائماً بمسمياتها. ومن السهل أن يكون لنا أصنام، وأن يكون لنا طبقة كهنوت دون أن نتنبه إلى ذلك فلنتحذر من ذلك. والكسل الروحي الذي يجعل الايمان - حتى إن وجد هذا الايمان - يتحمل من مسؤوليته في السجود والتسبيح والشكر، هو الذي يفتح المجال لطبقة الكهنوت، وبالتالي يتيح المجال للوثنية التي نراها هنا.

وهذه الوثنية التي قرأنا عنها إنما هي الصورة الداخلية لما نراه ظاهراً في ارتداد الشعب كله الذي وقع تحت أقدام أعداء الله من الخارج. فإن ضعف حالتهم النفسية هو علة عجزهم في مواجهة العدو.

وفي نهاية القصة (أصحاح ١٨: ٣٠) نعرف مَنْ كان هذا الرجل اللاوي. هو ابن جرشوم بن موسى (وهكذا تذكره ترجمة يوحنا داربي)، وكان هو وبنوه كهنة لشعب الدانيين إلى يوم سبي الأرض. هذا اللاوي الذي اتخذ لنفسه مركز كاهن لخدمة الوثنية، لم يكن إلا سليل موسى نفسه مُشترع إسرائيل العظيم. وبإلهة حقيقة يا أخي! أو ليس صحيحاً، أو ليس مكتوباً في كل عدد نقرأ، «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو: ٣: ٧)؟ ذلك أنه لا يوجد - في النطاق الروحي - ما يسمى بالتسلسل الروحي. الملامح الروحية لا تورث؛ وابن موسى قد يصبح زعيماً يقود في الوثنية، كأبي من أعداء الله، كأبي ملك وثني أغلف.

خطير حقاً أن بني المقربين من الله امتيازاً، بني أولئك الذين استخدمهم الله، ما لم يكن لهم الإيمان عينه؛ هؤلاء البنون قد يأخذون من روحانية أسلافهم تكأة لارتدادهم ووثنيتهم. أو لسنا نراها - هذه الظاهرة - اليوم بين الطوائف والأحزاب الذين يتشدقون بروحانية مؤسسي طوائفهم؟ بروحانية الرجال الذين أحبوا المسيح بحق، وكانوا أمناء للمسيح بحسب النور الذي

كان عندهم؟ أو لسنا نرى قوماً يطلبون التفاضل الروحي لأن آباءهم كانوا أقربين إلى الله؟ هي حقيقة واحدة تواجه هذه المشكلات جميعاً: حضور الروح القدس في وسط شعب الله. فلنذكر هذه الحقيقة. فما بنا من حاجة - شكراً لله - للعودة إلى الآباء. ما بنا من حاجة للرجوع إلى أيام لوثر أو جون وسلي، ولا حتى بولس الرسول (بمعنى واحد). والذي إنما يعوزنا أن الروح عينه الذي عمل في كل خادم للمسيح كان أميناً له في أيام عبرت، الروح عينه الذي تكلم في بولس؛ الذي يعوزنا أن نذكر أن هذا الروح القدس يسكن في كنيسة المسيح اليوم، في كل مؤمن؛ ولهذا فكل مؤمن هو أداة في يد روح الله، إذا استودع نفسه له.

فالروح القدس المبارك هو الذي يكشف لنفوسنا حقيقة ما هو الله، وبذلك يحمينا من الوثنية؛ هو الذي يكشف لنا محاسن وأمجاد كاهننا الحقيقي، المسيح، وبذلك يحمينا من فكرة الكهنوت البشري. وهكذا حينما يتحقق شعب الله حضور روح الله ساكناً بينهم، يجدون الدواء ضد الميل إلى الإكليروسية، وارتباطها بالوثنية التي كنا نتابع آثارها.

ولنضع في البال أقوال الرسول يوحنا الذي أفاض في الكلمة عن المحبة الإلهية والحق الإلهي؛ والذي في خاتمة رسالته التي أفرداها لكشف حقائق الحياة الإلهية للمؤمن كتب هكذا: «أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام» (١يو ٥: ٢١).

لنحاذر، أخي؛ لنكن غيورين لكل ما وهبنا الله من أفكاره. لنكن على حذر من أن نقتطع شيئاً من إعلانات الروح لما هو إلهنا المبارك في كلمته المقدسة؛ إعلان الروح لما هو مسيحنا المبارك، ما هو كاهننا العظيم: فنحفظ من الوثنية.

ومع أننا نبتهج في امتلاكنا جبل أفرام، ولكن لنحذر أن تكون لنا صلة بالسعي وراء شيء آخر؛ نبتهج بنصيبنا في يهوذا فينطلق حمدنا. وهكذا يتربع الله والمسيح - عملياً - في قلوب شعبه، وبين شعبه. وحتى في يومنا يمكن أن نتجنب هذه الأخطار التي كشف لنا عنها. حتى في يومنا، حتى بين جماعة القديسين المستضعفين، يمكن أن يتجنبوا هذه المخاطر الملحة في كل مكان، إذا كان الإيمان يأكل ويتغذى من موارد الله لنا.

الأصاحاف التاسع عشر إلى الحادي والعشرين

الفساد والحكومة العاجزة

أنت تذكر ما قلناه ونحن نتناول القسم الختامي من سفرنا هذا، وهو أن هذا القسم، بعد تاريخ حياة شمشون، لا يسلك المنهج التاريخي، أعني أنه ليس نتيجة تاريخية لما حدث من قبل، وإنما هو نتيجة أدبية. ويصدق هذا بوجه خاص على الأصاحات التي أمامنا الآن. هو عودة بنا إلى الأيام الباكورة لاحتلال إسرائيل للأرض، إلى أيام فينحاس الكاهن الذي جاء الأرض برفقة يشوع. ذلك أن القصة تتبع الترتيب الأدبي، قصد بها أن تكاشفنا بمصدر الفساد، كل الفساد، الذي تفرّع عنه كل الشر الذي قرأناه. وبهذا الترتيب الأدبي تسجل ارتداد الدانيين، الذي أظهرنا على أصل الانحلال: الأدبي والروحي. نعم أن الأصل في هذا جميعه هو الوثنية، هو أن يحتل أي شيء مكان الإعلان الكامل لما هو المسيح.

الوثنية - أبدأ - تأخذ كاهنًا لتقحمه بين النفس وبين الله في صورة أو أخرى؛ ولعله لم يفتنا أن نلاحظ أننا نحن أنفسنا - وإلى حد ما - لسنا بأمن من المخاطر من هذه الناحية. واعلم أن هذا ما أستهدفه، لا أن نستبين أفق السفر وتطبيقه العام، ولا أن نقدح في الآخرين الذين قد لا يتوفر لديهم قدر من النور مثلنا؛ بل إن ما ينبغي أن نستمع إليه هو صوت الله إلينا حتى نتنبه ضمائرنا إلى المخاطر التي تحوطنا في كل خطوة من حياتنا، فإن هناك أخطارًا لا تزال.

قد اكتشفنا - إذاً - الجذور فيما مضى؛ والآن نقرأ عن الثمار: والفكرتان تسيران معًا. والله يقرنهما معًا بطريقة لا يفوتنا معها أن نلمس مدى ارتباطهما. يقرنهما معًا بغرض إلهي،

لكي يثير الرعب في نفوسنا، الرعب من طابع الشر، حتى نقضي على أصل الماراة الذي ينشئ شرًا من هذا الطراز.

ليس في نيتي أن أقرأ عليكم هذه الثلاثة الأصحاحات؛ فإنها تعرض علينا سجلاً فاسداً لا يُنطق بفساده، سجلاً لإمكانات قلب الإنسان، وحياة الإنسان. أصحاحات - لو تدرنا بها أقوم تدريب، لما وسعنا إلا أن نقول: هل من الجائز، أو من المحتمل، أن تكون هذي صورة قلبي؟ هذه هي النقطة؛ لا ما فعل إسرائيل في أيام لم يكن فيها ملك؛ بل الكشف عن إمكانات قلب الإنسان؛ فإن ربنا المبارك علمنا أن هذه تخرج من القلب «من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة، زنى، فسق، قتل...» (مر ٧: ٢١) وكل ما ينجس الإنسان.

وخطوة إلى أعمق: القلب المتجنب عن الله هو الذي يثمر هذه الثمرات؛ ولذلك كانت الوثنية أصلاً لهذا الفساد المخيف. فإن إغفال مطالب الله منا هو الذي ييسر إغفال مطالب الإنسان بالمقابل. فإن دعاوي الآداب العامة، والنبيل وعزة النفس: كلها تنتهي إذا تخطى الإنسان عن الله، وطرحه جانباً.

وهذا عين ما يرسمه أماننا الأصحاح الأول من رسالة رومية. فيه قائمة للجرائم، يندى الجبين منا حياءً ونحن نطالعها؛ وقد أعطيت لنا ليس كثمرة شاذة لخطية الإنسان، بل كثمرة شرعية لإنحرافه عن الله. أعطيت لنا بطريقة أدمجت كل شخص غير مخلص «لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم». والذين لم يتصلخوا مع الله، مَنْ منهم يستحسن أن يبقى الله في معرفته؟ ولا واحد. فما الثمرة إذا؟ أسلمهم لشر يشبه ذاك الذي جلب القضاء على سدوم وعمورة؛ أسلمهم لشر، لا ينطق به، فاسد بهذا القدر. وكأن روح الله يضع الأصل وثمراته جنباً إلى جنب ويقول للناس: انفصلوا عن الله، تطلقوا العنان لكل صور الشر التي في متناول الجسد.

يا له، أخي، درساً مذلاً! ولنضع في بالنا ونحن نفكر في الخطية التي ندرسها الآن، إنها خطية تصدر عن القلب الفاسد، الذي لناه - أنا وأنت - بالطبيعة، ولا يزال بين جنونا. وذلك لم يضعه إسرائيل في البال، وهو أحد الأسباب فيما نقرؤه هنا.

وهو شرٌ ذو طابع مخيف بحيث أن الأمة ذاتها صدمت بسببه صدمة بالغة، ونسيت الدرس الذي ينطوي عليه. وأخشى أن يضع منا الدرس إذا كنا - نظير إسرائيل - نركز أذهاننا على شكل للشر خبيث مخيف، ويفوتنا أن نذكر الإمكانيات عينها التي تنطوي عليها قلوبنا لفعل الشر نفسه. لو فكرنا في الإله القدوس الذي يقيس الأشياء بجرثوميتها، بإمكانيتها، وليس

بإنجازاتها؛ لو تذكرنا ربنا المبارك وما قاله - مثلاً - من أن النظرة تشبه الخطية ذاتها التي كان الفريسيون على استعداد أن يرمجوا التي فعلتها؛ لو وضعنا في بالنا أن الله ينظر إلى القلب كما ينظر إلى الحياة الطاهرة، هل ترانا ننفر من هذه الأمور، ولا نتسامح معها: مجرد الفكر الشرير، ملء أذهاننا بالأفكار الشريرة؟ النفس التي في محضر الله تبغض فكرة الشر قدر بغضها لفعلة الخطية. يا أحبائى، يا متقي الرب، ابغضوا الشر؛ بمثل هذا تقول كلمته. وحيث الحكم الصادق على الخطية فإنه - أبداً - ينظر إلى أصلها في القلب، كما إلى ثمراتها في الحياة.

والآن، وهذا أماننا، لا حاجة بنا إلى التفصيلات التاعسة المخيفة؛ أو ليس أمراً يذلنا أننا - أنا وأنت - نحمل معنا الشيء الذي ما لم تردعه النعمة الإلهية والقداسة الإلهية، يثمر ذات الشر؟ وأنا أذكر لمسيحي قديم أنه وهو يشير إلى السكارى والمجرمين عابرين على مرمى بصره كان يقول: "تلك كانت سبيلي لولا نعمة الله". فهل تستطيع أن تقول أن هذا السجل المخيف هو سجل لك لولا نعمة الله؟ وأن هذه الأشياء - فعلاً - يمكن أن نتوقع صدورهما منا لولا أن الله في نعمته المطلقة تدخل في أمرنا؟ إن القلب ليقفز حمداً وبهجة وهو يفكر في النعمة التي اختطفتنا من براثن فساد أشر وأردأ من العقوبة التي يستحقها الفساد.

شكراً لله من أجل الخلاص من عبودية الخطية، والخلاص من الغضب المعلن على الخطية. لنشكره يا أخي لأن الغضب ضد الخطية هو الرحمة الوحيدة التي يسمح العالم الخاطئ لله أن يقدمها لهم. هو خير ما يأخذون؛ فإنه خير لهم أن يكون لهم غضبه من أن تكون لهم الخطية التي تجلب الغضب. الخير في أن يغلق عليهم بيت السجن حيث - في القليل - تقيد الخطية، من أن يكونوا مطلقي السراح في العالم أحراراً يفعلون الخطية، عبيداً لشهواتهم.

في هدوء دعنا نتأمل هذه الأمور. وأنت في الأصحاحات الثلاثة أمام ثلاث نقاط: الشر، معالجة الشر، نتائج هذه المعالجة.

الشيء يأخذ بدايته من النقطة التي نتوقعها، من حالة التراخي التي تطبع الشعب كله. وهنا - مرة أخرى - لاوي. وأنت تذكر أن الله كان قد وزع اللاويين بين الاثنى عشر سبطاً ليكونوا بمثابة حلقات تضبط وتقسك الشعب في حياة روحية مشتركة، في ولاء لله مشترك، لبيته وخدمته. ولكن يا لإخفاقهم التام الذي لمسناه في لاوي الأصحاح السابق الذي كان خادماً للوثنية حيث قاد سبطاً بأكمله، بعيداً عن الله في الوثنية والتنكر لله.

وهنا لاوي، عوض أن ينشغل في العمل المبارك المكلف به لربط الشعب معاً، إذا به يعمل

على تشييتهم. أو في القليل هو شخص بدلاً من أن يخدم الآخرين، كان هو مخدومًا لأن شهواته الفاسدة كانت تتحكم فيه. تعقّب التاريخ كله وأنت ترى أن ما يميزه هو الانغماس والأحقاء الغير المنطقة. وعلى المدى كله نجد أن حالة النفس المتساهلة، هي التي تفتح الباب للجريمة المرعبة.

كانت لذلك اللاوي سُرّيّة، تركته وعادت إلى بيت أبيها. فمضى إليها ليعيدها، واستسلم للمنادمات، وكان يمضي أيامه في الأكل والشراب. وعند المساء، إذ أخذت ظلاله تتساقط، أسرع فجأة ليعود إلى موضعه، إلى مكان خدمته. وعلى رغم توسلات حميه في البقاء يومًا آخر، مضى وقد مال النهار. وفي الواقع كان ذاك المساء، عليها وعليه وعلى الأمة أيضًا؛ كان المساء يخيم.

مضى إلى ييوس. ولكن لم يُقال إنها أورشليم: إحدى مدن إسرائيل، يمتلكها شعب الله؟ بنيامين كان قد أخفق، والمدينة بنيامينية. أخفق - كما تبيننا في مطلع السفر - في أن يضع يده عليها ومع ذلك فقد وُضع لأورشليم أن تكون مركزًا لإشعاع كل حكم. وسبط بنيامين - رمزًا - هو الذي وُضع له - فيما بعد - أن يمثل المسيح في ملكه وسيادته على الشعب وعلى الأمم كذلك. ومن هذه الناحية كانت صلته الوثيقة بالسياسة والحكم. لكن الحكم أخفق، حينما نرى من بنيامين؛ سيادة المسيح لم تنل حقها من الاعتراف، وفي الموضع الذي كان ينبغي أن تكتب السيادة فيه لبنيامين، نرى الدفة مسلّمة مقاليدها للأمم التاعسين. فكان اليبوسيون، الدائسون، يدوسون كل ما من الله والإنسان؛ وكان اليبوسيون في بنيامين أيضًا؛ وهنا نجد - وبأسف - أنه كان في بنيامين أيضًا ييوسيون دياسة أشر، حتى مما في هذه المدينة.

عبروا إلى جبعة؛ وبعد أن سألوا عنها، وجدوا ترحيبًا واستقبالًا حسنًا في بيت واحد من أفرايم، وهناك تقع جريمة شنعاء كتلك التي وقعت في سدوم وعمورة. وبعد وقوع الجريمة استخدم اللاوي وسيلة مخيفة لإعلام الأمة كلها بما حدث، حين مرّق جسد المرأة التاعسة وأرسلها إلى جميع التخوم، قطعة لكل سبط. وكانت صدمة للأمم جميعًا ضد تلك الجريمة الشنعاء التي ارتكبت في وسطهم.

وأحب أن تعرف ما الذي أثارهم واستفزهم. إن بعثة الشر هي التي أثارتهم، اجتمعوا كرجل واحد، ولماذا؟ لينتقموا من الشر. فالشر إذاً هو الذي استفزهم؛ الشر هو الذي جمّعهم معًا؛ تنفيذ القضاء على الشر هو الذي حرك عضلات أذرعهم ووحد قلوبهم. وما كان الشر

يا أخي وسيلة تربط شعب الله معًا. هل وقعت عينك مرة على قوم كان الانشغال بالشر عاملاً على تجميعهم؟ قد يجمعهم إلى حين؛ قد تكون اجتماعات يسودها الغيظ ضد الشر؛ لكن اجتماعات السخط ضد الشر ليست هي وسيلة الله لربط شعبه معًا. كنا نرسم في بداية اجتماعنا ونقول "أيها القدوس والحق"؛ فالقدوس والحق هو الذي يجمع شعبه ويربطهم معًا. المسيح، القدوس والحق، هو الذي يجذبنا بحبه، وهو الذي يسكننا معًا في نطاق حبه؛ وإذ ذاك يسهل علينا أن نمارس كل اهتمام ومحبة كإخوة معًا.

هذا فيما أعتقد هو الدرس العظيم الذي نتعلمه من الأصحاح التالي. اجتمع الشعب معًا، وكان العامل في جمعهم هذا الشيء الواحد. هوذا شر قد وقع، وإلى أن يُقضى عليه فواحد منهم لن يعود إلى بيته. هل قرأت قط عن اجتماع كهذا في شيلوه لحفظ عيد الفصح؟ هل قرأت أن عيد المظال جمع الأمة معًا في فرح شامل؟ لقد طالما كان الله يدعوهم سنة بعد سنة ليصعدوا ويحفظوا العيد، ليصعدوا ويتمتعوا بالشركة المقدسة في أمورهم. لكنهم فضّلوا السكنى بين الأمم. اختاروا الاستقرار إلى جنب أعدائهم، وأن يتعلموا طرقهم. إنما حين صدموا بذلك الفساد الذي لا يُنطق به، تدافعوا معًا ليس بعامل النعمة، ليس بجواذب الحب والخير والبركة الغامرة، كما نرى وصف سلة أول الأثمار في السادس والعشرين من التثنية. شيء من هذا لم يجذبهم معًا، إنما الذي جذبهم شرٌ وقع، فظهروا مؤقتًا بمظهر الأمانة العجيبة لله.

وأحب أن تلاحظ شيئاً؛ لا حديث مطلقاً عن الفعلة ذاتها؛ لا تعليق بشأنها. وليس الله بحاجة إلى تكييفها. حتى الإنسان الطبيعي يثور من هذه التفاصيل التي يسجلها المؤرخ. فلا حاجة لمزيد من التعبيرات والأوصاف. إنما الشيء الذي ينبّر عليه روح الله هو الحالة النفسية في بقية الشعب، تلك الحالة التي أعجزتهم عن تنفيذ التأديب الإلهي ضد مرتكبي الجريمة.

ولنتأمل قليلاً في التفاصيل. هوذا شرٌ قد حدث في جبعة بنيامين، إحدى مدن ذلك السبط. إن سفر التثنية كان قد رسم قاعدة لمعرفة أصل الشر، ومعالجته. فحتم أن تجرى الأمور في هدوء وبعد تفكير معقول، وفي حضرة الله؛ في روح الخضوع لله. لكن القوم اتخذوا أقصر السبل. لم يألّفوا حضرة الله، لم يتعودوا الإقامة في حضرته المقدسة. ومن هنا استهانوا بالأمر، عدّوه هيئاً، بسيطاً. أرسلوا رسالة مقتضبة لبنيامين أن يسلموا القوم بني بليعال، لكي يحاكموهم. كانت رسالة مقتضبة، تركت الأثر المنتظر.

الرسالة أثارت البنيامينيين على إخوتهم؛ لقد دُعي السبط كله ليمثل أمام إسرائيل؛ فقد كان

الأمر - في نظرهم - متصلاً بالكرامة السبئية، فاستعد البنياميون للوقوف ضد إسرائيل جميعاً. كلا الفريقين وضع على الرف مسألة بني بليعال، أسقطاها من حسابهما. ولم نعد نسمع شيئاً عن الفعلة ذاتها. أو يخطر ببالك أنه لم يكن عند البنيامين قدر من الضمير مثل ما كان عند بقية الأسباط؟ ألسنت معي في أنهم لو كانوا قد تناولوا الموضوع في خوف الله، واتكالا عليه، لوجدنا في بنيامين الاستعداد لتطهير أنفسهم من الفضيحة المخجلة، نفس الاستعداد الذي في بقية إسرائيل؟ ولكن آه من الغلاظة المتعجلة، من العنف الذي يستتر هذه الكبرياء؛ كأني بهم يقولون: إن شراً كهذا لم يكن ليقع في يساكر؛ وأفرايم ما كان ليستبقي حالة كهذه في وسطهم؛ أما بنيامين فيستخف ويتسامح معه. كل هذا استفزاز لأشنع انفعالات القلب البشري؛ وفي الحال ينسى بنيامين الفساد الذي وقع ويقول: سنقف في وجه إسرائيل جميعاً، ولن نسمح أن تدوسنا الأقدام.

يقيناً كانوا مخطئين. ونحن نسلّم أنهم كانوا على خطأ عظيم. فلم يكن لهم حق في أن يصطفوا بهذه الطريقة؛ بل كان ينبغي أن يتضامنوا مع إختهم في معالجة هذا الأمر المرعب. لكن الخطوات التي اتخذت من بقية الأسباط للمعالجة الفورية، وجفوة البر الذاتي التي أظهروها، جعلتهم ينسون مرتكبي الجريمة. لم يُعَنِّهم أن يحاكموهم، فكان اهتمامهم منصرفاً إلى محاكمة بنيامين ذاته. والتصرف على هذا المنوال، استنفار كبرياء القلب الطبيعي وعصيانته، هو الوسيلة المحققة لظهور النتائج عينها، روحياً، كما وجدنا النتائج حرفياً. فهناك من يأخذ بعنق الشعب وبهزه لينفضهم من الشر. هناك من يرضّ خطية الإنسان رضاً، خطيته التي قد تكون له صلة بها ليس شخصياً ولكن على مستوى المسؤولية؛ ويرضونها بطريقة تمسّ كبرياءه، فتخلق في نفسه روح العداء الطبيعية، بدلاً من أن تظهر له الشر الذي عليه أن يدينه ويرفضه. فلنتعلم هذا الدرس. لا نكن كإسرائيل، كل غايتنا أن نستفز المقاومة، عوض أن نقود الشعب في مخافة الله لإدانة الشر. لست بحاجة إلى التطبيق؛ فأنا واثق أن التطبيق سهل بما يكفي، ونستطيع - في أذهانتنا - أن نطبقه بسهولة على أمور كثيرة تحدث بين قديسي الرب.

اجتمع إسرائيل معاً؛ اتحدوا أخيراً وتضامنوا كما قلت. وما لم تستطيع النعمة تنفيذه، استطاعه الحكم أو الرغبة فيه. وأنت تلاحظ أن هؤلاء الناس كانوا متعطشين للدم، وذلك ما كان يميزهم. لا ألمس منهم رعباً من الخطية، ولا روحاً منسحقة لسبب ما حدث في إسرائيل. فإذا كانوا يتمسكون على بنيامين بقسوة من أجل مسؤولية، فلماذا لا يعملون ذلك من أجل

الأمة كلها. إذا قالوا إنه من الفطاعة بمكان أن يقع مثل هذا الشر في بنيامين، فلماذا لا يقولون إن حدوثه في إسرائيل شنيع كذلك؟ آه، هناك الفخ: الكبرياء والبر الذاتي في قلبهم.

لنلق نظرة على الأصحاح الخامس من كورنثوس الأولى، حيث ترى خطية العهد الجديد المقابلة لخطية القضاة، إلى حد ما. فقد كان بين الكورنثيين فساد أدبي غاية في الانحطاط، لم يكن ليحدث - كما يقول الرسول - ولا ليسمى بين الأمم. وماذا كانت حالة القديسين؟ العدد الثاني يصورها لنا. «أفأنتم منتفخون وبالحري لم تنوحوا، حتى يُرفع من وسطكم الذي فعل هذا الفعل؟» كانوا منتفخين، ليس على الخطية، بل لأنهم لم يرتكبوا الجريمة؛ انتفخوا، وفي تصورهم أنهم يحمدون الله لأنهم ليسوا مثل ذاك الذي وقع فيها. وبعبارة أخرى: عوض أن ينسحقوا وينكسروا على وجوههم قدام الله صارخين إليه معترفين له بحالتهم الأدبية التي يسرت وقوع مثل ذلك الشر، انتفخوا؛ واصلوا مسلكهم، بمواهبهم، بكل شيء من هذا القبيل، وبذلك لم تكن لهم القوة لمعالجة الشر.

قد تقول إن إسرائيل في سفر القضاة كانوا خيرًا من أولئك. هم - في القليل - حاولوا أن يعالجوا الشر؛ لم يتهاونوا معه لحظة. بل كانوا منتفخين لموقفهم بالنسبة إليه؛ أرادوا أن يظهروا غيرة للرب، إذ تجمعوا أظهروا تعطشًا للدم لا غيرة لمجد الرب.

وقد تركهم الله وشأنهم؛ لم يوقف ما كان واضحًا، لم يعمل على تعطيله أو تعويقه؛ وها هم يريدون أن يدخلوا الله في الأمر؛ بيد أن سؤالهم الأول لم يكن: هل نصعد؟ بل: من يصعد منا أولاً؟ استقر رأيهم أن يصعدوا ضد بنيامين؛ اعتزموا الانتقام من السبط بأكمله؛ والشيء الوحيد الذي أرادوا أن يخبرهم الرب به هو: من يصعد أولاً؟ وقد أخذهم بقولهم فترك يهوذا يصعد. كان عند بنيامين ٢٦ ألف محارب؛ وكان لدى إسرائيل قرابة أربعمئة ألف. وبدو أن بنيامين قتل ما يقارب عددهم: قتلوا ٢٢ ألفًا من إسرائيل.

هل الله في صف الخطية؟ هل هو في جانب إهمال القضاة عليها؟ كلا؛ إنه إله مقدس؛ وقداسته أبعد بمراحل من أن تصل إليها قداستنا. إن قداسته تسبب أغوار قلوب أناس يبدو أنهم مبرأون، وتقودهم للإحساس بذنبهم، كما تقود السبط، ومرتكبي الجريمة. ومن هنا تركهم يتهاونون أمام الذين تسلحوا بالكبرياء ضدهم.

وما أكثر ما يندحر شعب الله، حتى أولئك الذين على الجانب الصائب. فهناك جانب

صحيح وآخر مغلوط، وقد تسمع أحياناً من يقولون: أليست تلك الوجهة خاطئة؟ أليس ذاك الجانب مغلوطاً الوقوف فيه؟ هو كذلك؛ وليس من يجرؤ - ولو إلى لحظة - أن يقف في الجانب المخطئ. حسنٌ، أليس هذا هو الجانب الصواب؟ أليس الصحيح أن نرفض ذلك الشر؟ وهكذا. ولكن ليس كذلك فوراً. فلكل أمر ثلاثة جوانب؛ أكثر من جانبين في أغلب الأحيان. الناس أحياناً لا يرون سوى اثنين، فإن كان صاحبنا هذا على صواب، فإن صاحبنا الآخر مخطئ. والعكس صحيح. ولكن أليس هناك جانب آخر؟ هب صاحبك كليهما على خطأ. هذه هي النقطة. والسليم أن هناك جانباً لفلان، وآخر لفلان، وهناك جانب الله؛ والأمر هنا أن نأخذ جانب الله ولو بدا في الوهلة الأولى جانباً بطيئاً؛ دون ذلك الجانب الخشن، الحكم بغير مبالاة على الشر، ذلك الجانب الذي، في قسوته وعنفه، يقلل في النفس الإحساس بالخطية. وهذا هو الدرس الذي يريد الله أن يلقنه للأمة. إنه سيربهم خطيتهم، سيشعرهم بأنهم تحت حكمه بسبب الحالة، كما أن بنيامين تحت حكمه لأنه أجاز هذا الأمر في وسطهم. وهكذا تهاووا أمام البنيامين، وبهذه الطريقة قُتلوا.

أعادوا الكرّة فصعدوا في اليوم التالي؛ شجعوا أنفسهم؛ فقد كانوا بحاجة للتشجيع. على أنه كان خيراً لهم أن يقتدوا بدادود حين قال الشعب برحمه؛ فتشجع بالرب، تشدد به. وهنا نقرأ أن الشعب تشدد واستأنفوا القتال في موضع اليوم الأول ذاته؛ قيل أولاً إنهم تشددوا؛ ثم اصطفوا للحرب؛ ثم عبارة أخرى وكأنها نوع من التذليل، وكأنها تحكي عن شيء كانت له في قلوبهم منزلة ثانوية «ثم صعد بنو إسرائيل وبكوا أمام الرب إلى المساء وسألوا الرب قائلين: هل أعود أتقدم لمحاربة بني بنيامين أخي؟».

هنا شيء من الليونة؛ إقرار بوجود تدخل الرب معهم. هم أولاً لم يكونوا محتاجين للرب على الإطلاق. فقد يقول البعض: هذه قضية لا داعي للصلاة بشأنها؛ لا داعي لإزعاج الرب؛ أليست هي قضية واضحة؟ كل ما يعوزكم أن تسألوا الرب من أجله هو أن يهديكم فيما يتصل ببعض التفاصيل الهينة: من يقوم بالعمل - مثلاً - من يكتب الرسالة؛ وهكذا. ولكن آه، إنك لا تعلم مبلغ حاجتك إلى الله؛ ولذلك فإنه يعلمك حاجتك إليه. سترى نفسك هارثاً من وجه مرتكبي الشر، ولا قوة لك لإدانته. ويظل الشر رافعاً رأسه، على رغم غيظك منه وسخطك عليه. وهذا يذلهم؛ وهنا بكوا أمام الرب لسبب ما أصابهم من خسارة؛ بكوا - ولا ريب - من أجل الذلة التي لحقتهم، لأن الكبرياء الجريح يستدر الدموع أسرع مما يستدره الحزن والرثاء.

لكن الأوتار قد مُسّمت على أية حال؛ فإن أخاهم هو الذي يتجمعون لقتاله. إنه يستحق الإدانة، لكنه أخوهم. «هل أعود أتقدم لمحاربة بني بنيامين أخي؟». بكوا، وفي بكايتهم بدأوا يدركون أنهم يقتضون من أخيه. فيقول الله «اصعدوا». إنه ليس إلهًا قاسيًا؛ بل هو المحبة المطلقة؛ ولكن مرة أخرى يهرب الشعب الذي بكى وصلى، يهرب الشعب الذي يبدو أنه على صواب، ويقع منهم أكثر من ١٨ ألفًا في التراب.

هل نسي الله؟ هل هو تعالى يقف مرة أخرى إلى جانب الشر؟ هل تبرم؟ هل نستخف ولا نبالي بالشر؟ كلا يا أخي. ولكن ألسنا نسمع، كما في دوى الرعد، أن ما يريده الله أكثر من إدانة الشر في الآخرين هو أن ندينه في أنفسنا؛ هذا ما يريده إن شئنا أن نكون على استعداد، إما كأفراد، للحكم على الشر؛ أو - كجماعة من شعبه - لإجراء التأديب الكنسي؛ أن نحكم على ذواتنا فيتوفر لنا التمييز الروحي والقدرة الروحية. وإننا لفي حاجة إلى ذاك الصوت المدوي.

ولئن كان هناك مميّز واحد يطبع نصرانية أيامنا الحاضرة؛ فهو أن كل واحد يعمل ما يحسن في عينيه. وبذلك لا يدان الشر. قد لا يكون من الفساد بالدرجة التي نجدها في سفر القضاة، ولو أننا لا نقدر أن نعرف ما يجري في الظلام؛ كما لا أريد أن أضع حدودًا للشر الذي يرتكب تحت اسم المسيح القدوس. ولكن تأمل فساد روما ذاته، وأنت ترى تعبيرًا عن إمكانيات القلب البشري، في مسلك من هذا الطراز. بيد أننا نعيش في زمن بلا قوة لإدانة الخطية. كل واحد يمضي في طريقه يفعل ما يشاء. لا قوة لمواجهة الخطية في خوف الله والحكم عليها، بحيث نرى الله عاملاً معنا في ذلك الشأن. القوة يسيرة جدًا لإجراء التأديب الكنسي. وخذ جماعة عادية من المسيحيين: ما المكانة التي يحتلها التأديب الكنسي في وسطهم؟ إذا فعل إنسان شيئًا يُطرد بسببه من النادي الذي يشترك فيه، فإنه يُطرد من الكنيسة؛ ولا أكثر. الشيء الذي يقصيه عن المجتمع المذهب، يقصيه من شركة الكنيسة. ولكن لا أكثر. فقد يصنع كثيرًا من الأشياء على ألا تأخذ الشكل العلني. وهناك جميع أنواع الشر يصنعها المسيحيون المعترفون الذين لهم مكانة مرموقة منظمة في كنائسهم، لكن لا قوة للحكم عليهم. وهذه يقيئًا حالة مرعبة.

ولزام أن يكون في كنيسة الله اليوم القدر من التأديب الكنسي الذي كان في أيام الرسل. وعندي أن القضاة الذي حاق بحنانيا وسفيرة لم يكن استثنائيًا. لم يشأ الله أن ينتقي دينك الزوجين كأنهما المخطئان وحدهما في كنيسته طول التاريخ. إنما قصد أن يعطينا عينة لحكمه على

الشر. خذ خطية حنانيا وسفيرة: أليس فيها ما يرتكبه كل يوم المسيحيون المعترفون، بل وربما المسيحيون الحقيقيون؟ ألا ترى اليوم من يطلبون الصيت بالتكريس وهم دون التكريس؟ ألا ترى أناسًا يعترفون بأنهم سَلَمُوا حياتهم لله، وهم يحتفظون لأنفسهم بجانب منها؟ إن كانت هذه هي الانطباعة التي يريدون أن يحملوها، أفليست هي خطية حنانيا وسفيرة؟ ولكن أين ترى حكمًا على الشر من هذا الطراز؟ وشر من هذا الطراز يحتاج إلى القدر الكثير من التمييز الروحي.

خذ غيرها، العالمية، الطمع، الوشاية، البُطل - الكذب في المعاملات؛ خذها جميعًا، وأين - بين شعب الله - القوة للحكم عليها؟ هل الله في كنيسه يريد الحكم على شر من هذا النوع؟ يقيئًا هو يريد؛ ولكن ما علة ضياع القوة للحكم؟ لا بد أن يكون - قبل كل شيء - حكم على الذات عميق؛ إحساس بخطيتي وتقصيري؛ إدانة لنفسي بأقصى قوة؛ إذا كان قد وُضع لي أن أشارك في إجراء التأديب على أخي. وقدّمنا قال سيدنا: «يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك». مهما يكن نوع الخشبة، فإنها في عيني خشبة؛ ومهما يكن ما في عين أخي، فالذي في عينه قذى، حتى أدين نفسي «وحيثُ تبصر جيدًا أن تخرج القذى من عين أخيك» (مت ٥: ٧).

هذا هو الدرس الذي كان يلقيه الله لإسرائيل كمجموعة؛ وكان يلقيهم إياه عن طريق الخسارة المريرة والحزن. سقط ثمانية عشر ألفًا؛ وها هم يحسّون الأثر. وتلاحظ أنهم مرة أخرى صعدوا أمام الرب؛ وماذا كانت حالتهم وهم صاعدون؟ «فصعد جميع بني إسرائيل وكل الشعب وجاءوا إلى بيت إيل» (ع ٢٦). كان الصعود شاملاً؛ وكان خطيرًا. فلم يكف أن يهتم نصف الشعب ويتدربوا بخصوص الشر. وكذلك الأمر مع الجماعة: فلا يكفي أن يُعنى بالأمر قلة من الإخوة، يعالجونه، يتناولونه، في هدوء كنفر قليل؛ كل الشعب، كل القديسين، ينبغي أن يتدربوا في ضمائرهم بخصوص الأمر. أنا لا أتكلم عن خطية سرية لا يعرف عنها سوى القلة، فيحاولون أن يعالجوا أمرها في خوف الله. وإنما أتكلم عما هو ظاهر ومكشوف. والعلة في ضالة القوة أن كل الشعب، كل بني إسرائيل، لم يتدربوا أمام الله بشأن الموقف.

«كل الشعب... جاءوا إلى بيت إيل» إلى حضرة الله، إلى بيته. إلى الله، إله بيته، كما وجده يعقوب؛ ليس فقط "إيل إله إسرائيل"، الإله الذي منحني الخير، بل الله الذي هو على بيته كالسيد والمتسلط، كالذي يملئ إرادته. «بكوا وجلسوا هناك أمام الرب وصاموا ذلك اليوم إلى المساء، وأصعدوا محرقات وذبائح سلامة أمام الرب. وسأل بنو إسرائيل الرب (وكان هناك تابوت

عهد الله في تلك الأيام؛ وفي نحاس بن ألعازار بن هارون واقف أمامه في تلك الأيام) قائلين: أأعود أيضاً للخروج لمحاربة بني بنيامين أخي أم أكف؟». وهنا يعطيهم الرب الجواب الذي كان يمكن أن ينالوه في البداية لو أنهم سألوا بصواب. «فقال الرب اصعدوا لأنني غداً أدفعهم ليدك».

ولاحظ التدريبات التي اجتازوها. صعدوا إلى بيت الله، إلى بيت إيل، إلى حضرته. واذكر يا أخي أنك وأنت في حضرة الله لست فقط تشعر بالسخط ضد الخطية. هل تعلم ماذا يفعله حضور الله؟ يقودك لإدانة الخطية في نفسك؛ هذا هو الشيء الأول. وهكذا مضوا إلى تلك الحضرة المقدسة، وبكوا. لقد مُسَّت أوتار قلوبهم، ففي مقدورهم أن يبكوا قدام الرب. وأكثر من ذلك، صاموا. فليس الأمر بالأمر الهين. وكل ما عداه ينكرونه؛ لقد انصبت فيه قلوبهم بحيث فاتهم أن يتناولوا طعامهم الضروري؛ فقد كانوا جادين، الجد كله، لمعرفة فكر الله.

والخطوة التالية أنهم جلسوا هناك. لم يذهبوا ليقفوا، وإنما جلسوا في انتظار الجواب. وما أوجنا إلى الدرس عينه: إننا غضي إلى الرب ليس فقط لكي نبكي أو نصوم، بل لكي نجلس قدامه، حتى يرى الوقت مناسباً لإجابة ملتبس قلوبنا.

وكل ذلك لنا اليوم. وإنني مقتنع أنه يمكن أن يتوفر للقديسين قدر من القوة أكبر، لممارسة التأديب، لو أنهم تدربوا التدريب ذاته الذي نراه هنا. ولكن ما أقل الجلوس قدام الرب؛ لم يكن جلوسهم في هذه المرة بقصد كسب الإحساس بالشر. فقد كان ذلك في البداية؛ بل كان جلوسهم لمعرفة فكر الله؛ فكره عن القضية المعروضة أمامهم؛ وليس فقط فكره المعلن في كلمته. ولكي نحصل على ذلك الفكر، ينبغي أن ننتظر الرب. أما التسرع فليس سبيلاً قط لمعرفة فكره.

والآن هم في الحالة المناسبة التي تجيز لله أن يكلمهم فيها؛ ولكن هذا ليس الكل. فإنهم لم يبكوا فقط؛ لم يصوموا فقط؛ لم يجلسوا قدام الله فقط؛ بل أصعدوا محرقات وذبائح سلامة. وبإله من توفيق! ولعله يشوقنا أن نفكر في تقديم ذبائح خطية؛ لعنا كنا نزعم أنها الذبائح المناسبة للموقف. فالقضية - حسبما يبدو - من النوع الذي يقتضي تقديم ذبيحة خطية. فقد أخطأ شعب إسرائيل، ومع ذلك لم يدركوا خطيتهم. والقاعدة أنه إذا أخطأت الجماعة فلا بد من تقديم ثور كذبيحة خطية؛ لكن يظهر أنهم لم يصلوا إلى مستوى الاعتراف بخطيتهم القومية. إنما وصلوا إلى شيء واحد وهو أن أي ارتباط بالله، أي علاقة بالله، يجب أن تكون بواسطة الذبيحة التي كان قد رتبها أساساً للشركة معه. فقدّموا محرقات وذبائح سلامة. وتحدثت المحرقات عن قيم المسيح الغالية المطلقة، عن موته لمجد الله؛ كما تشير

ذبائح السلامة إلى الشركة، إلى المشاركة في تلك القيم الغالية. ومن هنا كان جزء من ذبيحة السلامة يقدم لله، وجزء آخر من نصيب الساجد. إذاً فالشعب قدم لله - رمزاً - قيم موت المسيح الكريمة.

لقد جاء في التاريخ يوم توسط فيه هارون بين الأحياء والأموات، وتدخل شفيعاً. جاء بالمبخرة التي تتحدث عن كرامات المسيح ورددها بين الأحياء والموتى، كأنه يشفع عند الله على أساس كرامات المسيح. وأنا على يقين من أن في المحرقة إشارة - في القليل - إلى هذا: هي تقدمات لله. وكأني بالشعب وهو يقدمها يقول: نحن عاجزون، قد انتهينا من ذواتنا، قد انتهينا من حكمتنا وقوتنا. لا نعلم ماذا نفعل. الشر يختم علينا برعبه كئيلاً ثقيلاً. وعلى أية حال هنا شيء يقدم لله. إنه يحكم علينا، يؤدبنا. وهنا شيء يحلّو لديه أبداً: هو أبداً رائحة طيبة قدامه. هو المسيح. ولو أن شعب الرب - يا أخي - مضى إلى الحضرة الإلهية ذليلاً كسيراً، وقدم لله ما هو رائحة المسيح الطيبة، لاستردوا الشركة معه؛ قدموا ذبائح السلامة، ولسوف يحصلون على جواب من قبل الله. وشكراً لله فقد منحهم الجواب، وكان جواب سلام. سأخذ بأيديهم، سيكون معهم آخر المطاف. وأما بالنسبة لبنيامين فإنه لم يستوعب درسه. ولا بد أن يعلمهم لهم الله، وسوف يستخدم شعبه أداة للتعليم. سوف يرى البنيامين أنه لن يقف في صف الخطأ، أنه لن يساند المفاسد المرعبة؛ بيد أنه - أولاً - يعلم الشعب أن يدينوا أنفسهم. ها هم منطلقون ليحطموا البنيامينيين؛ إلا أنهم يمارسون معهم أسلوباً يبرز الدرس الذي وعوه. تقدموا بضعفهم. مثلما فعلوا عند عاي، فعلوا يومئذ. تراجعوا أمام بنيامين، مثل تراجعهم أمام رجال عاي. وضعوا كميناً، وأقبلوا من الخلف وأحرقوا المدينة التي عسكر فيها بنيامين. وهكذا كان سبط بنيامين تحت رحمتهم عن بكرة أبيه. ولا أكاد أصدق أن الله كان ينبغي أن يمحو سبطاً بهذه الوسيلة. وهكذا صار بنيامين تحت رحمة إسرائيل، وكانت بقية من نقمة، لا بد من إنفاذها حتى آخر نقطة في كأس الانتقام.

ما هو الكمين؟ ما معنى التراجع أمام بنيامين؟ هو إشارة - في ما أعتقد - إلى روح الصلاة التي تدرك ما بنا من ضعف وعجز؛ نفس الدرس الذي يليق سفر القضاة في كل المناسبات. فإذا تحتم علينا أن نمارس التأديب الكنسي، فليكن فينا الاحساس بالعجز التام. وكل شخص يريد أن يتصرف بين شعب الله كمشرع أو قاضي، لن تكون له قوة روحية. لأن شرط الحصول على القوة الروحية هو توفر روح الصلاة التي تبدو في أعين العدو كأنها فرار، وتراجع.

دع مرتكب الجريمة يتصور أنه على القدر من القوة بحيث يشق علينا أن نتصدى له ونحكم عليه. أما إذا كشفنا عن ضعفنا جاثين على ركبنا في صلاة، سرعان ما نجد أن الله يقدم الفرصة لتنفيذ التأديب الكنسي، والحكم الذي يريدنا أن نجريه.

على أنني لا أريد أن يفهم القارئ مني أن ممارسة التأديب الكنسي مستحيلة في هذه الأيام. فهي ليست مستحيلة أبدًا. كما لا أريدك أن تفهم أنني أنتقد كل محاولة أمينة جادة لإدانة الشر. حاشا. وشكرًا لله من أجل كل ذرة أمانة؛ شكرًا لله من أجل كل قديس يحب أن يكون أمينًا لله. غير أننا إذا شئنا أن نسترشد بهذه الأصحاحات؛ أن نسترشد بدرسها الذي يكلمنا فصيحًا داويًا؛ أن نسترشد بمدن بنيامين المحترقة، والعائلات الإسرائيلية الباكية، فأنا واثق بأن الدرس الذي نتلقاه هو أولاً درس الاتضاع قدام الله.

أو ليس هو درسًا صحيحًا؟ ألم تحققه في اختبارك؟ ما الذي يمنح الآباء قوة في تربية أولادهم؟ أليست هي القوة التي يكسبها الأب من حكمه على ذاته في حضرة الله؟ وما الذي يمنح الجماعة قوة على إدانة الشر في وسطها؟ أليس هو سقوطهم على وجوههم، صارخين لله في عجزهم، معترفين بإخفاقهم وخطاياهم؟ إن الله يا أخي يكلمنا من خلال العجز، الإحساس به. يكلمنا ويستنهضنا أن نقوم من التراب قدامه. وهو سيسير أمامنا طالما رغبنا في إطاعة مشيئته المقدسة.

لكن لاحظ هذا الشيء: أن إلهنا لن يتسامح معنا إن تساهلنا مع الخطية. لن يدعنا نتركها ترعي فيما بيننا. لن يدعنا نتهاون فيما يتصل بكرامة اسمه القدوس. فاسم المسيح مدعو علينا. وبقدر ما لحياتنا من قيمة، فلن نجرو أن نستخف بوجود الشر. أما إذا شئنا أن تكون لنا القوة على الشر. أن تتوفر لنا القوة الروحية التي تطهر قديسي الله من كل ما يربطهم بالأرض، من كل ما يهين المسيح، فلنا هذه القوة في بيت الله، في الصوم وتقديم الذبائح لله. وكلما سارعنا للوجود في ذلك المكان، بالقدر عينه تسرع لنا القوة.

هذا شيء يعنيننا جميعًا، ومن أسف أنه يعوزنا اليوم، وفي كل مكان. فإن الطابع الذي يميز النصرانية اليوم هو انعدام الحكم. مع أنه كان يجب أن نصف به في كل شهادة لله. قد يقول قوم: ليكن ما يميزنا هو مبلغ إدراكنا الكثير للحق. صحيح أنه شيء مبارك أن يكون لنا هذا، وإنها لرحمة أن يستخدمنا الله وأواني لحمل حقه للآخرين؛ بيد أنني أعتقد أن الشهادة الوحيدة لله في يوم الخراب هذا، هي الشهادة لسلطان الرب يسوع المسيح بين قديسيه. خذ في بالك

فيلادلفيا. ماذا ترى فيها؟ ما الذي يميزها؟ الولاء للمسيح والخضوع لكلمته. القوة عندهم يسيرة؛ فيلادلفيا لا تتميز بإشعاعات المصطلحات الحقائقية التي تبهر الناس؛ هذا ما يميز لاودكية وما تفتخر به: عملها الكثير ومواهبها الغزيرة. إنما الذي يميز فيلادلفيا الانكسار والخضوع لسلطان المسيح والطاعة له مهما تكن محفوفة بالمخاطر. وفيلادلفيا - كما تعلم - معناها المحبة الأخوية. والمحبة الأخوية الصادقة تكون حينما نحب الله ونحفظ وصاياه. وبهذه الوسيلة أحب أخي، بالخضوع لله ذاته.

ثم كلمات قليلة عن الشفاء، الأصحاب الأخير. على أننا نتبين أن الرجوع، الشفاء، لم يكن إلا جزئيًا. وفي رأيي - كما قلت - إن الله ما كان يريد الهلاك الشامل للسيط. لست أعتقد أنه كان ضروريًا أن يباد السبط. فلو أنهم نهجوا السبيل الصحيح لما كان سبب لهذا كله.

وبعد الذي فعلوه جلسوا وبكوا مرة أخرى؛ بكوا من أجل ما فعلوا؛ فقد محوا واحدًا من أسباط إسرائيل. لقد ذُلت كبرياؤهم؛ لقد ضاعت كرامتهم القومية. فعوض اثني عشر سبط، هوذا فقط أحد عشر مع بضعة من الهارين اختبأوا في صخرة رمون برهائنًا على ضيعة بنيامين. وها هم الشعب يحاول أن يستردوا ما ضاع. كيف؟ بالبر؟ ها هم يحاولون أن يستعيدوا بنيامين. وكأن لسان حالهم يقول: ها نواة لسبط جديد، ستمائة رجل. ولكن من أين لهم نساء؟ كيف نعطيهم زوجات؟ لقد حلفنا أمام الله ألا يسمح أحدنا لبناته بالتزواج من بنيامين. ذاك قسمهم الذي حلفوه. وإنها لبداية غريبة جدًا. طريقة للنقاش غريبة. لقد أقسموا ألا يعطوهم زوجات؛ فأول شيء يفعلونه - إذاً - أن يتجهوا صوب يابين جلعاد ويقتلوا كل إنسان فيما خلا من يريدون لبنيامين من نساء، ومع ذلك قالوا إنهم لا يريدون أن يعطوهم زوجات؛ فإن في ذلك نكثًا لأقسامهم. رغم هذا لم يكن النساء كافيات لبني بنيامين الأحياء. فماذا يفعلون؟ كان هناك عيد للرب، وفي أثناء احتفالهم بالعيد استدعوا بني بنيامين وحرصوهم أن يقتنصوا لأنفسهم نساء. وهكذا تحايلا على أقسامهم.

ونتبين أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى عمق أصل الخطية؛ ومن هنا نتوقع انفجارات متشابهة، تكشف لنا أنهم لم يكونوا أمام الله. ومن هنا كان إيماني بأنه لم يكن من الله أن يزول سبط بأكمله. صحيح أن بنيامين اصطف بتلك الطريقة؛ ولكن على نفس أسلوب يفتاح تصرف إسرائيل؛ فلم يكن لصاحبنا الحق في إبادة عدد كبير من إخوته. وهكذا يبدو في وضوح أنه لم تكن لدى القوم القوة الروحية لممارسة أحكام الله على أولئك الأشخاص. ولو كانوا

تعمقوا إلى الأصل قدام الله، لما ظهرت حالة الإهمال الروحي هذه، الحالة التي نتبينها من طريقتهم في إستعادة هذه الحفنة من السبط.

وينتهي الأصحاح بعبارة وجدناها في مطلع هذا القسم. «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل». في مطلع التاسع عشر وجدناها، وهنا نجدها «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل. كل واحد عمل ما حسن في عينيه». ويا لها من فوضى، أن يعمل كل واحد ما يحسن في عينيه.

على أن تلك العبارة بذاتها تنطوي على قدر كبير من الأمل. «لم يكن ملك في إسرائيل». كأن الأمل الوحيد لشعب الله هو في أن يكون لهم ملك. لقد أراد الله نفسه أن يكون ملكاً عليهم، لكنهم رفضوه. لم يخضعوا له. لقد طلبوا لأنفسهم ملكاً مثل سائر الشعوب وأعطاهم ملكاً حسب قلبهم، شاول الملك؛ فوجدوا فيه مخلصاً. وآخر المطاف أعطاهم الله - رمزياً - رجلاً حسب قلبه، ملكاً حسب قلبه؛ فقد كان داود في ذلك رمزاً للملك إسرائيل العتيذ، الملك الذي لا تزال الأمة تنتظره. هو ملك مختلف كل الإختلاف ذاك الذي ينتظره شعب الله في كل مكان؛ ذاك الذي يئن اليوم، ويتنهد عليه هذا العالم التاعس.

ماذا تعنيه الأحزان والأناية والظلم: الأمور التي تُشعل القلب غيظاً؛ بمَ تحدثنا؟ لقد طالما رأينا أنظار العالم تنزوا إلى دولة بالذات، تؤمل أن تلقي عندها عدالة، إزاء المظالم التي تنوء بها كواهلهم؛ ولكن آمالهم سرعان ما تخب. وأعتقد أننا نكون قد أخفقتنا في تعلم الشيء الوحيد الذي يريد الله أن يحدثنا عنه في هذا جميعه، إذا كنا نغتاظ، مجرد غيظ، ضد ذلك الشعب، أو تلك الأمة أو بعض منها. إن الدرس - عندي - الذي يريد أن يحدثنا عنه هو أن أحكام وحكومة هذا العالم لن تكون ذات بال إلى أن يأتي الملك الذي له حق الملك، الذي بالعدل يملك والذي سينصف المتضعين والودعاء والمساكين، أولئك المسحوقين من عظماء العالم. هذا ما يتنهد له العالم، لو عرفه. فإن ما تئن الخليقة لأجله، ولا تقنع حتى تفوز به، هو مجيء الملك الذي يدوس الشر؛ والذي بالنعمة يرفع الشعب المسكين الذليل، ويمد السلام والبركة إلى أقاصي الأرض، والذي وحده يستطيع أن يفعل ذلك.

وفيما يتصل بنا يا أخي: ألسنا ونحن نتحدث عن مسئوليتنا في التأديب الكنسي وممارسته، ألا نحس بأننا إنما نحاول أن نمسك بقليل من البقايا، وإلى لحظة؟ وما الذي نحن في

انتظاره؟ هل نحن نتوقع إعادة تأسيس الكنيسة على غرار أيام الخمسين؟ كلا، فإننا لن نشهد ذلك في العالم. هل نتوقع أن نرى شراذم النصرانية وقد تجمعت معاً في كتلة متجانسة واحدة، تخضع لكلمة الله، وتسلك لمدح المسيح في هذا العالم؟ كلا، فلن يحدث هذا مطلقاً. ما الذي نحن بانتظاره؟ لا عن عجز، لا عن يأس. بل بالحري: مَنْ ذا الذي نحن ننتظر؟ ألسنا في انتظار مجيء سيدنا المبارك ليأخذ كنيسته، عروس حضنه، ينقلها من هذا المشهد القذر حيث هي غريبة ونزيلة، يأخذها بثياب غير ملوثة لتكون معه؟ وبعد ذلك سيأتي ليكتسح بصولجانه القاهر عالماً سوف يعترف، راعماً، بتلك الحكومة الوحيدة، بالصولجان الوحيد: صولجان البر، باليد الوحيدة التي تمسك الصولجان: يد مسيح الله. فهو الذي جعله ملكاً على صهيون ليحكم أقاليم الأرض.

ففي ختام سفر القضاة إذًا، نجد أماننا الحنين إلى مجيء الرب. لقد وجدناه سفرًا حزينًا - كما قلت في البداية - سفرًا كثيبًا، سفر إخفاقات، حالك الظلمة بحيث تملئ به النفس يأسًا فيما يتصل بالإنسان. هو سفر يقول عنه الناس إنه سفر متشائم، يثبُط العزائم. لكنه ليس هكذا؛ إنما هو يفصلك عن كل ما في العالم، ويفقدك الثقة في نفسك، في أخيك، في روح التقدم الذي تتشدد به الدنيا؛ ويوقفك أمام شيء واحد: أن ترمق، أن تحن، أن تنتظر مجيء ربنا يسوع.

وإذ نحن ننتظر، ونرنو إلى مجيئه في حنين، نجد في هذا السفر ما يقودنا إلى تعلم الحكم على ذاتنا؛ يعلمنا في طاعة الإيمان أن نسلك هنا كما لو كانت الكنيسة كلها متحدة. أن نطيع ونحن قلة مثل طاعتنا كما لو كانت النصرانية واحدًا؛ وأن نشكر الله من أجل يوم الأمور الصغيرة الذي يفسح المجال للإيمان والطاعة لظهورهما كما في إشراق بكور تاريخ الكنيسة يوم كان الجمهور بقلب واحد ونفس واحدة.

بهاتين الفكرتين نختم تأملاتنا في السفر: أولاً؛ الرغبة في مجيء ربنا، باعتباره الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يجلب السلام والقداسة والبركة. وثانيًا؛ في أثناء انتظارنا لمجيء سيدنا تزداد رغبتنا في طاعته ونحن في ضعف وعجز، إنما نطيعه لكي نكرمه.

«طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا» (مت ٢٤: ٤٦).

شيء من ملامح المسيح

سفر القضاة هو الثاني في المجموعة التاريخية: يشوع أولها. وكان المرجو، بحسب الترتيب الروحي الصحيح، أن يكون سفر القضاة، سفرًا للتطور إلى الأمام، استكمالاً لما بدأه يشوع. فقد رأينا في يشوع سفر البركة، الأمة تُقبل على البركات التي منحها الله لهم في ميراثهم. هو - رمزياً - السفر الذي يحدثنا عن كوننا قد بوركننا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح. وكان من الطبيعي، وسفر القضاة هو الثاني منزلة تاريخية، أن يكون مجرد تطوير، سفرًا تقدميًا، كما يوحي مكانه العددي. بيد أننا وجدنا بما لا يقبل الشك أنه عوض التقدم، كان الجانب المضاد: التراجع.

أنت حين تقلب صفحة من كتاب، فإما أنك تجد في الصفحة التالية شيئاً أفضل، أبهج إشراقاً؛ أو شيئاً أحداً ظلاماً. ومن أسف أننا بعد تقلب صفحات يشوع نأتي إلى القضاة فنجد أنفسنا في أيام أسوأ ظلاماً؛ وهذا ما كنا تهيأنا له في نهاية سفر يشوع. هي أيام أسوأ ظلاماً، ليس لأن الله تغير، أو أن البركة تقلصت؛ فالعكس صحيح؛ وإنما أمعنت الأيام سواداً لأن الإيمان انكمش؛ وحيثما انكمش الإيمان، وحيل بين النفس وبين الله ببعد الشقة الروحية، فقد اقتربت الهجمات والمضار على نفوس شعب الله، لأن المسافة قد بعدت بينهم وبين الله. وهكذا نقول عن السفر كله إنه سفر المسافة البعيدة والانفصال عن الله، بدلاً من التقدم في طريق الله. عوض أن يضيفوا إلى ما كسبوه، خسروا ما امتلكوه؛ والدرس الذي كان الله يشدد

علينا به في السفر كله هو درس خطر وغباوة الانحلال (التدهور)، وما لها من آثار محققة. إذ في البنا هذا، فإن الأقسام الرئيسية الثلاثة التي ينقسم إليها السفر تبدو واضحة جداً. وعنهما حديثي الآن. في الأصحاب الأولين، وحتى العدد الخامس من الأصحاب الثالث، نجد القسم الأول، التمهيدي. أما القسم الثالث فنجد في الخمسة الأصحاب الأخيرة. وفي منتصف السفر، من العدد الخامس في الأصحاب الثالث حتى الأصحاب السادس عشر نجد القسم الرئيسي من السفر، وهو الذي يعرض علينا موضوعه العام: الانحلال بآثاره.

وبعد ذلك نلتقي، بما يشبه المصادفة، بالشيء لا مفر منه حينما تظهر رحمة الله في الميدان، حيث نرى الله متدخلًا ليردّ شعبه، يشفيهم من غيائهم. بيد أنك، في هذه الأقسام الرئيسية من السفر، ترى تمرد الشعب على الله - أولاً - واستعبادهم (نتيجة للتمرد)؛ ثم في القسم الثالث تجد هذه الحالة الداخلية الفاسدة ظاهرة على أشدها، أسوأ من الاستعباد ذاته الذي وجدناه في القسم الثاني.

خذ القسم الأول؛ أبرز ما فيه أن الشعب لم يتجاوبوا مع ما كان في فكر الله نحوهم؛ لم يصعدوا لامتلاك ما وضعه بين أيديهم. هنا كان ميراثهم، وهناك أعداء يحتلون الميراث فحاولوا بينهم وبين التمتع به. وكانت مهمتهم - في نشاط الإيمان وبساطة الطاعة لله - أن يطردوا العدو، فيصبح كل شيء في أيديهم. بيوت لم يبنوها، كروم لم يغرسوها، آبار لم يحفروها؛ كلها تناديهم أن يصعدوا للاستمتاع بها، كلها بين أيديهم.

وماذا فعلنا نحن بميراثنا؟ قد دخلنا فيه، هذا كل شيء. نعم، قد دخلنا إلى ما جعل في متناول أيدينا، ما أعدّ لنا؛ ليس إلى بيت علينا أن نُشيد، أو كرم نغرسه، أو بئر نحفرها؛ فالكل مستعد؛ ولا يعوزنا إلا أن نقاوم العدو - في طاعة الإيمان - الذي يريدنا بعيدين عن ميراثنا. ومهما تتباين الصور التي يبدو بها. فهو الشيء الذي يبعدنا عن التمتع العملي بميراثنا كما هو مُعلن في كلمة الله. هذا العدو يجب أن نطرده بالإيمان والطاعة، فيصبح كل شيء معداً للتمتع.

وأنت تجد في القسم الأول - مبتدئاً بقدر من النجاح ينطوي على قدر من التشجيع - إخفاق الشعب في إشغال الأرض. أخفقوا في أن يفعلوا ما أمرهم به الله؛ أخفقوا في أن يصنعوا الشيء الذي كانوا بدونهم عرضة لهجمات جديدة. من قبل العدو. فإن العدو النصف

مغلوب هو عدو غير مقهور؛ وما لم تحطم بالتمام قوة الشر الذي يبعدك عن ركن من أركان ميراثك، تجد ذلك العدو وقد ظهر ثانية. قد تخضعه زمانًا؛ قد تجعل منه أمرًا ثانويًا - كما يقول الناس عن الجسد، إنهم يعتبرونه ثانويًا، تحكموا فيه وسيطروا عليه بقدر ما؛ بيد أن العدو إذا لم يُقهر تمامًا، فلا بد له يومًا أن يقهرنا نحن: هذه مسألة لا شك فيها. وذاك ما نرى القسم الأول ينبئ عليه بشدة.

يهودا يبدأ بداية طيبة، يحالفه النجاح في منهاجه؛ ولو أنه واصل في طاعة مطلقة لله، لاستطاع أن يسيطر - سيطرة تامة - على القسم الذي من قرعته. وواقع الأمر، أن سبطًا واحدًا لم يمتلك - امتلاكًا تامًا - ما عُهد إليه، مثل ما فعل سبط يهوذا؛ فهو في المقدمة. إن هذا السبط يحدثنا عن قبضة الحق التي تنشئ روح الحمد بين شعب الله. ولك أن تقول إنه يمثل معرفة المسيح كنصيب شعبه.

وبعد يهوذا، وفي تتابع محزن، نرى الأسباط المختلفة تعجز عن أن تعمل ما وضعه الله أمامهم. فهوذا بنيامين يفشل في امتلاك أورشليم؛ فتري - جنبًا إلى جنب - البنياميني واليوسوي. وبا له مزيجًا! وقد رأينا بنيامين - في تأملاتنا - وقد لوثه المحيط، حتى لقد كان من الضروري أن يُعاملوا كأمم، كأعداء لله، وكادوا يحون من الوجود.

وكذلك الأمر فيما يتصل بأسباط يوسف وأفرام ومنسى الأقوياء؛ فقد أخفقوا هم أيضًا في طرد العدو من إقليمهم، بحيث سكن الأعداء في مدينة، وأقاموا هم في مدينة أخرى. وهكذا تسير القصة، سبط في أثر آخر يخفق في امتلاك ما أعطاهم الله.

الكلام عن هذا يسير؛ نعم، يسير أن نقول إن منسى الذي كان مفروضًا فيه أن يتقدم، وقف؛ والنتيجة، أنه لم يطرد القوم الذين كانوا يقيمون في قرعته؛ وأن أفرام يفشل بالطريقة عينها، وزبولون وأشير ونفتالي ودان؛ إن هؤلاء أجمعين، يخفقون أحدهم أثر الآخر، وكل في مكانه. ولكن ماذا عنا نحن؟ وعمليًا: ماذا عن كل واحد منا؟ كم امتلكننا من نصيبنا؟ بكم تشاركنا مع العدو ذاته؟ هل نتمتع بتخومنا؟ هل نتمتع بكل ما وهبه الله لنا؟ إن نفيًا، فلننضم إلى زمرة الفاشلين: أنا وأنت؛ فلا نحن طردنا العدو الذي يحتل نصيبنا، وبالنتيجة، نحن نتعايش معهم؛ وهم معنا.

قد نجعلهم تحت الجزية؛ قد نُخضعهم لسلطاننا؛ بيد أن عدوًا تحت الجزية أشد خطرًا من عدو

في الميدان، لسبب بسيط وهو أن لنا به روابط، كما كان لإسرائيل. تزاجوا مع شعب الأرض، ومع التزواج آثار محزنة: تبنوا آلهتهم؛ وكننتيجة طبيعية، استعبدوا لأعدائهم.

لاحظ الترتيب، انظروا التطور الحتمي للشر؛ كان أولاً: إخفاق في طرد العدو؛ وكان ثانياً: أن استخدموهم كعبيد، يدفعون الجزية؛ وكان ثالثاً: التزوج، والترابط معاً؛ ثم رابعاً: تبنوا لأنفسهم أوثانهم، فاحرفوا عن الله؛ وأخيراً، ليس سوى نتيجة واحدة: أسلمهم الله لعدو، ليذوقوا كم هو شر ومر أن ينحرفوا عنه.

هل نقلنا هذا - فعلاً - إلى حياتنا اليومية؟ هل جعلنا هذه الأمور حقائق عملية لضماننا اليوم، بحيث علمنا ما هو القصور؟ وما معنى إخضاعنا للعدو تحت الجزية لنا، تحت سلطاننا؟ هل علمنا ما يعنيه هذا؟ هل علمنا ما يعنيه أن نضع الشر، أي شر، تحت الجزية لنا؟ ومع ذلك لا نطرده، لا نُقصيه تماماً؟

كيف يفيد قوم من مبادئ هي في ذاتها شر؟ كيف يخضعونها لجزيتهم ثم يتوقعون التحرر منها؟ إذ أنا استخدمت شرًا من الشرور، فأنا عتيد أن أرتبط بالشر. والنتيجة التي لا مفر منها أن ارتباطي بالشر خطوة لاستعباده إياي؛ خطوة بالتالي إلى الوثنية التي كم رأينا أمثلة منها. فإن الوثنية تعني إقامة أفكارنا بدلاً من الخضوع لمشينة الله الموضوعة أمامنا.

هذا هو القسم الأول من السفر. وهذا - عندي - هو الدرس المعروض أمامنا في كل حكمة الله وصلاحه، كما رسمه تعالى في مثال بعد مثال. الدرس هو: إن لم تتقدم، تتراجع؛ إن لم تتطور وتنم، تتخلف وتثم؛ إن لم تدخل في ما منحك الله في كلمته، تفقد ما كسبته منها؛ أو بأسلوب العهد الجديد «مَنْ لَهُ يُعْطَى فيزداد وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالذي عنده يُأْخِذْ مِنْهُ» (مت ٢٥: ٢٩). لكن هذا - والشكر لعنة الله - ليس بصورة نهائية قاطعة؛ ولكن - فيما يتصل بتمتعنا به - نُحرم فقط من التمتع بما لنا. هل تريد أمثلة؟ أليس لك من تاريخك ما يؤيد؟ حينما لم تتقدم، ألم تتراجع؟ إنك في تاريخ قلبك، كل يوم في حياتك، أن تمثل تاريخ إسرائيل: فمواً وانحلالاً؛ إقداماً وإحجاماً.

وفكرة أخرى. لقد كلمتك عن بركاتنا، وأحب أن يكون حديثي ذاك غير غامض أو في غموض، بل واضحاً وجلياً. أنت تذكر في أفسس أننا بُوركنّا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح. فكل بركة نلناها، فبه نلناها؛ بالارتباط به؛ ومن المستحيل إطلاقاً أن يتمتع

القديسون ببركاتهم دون أن يتمتعوا بالمسيح. مستحيل إطلاقاً أن تكون لنا حقائق الله طعاماً لنفوسنا، ما لم تجعلنا على صلة وعلاقة وثيقة بآب الله المبارك نفسه. وهكذا ونحن نتدارس إخفاق إسرائيل في الدخول إلى نصيبهم، لنذكر أن ذلك - روحياً - معناه إخفاق، إخفاق كنيسة الله عامة؛ إخفاقها، ليس فقط في الاستمسك بجانب من الحقائق، بل في إدراك المسيح في ملئه، الأمر الموضوع إمامنا لنذكره.

إن كل بركة في كلمة الله، حية وجميلة وكريمة لأنها في المسيح. لو تصورت أن الله يعطينا كل وعد في كلمته، كل ما هو موضوع ومرسوم فيها قدامنا؛ لو تصورت أنه تعالى يفتح السماوات لنا بكل جمالها الخالد، ولكن لا نجد المسيح فيها، فلا بركة يا أخي ولا ميراث. ماذا عساه يكون الغفران لو لم يكن غفراناً بالمسيح؟ وماذا يعني السلام مع الله؟ ما كان لنا أن نفكر فيه، إلا عن طريق ربنا يسوع المسيح. إن كل ما نعرفه، كل ما رسمه في كلمته عن البركات الروحية، نجد كرامته، وقيمته في المسيح، وفيه وحده.

ولذلك فكم هو خطير أن يخفق شعبه في السير قُدماً لامتلاك نصيبهم؛ أن يفشلوا في أن يدركوا المسيح. كما رأينا بولس في الأصحاح الثالث من رسالة فيلبّي، حيث كان يسير ليدرك الذي لأجله أدركه أيضاً المسيح يسوع؛ ويلخص هذا في عبارة واحدة «لأعرفه، وقوة قيامته، وشركة آلامه». يمتاز الآباء بأنهم عرفوا الذي من البدء؛ ومعرفة المسيح، والسعي لمعرفته معرفة أفضل؛ معرفة المسيح بالطريقة التي هو مُعلن في كلمة الله: كل هذا هو تفسير السقوط والسعي وراء ميراثك وبركاتك فيه.

والآن نأتي إلى الجزء التالي، الذي هو القسم الرئيسي للسفر. وفيه نقرأ عن نتائج عدم الركض لإدراك المسيح، عدم السعي والحصول على المزيد مما هو نصيبنا فيه. أنت هنا تجد عبودية في أثر عبودية. وفي اتساق أليم يخبرنا المؤرخ أن الشعب فعل الشر، تحول عن الله، يرتبط بشعوب الأرض؛ والنتيجة: باعهم الله لأيدي عدو بعد عدو. وهكذا انحطوا، واتضعوا، ليحسوا بعجزهم وإخفاقهم المطلق وانحرافهم عن الله، وإذا لم يكن لهم من عون، أقام لهم مخلّصاً، معيناً ينقذهم.

وأريد أن نرى في كل واحد من أولئك الأعداء، في كل واحدة من تلك العبوديات، أي نوع من الشر يمثل؛ أي شيء ليس من المسيح؛ أي شيء استخدمه العدو مما ليس من المسيح،

مما يناقض المسيح، ما يسلبنا ما لنا في المسيح؛ ثم نحاول أن نرى في المخلص والمنقذ، الذي كان يقيمه الله؛ أي عنصر كان فيه من المسيح، عنصر يعين الإنسان للنصرة على القوة التي قهرته وتملكته. والأمران معاً؛ فإن كلاً منا أحس بقوة ما ليس من المسيح. كما يقول الرسول «لم تتعلموا المسيح هكذا».

نتأمل فيها بإيجاز، وفي بالنّا تلك الفكرة. أما أولاً فلنا في الأصحاح الثالث، من العدد الخامس حتى الحادي عشر، العبودية الأولى: عبودية لملك آرام النهرين؛ خدموا، عبيداً. هو ملك ما بين النهرين، واسمه كوشان رشعتايم. آرام كما تذكر، معناه «مرتفع»؛ وكانت مملكة ما بين النهرين مجاورة أو على صلة ببابل. وادي شنعار كان قطعة منها، وإليه سُبّي إسرائيل آخر الأمر. وهنا في البداية نراهم واقعين تحت سلطان ملك الارتفاع أو التعالي. وأول شيء يتملك شعب الله؛ أول شيء ليس من المسيح؛ الوجه المضاد للمسيح؛ هو هذا التعالي، الذي يدعى ملكه «كوشان رشعتايم». وكوشان معناه "سواد" ورشعتايم معناه "إثم مزدوج". إذاً فهذا الاسم "سواد الإثم المزدوج" هي تسمية بها من الظلام ما يكفي لكشف مدى شر هذا العدو.

سنكتشف أنه على النقيض تماماً من المسيح، إذا كان يُدعى بهذا الاسم. لقد كان سيدنا وهو على الأرض وديعاً ومتواضع القلب. لم يطلب لنفسه أموراً عظيمة. تعقب طريقه يا أخي، منذ أتانّا من مجد السماء حتى عاد إليه، ترّ تاريخه كله، تاريخ اتضاع ونكران للذات بالمدى الكامل. اتضع، أخلى نفسه، وفي المدى الطويل من العرش الله إلى الصليب، كان اتضاعه نزولاً من سلم إلى سلم، على الضد من آرام أو التعالي. وفي تاريخنا الشخصي، وفي تاريخ الكنيسة، ما هو السر في كل بركة، أليس هو هذا الذهن، الفكر، المتضع، الفكر الذي كان في المسيح يسوع؟ وبقدر ما يوجد شعبه في المكان المتواضع؛ ينجون من قوة العدو؛ أما إذا تعالينا، فإننا نقتدي بالمعتدي الكبير، الشيطان ذاته، لأنه رفع نفسه ضد الله.

الكبرياء هي العدو الأول؛ هي سواد الإثم المزدوج. هي أقسى أشكال الشر؛ هي علة سقوط الشيطان؛ كان لمعانه مبعث ظلامه. ويا له تناقضاً أن جماله تعلوه لظخة لأنه أراد أن يرتفع بفضل ذاك الجمال. وهكذا إن حاولت كنيسة المسيح، أو الشخص المسيحي، أن يرفع نفسه ويُقنع بذاته ويمتلئ كبرياء، فهناك أقسى صور الشر، لأنه استقلال عن الله، رفعة

للذات، ومن هنا فهو على الضد من المسيح. وكثير من هذا نراه في أفسس ولاودوكية؛ بدء تاريخ الكنيسة وختامه.

ثم يأتي المخلص الذي ينقذ من هذه الحالة. العدو - قد رأيناه - هو ما ليس من المسيح. وفي شخص المخلص نجد ما هو من المسيح لإنقاذ شعبه من هذه العبودية. والمخلص هو عثنيل، الذي يمثل - كما رأينا - روح الإيمان المتوكل بالتمام على الله. معنى اسمه "أسد الله"، معناه القوة. والكبرياء لن تستخدم قوة إلا قوتها هي؛ لن تفر بحاجتها إلى قوة. أما حين يدخل المشهد عثنيل، نشاهد الإقرار بالضعف والعبودية؛ وكنتيجة حتمية تتدخل قوة الله لحسابنا. والمسيح هو حكمة الله وقوة الله. وهل من علاج حقيقي لاستعباد الكبرياء؟ وما هو؟ ما العلاج الحقيقي للاستعباد للذات، ولكل هذه التعاسة التي تضع الذات على القمة وتحط من قدر الله؟ أليس هو المسيح الرب نفسه؟ المسيح قوة الله، الذي به الكل؟ وإذا ما كنت - أنا وأنت - وكانت الكنيسة: إذا ما كنا جميعاً على استعداد للاعتراف بأن لا قوة لنا في ذواتنا، لا شيء فينا على الإطلاق؛ إذا شئنا أن يكون المسيح الكل، حينئذ يوافقنا عثنيل المخلص؛ وبهذه الكيفية نرى فيه صورة للمسيح.

لست أعني بهذا أن عثنيل رمز للمسيح. ففي خطواتنا على طريق سفر القضاة سوف لا نجد القضاة مشابهي للمسيح؛ وحتى نصل إلى خاتمة السفر سنجد النقيض بالتمام للمسيح. على أن إدراك المسيح بالإيمان بهذه الميزات هو الذي يمنحنا عملياً الخلاص الذي تم هنا رمزياً.

ثم جاءت فترة انحلال، وجاء مخلص آخر. وقد رأينا في موب الاستعباد لقريب حسب الجسد، قريب ليست له بشعب الله علاقة روحية. كان موب واحداً من أولاد لوط؛ ومن هذه الناحية يمثل العلاقة الظاهرية خلواً من الحقيقة الباطنة؛ وذلك هو الاعتراف بالأجوف. نعم، فالاعتراف بالأجوف عدو جبار مخيف يجثم على صدور شعب الله. ومن أسف أن الكنيسة طالما وقعت تحت تأثير كابوس الاعتراف بالأجوف الذي لا ظل فيه للمسيح. قد تستخدم أشكالاً من الأوضاع السليمة، مما يتفق وحرفية الكتاب؛ ومع ذلك فلا قوة، ولا بهجة روحية، ولا ما يلائم الحقيقة الحية. وقد استعبد بنو إسرائيل، شعب الله الحقيقي، لهذه المجموعة الاعترافية التي تسلبنا كل متعة؛ إذ الاعتراف ليس هو المسيح. نعم يا أخي، فالمسيح ليس اعترافاً؛ إنه على الضد من هذا تماماً. إن معرفة المسيح ليس معناها أن تكون إنساناً

متدينًا: ليس معناها أن تعترف مجرد اعتراف؛ بل معناها أن تكون لي شركة مع الآب ومع ابنه: وفي حقيقة حياة.

وكم ذا يعمل الاعتراف على إقصاء المسيح؛ كم ذا يهين لذاته مكانًا ناعمًا في العالم؛ فيشيد العمائر الدينية، والخدمات الدينية؛ وميادين الإحسان؛ ومع ذلك فكل شيء يعمل به يحمل برودة الموت لأنه اعتراف خالٍ من حقيقة المسيح الحية. قد تكون عضوًا في جماعة دينية؛ قد تكون عاملاً في الحقل الديني؛ ولكن بقلب فارغ. إذًا فليكن، لا الاعتراف الأجل، بل المسيح هو نصيبنا.

وما علاج الاعتراف؟ ما علاج هذا الكابوس الموبى؟ هذا ليس المسيح، بل هو مجرد اعتراف بالمسيح؛ مجرد إقرار. وأهود، الذي معناه "اعتراف صادق"، هو المخلص، المنقذ. وسيف في يده - إشارة إلى سيف الروح الذي هو كلمة الله - خلص شعب الله من الاعتراف الفارغ. نعم، والمسيح نفسه هو أهود في كماله، في ملئه. لقد كان سيدنا الشاهد الأمين؛ الشاهد الذي اعترف بالله، ولأنه اعترف بالله طرده العالم. هو المعترف الحقيقي؛ واعترافنا بما هو المسيح يحطم قوة العدو التي تدخلنا تحت أعناق الاعتراف الأجل.

إن شعب الله في خطر من الاعتراف الأجل؛ فإذا كنت تعيش على اختباراتك الماضية، بدلاً من الشركة الحاضرة، فأنت تحت سلطان موب، لأن موب يعيش في الماضي. أنت، حينئذ، تضع قدامك اختباراتك الماضية، وتجعل من نفسك معترفًا على أساس الاختبارات الماضية. لكن ينبغي أن تكون لك الحقيقة الحية، التمتع الحي بالمسيح الذي يبعث من شفاهنا الاعتراف الصحيح.

أو لا ترى شيئًا آخر في اسم هذا الرجل؟ هو المُعترف، الذي يعترف بحقائق الأمور. هو يعترف بأن مجرد الإقرار لا شيء بل إنما هو عدو لله. وفي قوة اعترافنا بإخفاقنا، اعترافنا بتفاهتنا وخواء إقرارنا، تتدخل حسابنا قوة المسيح لتحريرنا من الاعتراف الأجل.

وأنت تذكر المشابهة بين عبودية موب وبين حالة الكنيسة موصوفة في برغامس.

ثم نأتي إلى العدو التالي، يابن ملك حصور؛ وإلى دبورة وباراق، اللذين استخدمهما الله لتحطيم ذاك العدو. في تأملاتنا رأينا أن يابن اسم للملك كان قد غلبه يشوع لما قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة؛ ومع ذلك عاد للتاريخ بكل قوته القديمة؛ ولولا تدخل الله، لبقيت

أرض إسرائيل كلها تحت سلطانه الكاسح. معنى اسمه "الفهم". فهو الذكاء مستعليًا على معرفة الله. هو الضد لما في المسيح الذي وضع معرفته وكل شيء آخر عند قدمي أبيه، ولم يكن له سوى مشيئة أبيه كفكره الواحد. والشيء نفسه وضعه نصب أعين الناس «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلم أنا من نفسي» (يو ٧: ١٧). المسيح هو البديل الضد ليابين. فإن شئنا فهمًا صحيحًا، نناله كمن نعرف المسيح؛ ولما استبدلت الكنيسة الفلسفة بالمسيح سقطت تحت سلطان يابين؛ سلطان الفهم.

علاج واحد لهذه الحالة، ونجده في دبورة وباراق. دبورة معناها "الكلمة"؛ وباراق معناها "البرق". قل فيهما: قوة الكلمة في تطبيقها. فالضعف، وهو ما تمثله المرأة، إذ يطبق كلمة الله على حكمة الإنسان وفهمه، يكسبنا النُصرة.

إن ما نراه في دبورة هو الضعف، وهو ما نراه في ياعيل، كما نراه في باراق نفسه، في تردد العجز حتى يدفعه إيمان الإناء الأضعف، إيمان المرأة: يدفعه ليعمل ما يريده الله. نعم فإن الضعف مكتوب على جبهة الجزء كله. القصة كلها تتحدث عن الضعف، ومع ذلك فإن هذا الجزء الملع أجزاء السفر.

لعله أكثر أجزاء السفر حديثًا عن النصر. فهوذا النُصرة التي حصلها دبورة وباراق موضوع نشيد الانتصار؛ بيد أن ترنيمة دبورة هي - كما قلت - إحتفاء وإشادة بالضعف، الضعف الذي يرفع المسيح ويمجده. لنا هنا ترنيمة حمد ونُصرة، أنشدتها دبورة وباراق بعدما تم العمل؛ وهي ترنيمة الحمد الوحيدة التي نجلدها في سفر القضاة. وكان يمكن أن تتكاثر الأناشيد لو توفر الضعف الذي يتوكأ على القدرة الإلهية. وكان يمكن أن تزداد الانتصارات ونخلد على الزمن، لو كثر أمثال دبورة الذي يخفيها اسمها عن الأنظار ويقدم المسيح كما هو مُعلن لنا في كلمة الله. آه يا أخي، لو أننا اختبأنا، واستترنا، تحت ما يتحدث عن المسيح، فلا يفكر الناس فينا بل في المسيح نفسه، وفي حق الله معروضًا بالمسيح.

إن برودة الذكاء في ساردس - في الفترة البروتستانتية من تاريخ الكنيسة - تلائم الاستعباد ليابين، والاستعباد لعمون؛ بينما نجد في الغالبين شيئًا من روح فيلادلفيا.

بعد ذلك يأتي جدعون، ودروس حياته مألوفة لدينا. أنت في هذه الحقبة أمام قوة مديان؛ والمديانيون هم الذين أخذوا يوسف إلى مصر؛ ومن هذه الوجهة هم يمثلون ما ينقل شعب الله إلى

العالم. هم يمثلون الخصام كما يعنيه اسم مديان، المخاصمات التي مصدرها شهواتنا، وأعضاؤنا التي في العالم كما يقول الرسول يعقوب. هذا الغزو المدياني هو غزو العالم للكنيسة المعترفة. وبإله غزوًا مخيفًا! هو - يقيئًا - ليس من المسيح. فالعالم لا يمكن أن يعرض أو يمثل المسيح. العالم لا يسمح لك بالتفكير في المسيح إلا للمباينة. العالم على الضد من المسيح. وحيث يحتل العالم مكانًا في القلب، فإنه يسلب الكثير من المسيح.

والسبب واضح وخطير. فأنت تذكر ما يقوله الرسول يوحنا من أن كل ما ليس من الآب فهو من العالم. ومن إنجيل يوحنا نلاحظ أن لفظًا واحدًا يتردد باستمرار على شفتي سيدنا ذلك هو اسم «الآب» فقد كان فرحه في أن يعترف بالآب؛ أما العالم فينتزع مكان الآب. وهذا هو العنصر الذي ليس من المسيح؛ إنه النقيض تمامًا للمسيح. هو العالم، سواء في هجومه على قلبك، أو في مضايقته لكنيسة الله.

جدعون، إذًا، هو المنقذ من سلطان مديان؛ ومرة أخرى نجد النبرة مشددة على الضعف كما وجدنا درسًا في دبورة وياعيل. بيد أنه ضعف مصنوع. ذلك بأن دبورة وياعيل وجدعون، كان عليهم أن يعرفوا ضعفهم، أن يتعلموه. أما جدعون فلا نستطيع الآن أن نتابع تاريخه، إذ قد أتيت لنا هذا فيما سبق؛ بيد أن الفكرة السائدة في كل تاريخه هي تجريده من شيء بعد آخر، بحيث انتهى التجريد بأن تبقى معه حزمة من الرجال في مواجهة جيش عرمرم يغطي وجه الأرض. بقي معه ٣٠٠، ليس في يدهم حتى سيف واحد؛ وإنما السيف على شفاهم. كانت لديهم الأبواق والمشاعل، وكانت لهم تلك الصرخة الداوية «سيف للرب ولجدعون». هو إذًا سيف منطوق، لا سيف ممسك باليد.

قد تجردوا من كل قوة، تجردوا بالتمام حتى شَبَّهوا برغيف شعير متدحرج في وسط المحلة، يقرع الخيمة. وهم هكذا تقريبًا؛ هدف لاحتقار العدو؛ بيد أنهم - في كل ضعفهم وعجزهم - كان السيف على شفاهم؛ هو سيف الرب. وإذا كان سيف الرب إلى جانبهم، فماذا يفيدهم سيف بشري؟ وإذا كان البوق الذي ينفخون به يعلن قوته وقيادته؛ وإذا كان النور الذي بأيديهم هو كلمة الحياة كقول الرسول «لكي تكونوا...» في وسط جبل معوج وملتو تضيئون بينهم كأشوار في العالم متمسكين بكلمة الحياة» (في ٢: ١٥، ١٦) فما حاجتهم بعد إلى معونة أخرى؟ وهكذا يكلمنا ورفاقه القليلون عن قوة المسيح حالة في الضعف. تمامًا كما يقول

الرسول «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي، لكي تحلّ عليّ قوة المسيح» (٢كو ١٢: ٩). وقوة العالم - مع أشياء أخرى - نراها في برغامس وساردس ولاودوكية؛ بينما نرى جدعون صورة للغاليليين في تلك الكنائس، وفي فيلادلفيا.

ونتجاوز إلى يفتاح؛ والعدو هنا عمون. وهو كما نعلم أخو موآب، يمثل الإقرار كما رأيناه في أخيه موآب؛ مع هذا الفارق، وهو أنه ليس إقرارًا عمليًا بل إقرارًا ذهنيًا، إقرارًا قوامه العقل، أعني قريب الصلة بيايين. هو إذاً يمثل العقلية، مبدأ التعليق، الذي يدخل الكنيسة ويستقر هناك، جاثمًا بيده الباردة على حياتها. فهوذا بنو عمون يدعون الحق في الميراث الذي طال الزمان بإسرائيل وهم يحتلونهم. وما قلته عن يابيين يصدق هنا. خذ مسألة كلمة الله. إذا كان الناس يستخدمونها بطريقة ذهنية كما يفعل أصحاب المبدأ العقلي، التعليقي، أي كمادة تخضع لقواعد النقد والغربة، مليئة بالأخطاء؛ إن كنت تجيز روحًا كهذه، فأنت إذاً أمام نقيض لروح المسيح. فإن سيدنا كان أبدًا يعظم كلمة الله. كان أبدًا يقتبس المكتوب لتقرير كل أمر. وكانت نهاية كل أمر حينما يقتبس المكتوب. ويا له درسًا! ابن الله ينهي كل نقاش بمجرد اقتباس كلمة الله. أما المبدأ التعليقي فيسلبنا ذلك العنصر من أخلاق المسيح: الإخلاص لكلمة الله. إن بني عمون يريدون أن يقولوا لنا إنه في مقدورنا أن نكون مسيحيين اسمًا؛ أن نكون مجرد معترفين اعترافًا أجوف؛ ومع ذلك ينكرون كلمة الله التي هي مجنا في المسيحية. وكم من مظاهر الحكم العموني نراها اليوم بين ظهرانينا، حيث يتخذ الذهن البشري من كلمة الله سبيل متاجرة؛ فبدلاً من أن المكتوب يدين الإنسان، إذا بهذا الكائن العاجز يحتل مقعد الحكم على المكتوب. وما أقساها مظالم!

المخلص منها يفتاح الذي معناه "يُفتح - فتّاح". هو الذي يفتح؛ وأنت تذكر أن الرب فتح ذهن تلميذين ليفهما المكتوب؛ وإذ هو - تبارك اسمه - يفتح لنا كلمة الله الغالبة، كما فعل مع تلميذه، نتحرر من المبدأ التعليقي. لقد فتح لنا السماء لنعرف مكاننا قدام الله. فهو أبداً الفتاح، المُعلن، الذي يجعل كلمة الله منيرة لنا. ويقدر ما يكون المسيح نفسه فتاحاً لنا، فإننا نجد خلاصاً من كل محاولات الجسد، من كل سلطان السيادة الذهنية، التي هي في الواقع استعباد مطلق. وأي إنسان أكثر تعاسة من الشخص الذي يفكر لنفسه؟ من أكثر شقاء مثل الإنسان الذي يباهي بعبوديته لعقله التافه؟

لا أريد أن أتحدث عن نتائج حياة جدعون أو يفتاح؛ برغم أنه توجد في حياتيهما أفكار كثيرة، لم يتوفر لنا الوقت للإشارة إليها. وإنما أحاول أن أبين للقارئ كيف أن المسيح هو على طول المدى العلاج لهذه الشرور والمساوي؛ ومن هنا لا أريد الوقوف عند تفصيلات الإخفاق كما وجدناه في تاريخ أبيمالك.

ولنلخصها في بضع كلمات. لقد رأينا جدعون يرنو إلى الكهنوت، سلبًا لمكان المسيح؛ وأبيمالك كانت نفسه تهفو إلى السلطة الملكية، اغتصابًا لمكان لا يشغله سوى المسيح؛ بينما نلمس في خشونة يفتاح انعدام «وداعة المسيح وحلمه» - المبدأ الذي يُحسن السياسة لأنه يجربها بالمحبة والنعمة.

وبعد يفتاح تجدد الغزو الفلسطيني، أو بالحري السيادة الفلسطينية، كما تجدد خلاص الله، أو بالحري خلاصه المعين عن طريق شمشون النذير. الفلسطينيون يمثلون الاعتراف ضخمًا، ولو أنهم مرتبطون أصلًا بموآب. أنت تذكر أن شمجر صنع للشعب خلاصًا من الفلسطينيين عند نهاية نُصرة أهود على الموآبيين تقريبًا. قلت إن الفلسطينيين يمثلون الاعتراف، الاعتراف الفعال الذي يعلن أنه كل شيء وأن له الحق في أن يطلق اسمه على كل ميراث شعب الله، ويدعي السيادة المطلقة على كل ما يرتبط به.

وهذا تجده في روما، بكل ما ادعائها أنها الكنيسة، وأنها - روما - مستودع كل إعلانات الله. هي تدعي بحقها في قيادة شعب الله؛ وفي تقرير ما هي مشيئة الله، وما ليس من مشيئته. وفي روما تتركز السلطات كلها في البابا، يمارسها عن طريق كهنة بشر، ويعلنها بطقوس بشرية. إن روح روما هي السلطة الفلسطينية التي كانت تتحكم يومًا في الكنيسة المعترفة، والتي حتى في الوقت الحاضر تضع يدها على أبهى أجزاء ميراث الله. هل هي كالمسيح؟ أليست هي تسلبنا المسيح؟ بكل يقين هي تسلبنا إياه! هي المرأة إيزابل؛ هي ثياتيرا، كما تعلمنا ونحن نتأمل في شجرة.

روما التي تحاول أن تعلى وترفع من شأن الصليب، تسلبنا الصليب. روما التي تقول إنها تعظم ابن الله، تسلبنا إياه عمليًا لأنها تضع فوق المسيح تلك التي تقول عنها أم الإله. روما إذاً تسلبنا الحقيقة؛ ومن هنا فحيث نسمح لروح روما - وما أكثر ما يحمل روح روما ولو لم يحمل اسمها، حتى في البروتستانتية ذاتها - فإنها تستخدم العالم والجسد بل حتى الشيطان

نفسه لتنفيذ مخططاتها في امتلاكها على شعب الله. هي ليست المسيح بكل يقين.

وما العلاج؟ ما الخلاص من سلطان المرأة القرمزية؟ المسيح وحده. المسيح معروضاً لنا بالطريقة المناقضة لدعاوي روما. تدّعي أنها جالسة ملكة وليست أرملة. بينما وجدنا المسيح معروضاً كالنذير، المنفصل، الذي ليس له شيء هنا، الذي انفصل عن الخطاة، عن العالم، عن الروح الذي في العالم. والمسيح هو النذير الحقيقي، الذي يتباين معه شمشون، دون أن يكون رمزاً له. إن روح الانتذار الصحيح كما وجدناه في المسيح وكل من يرتبط بالمسيح، هو الذي يخلصنا من كل سلطان المبادئ الفلسطينية، من كل ما له صلة بعبادة القديسين، بالاعتراف الاسمي، بالخرافة، وبكل ما من شأنه أن يحط من قدر قديسي الله.

هكذا تجد المسيح على طول الطريق. لو عدت في وقت فراغ إلى التاريخ، وتناولت كل واحد من هذه الإنقادات، ووضعت في مكان المنقذ إدراك حقيقة المسيح، المسيح نفسه، القوة المجيدة، القوة الوحيدة للخلاص الحقيقي من هذا جميعه، لوجدت لا خلاصاً جزئياً ناقصاً، كالذي وجدناه في سفر القضاة، بل نصره فعلية، حقيقة، دائمة، نصره بالمسيح «شكراً لله الذي يعطينا الغلبة برنا يسوع المسيح» (١كو ١٥: ٥٧).

ثم نأتي إلى الجزء الأخير من السفر، الجزء الثالث. قد تناولته من قبل، وإنما أشير إليه الآن بمناسبة الموضوع الرئيسي هنا. أنت تعلم أن الوثنية، إدخال الوثنية، كانت علة إخفاق شعب الله، بل هي ذاك الإخفاق بعينه، الإخفاق في قبول المسيح كصورة الله الغير منظور؛ هي - الوثنية - محاولة الشعب في إقامة تمثال من ابتكار أفكارهم؛ فكرة جزئية عن الله؛ ولكن ليس الله كما هو مُعلن لنا في شخص ربنا. وإذا ما شوه الناس الله، إذا ما قامت الوثنية، فما أسرع ما يفسد الإنسان ذاته. وفي الفساد المخيف عند جبعة، وما تخلف عنه من آثار، حيث تركوا الله، حين ألغى الإنسان المسيح كصورة الله والمثل له، فإنه بالمثل ألغى وأبطل رفاقه الناس، واحتقرهم وعاملهم بأتعس الرجسات التي كان يعامل بها شعب سدوم أحدهم الآخر.

يا لها صورة مخيفة للقلب البشري؛ وحينما يتقدم إسرائيل ليعالج بالبر ذلك الشر العظيم المخوف الذي أجازه سبط بنيامين حيث وقع، نجد العجز كاملاً من ناحية الانتقام البشري عن أن يتمم ويُجري بر الله. فهوذا التأديب يأخذ مجراه إلى النهاية، إلى حد إبادة سبط بأكمله. ولكن ما أوهن سلاح الجسد في التنفيذ؛ وقد قصد الله أن يذلهم، أن يكسرهم، ويلقنهم أكثر

من مرة، درس الضعف البشري الذي نراه بطول السفر.

السفر كله نجد ملخصاً في تلك العبارة الخاتمة للتاريخ «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل». وهنا تتركز الأشواق التي نشتمها من خلال السفر كله، في نقطة واحدة؛ ومن هذه العبارة الموجزة نرى أن شهوة شعب الله، الشهوة التي أنشأها روح الله، هي العلاج الوحيد لكل ما في وسطنا من شر: أعني بها اشتهاء مجيء المسيح نفسه.

وفي ختام دراستنا أود أن أضغط على أخي كل ثقل المسؤولية المعلقة في أعناق أولئك الذين تفتحت عيونهم على الحقائق التي كنا نتناولها. أين جدعون، ويفتاح، وباراق الآن؟ أين الرسل والشهداء ومعتزفو الكنيسة؟ قد مضوا. لن يستطيعوا بعد أن يقفوا في الثغرة، أو يسكوا راية المسيح ويرفعوها. استراحوا من أعمالهم، وهم في انتظار المجازاة عن خدمتهم الأرضية.

غير أن العدو لا يزال؛ ولا تزال كذلك كنيسة المسيح ومعها الشهادة لحق الله، تصونها في وجه الشر الغامر، وعلى الرغم منه. غير أن العبودية الروحية - من أسف - حقيقة واقعة؛ ولكن من هو المنقذ؟ وأين هو؟

أو تلتفت حواليك؟ على مقربة منك؟ على مبعدة؟ أو تفكر في إنسان عبر البحر؟ في أرض بعيدة؟ سمعت باسمه ويعمله؟ كلا، يا حبيبي، تطلع فقط على قريب منك. هل تنهد وتبكي على الخرب؟ هل بك جوع إلى كلمة الله؟ هل أنت كسير حطيم وعاجز؟ إذاً فلماذا لا تكون أنت المنقذ؟ لماذا لا يستخدمك الله - في كامل الضعف - أداة لعون شعبه وخلصهم؟

يا له شرقاً وكرامة وبهجة أن يتاح لك الوقوف في جانب المسيح، من أجل كنيسته، من أجل حقه في يوم العار والخراب! أن تقف، أن تعترف، بل أن تموت من أجله إن اقتضى الأمر. هل أدعيت الغالبية؟ هل ثركت المبادئ؟ هل ارتخت العناية التقوية؟ إذاً باسم المسيح، إن وجد ولو واحد فقط ليساند الحق؛ باسم المسيح ليقف. معه ذاك الأقوى من الأقوى.

هكذا يا أخي تراك تبدأ بالبداية؛ إذ تتعمق في رحاب السفر ترى أن النقص الكبير هو: المسيح غائب؛ المسيح ليس هنا؛ ابن الله المبارك ليس في طليعة شعبه؛ ينقصنا حكمه، تديره، سلطانه، سيادته، على المدى الطويل. لمحة منه واحدة هي كل ما لك، ساعة واحدة من المسيح

تخترق الليل الداجي، لأن المسيح نفسه ليس هناك.

ليس إصلاحًا لكنيسة المسيح؛ ليس تقويًا لشعب الله؛ ليس تصحيحًا لموقف؛ ليست طاعة لكلمة الله؛ ذلك الشيء الذي لا يضع أمام النفس شخصًا مسيطرًا، الرب العزيز مسيطرًا حاكمًا؛ يا أخي الحبيب: قد تكون مدققًا في برود، دقيقًا في اللاهوتيات، صحيحًا في الكنسيات والكتابات؛ قد تكشف أخطاء في هذا النظام أو ذاك؛ قد تقع العين منك على تناقضات المسيحيين المعترفين؛ قد تكون فريسيًا تمامًا في مناهجك؛ بيد أنك لست شيئًا ما لم تكن لك - على المدى الطويل - هذه الحقيقة الآمرة - المسيح في شخصه المبارك، المسيح في كل كفايته، الرب يسوع في ملء حبه وجاذبيات شخصه، هو الوحيد الذي يقدر أن يحكم ويقود ويخلص شعبه، والذي نحن نفوسنا أن نراه.

هوذا في الكفاح بهجة؛ هوذا فرحة في معرفة حق الله؛ بل هوذا في لقاء العدو نفسه بهجة، إن كنا نواجهه بالإيمان؛ هوذا البهجة كذلك في أن نجلس ونتعلم ضعفنا؛ على أن هذه المباهج كلها ليست سوى قبس، نقطة من دلو، من الفرحة العظيمة الغامرة التي تنتظرها قلوبنا؛ أن نراه. وحين نراه، وتراه كنيسته، ونُخطف لنكون معه، يومئذ - وليس قبل يومئذ - نغير إلى صورته. وإذا كان علينا أن نمثله هنا، فبالقدر الذي يسيطر به على أفكارنا، وبواعثنا، وغاياتنا، وكل شيء في حياتنا، بحيث نستطيع أن نقول مع بولس «لي الحياة هي المسيح» (في ١: ٢١)؛ بهذا القدر عينه نكون على شبهه عمليًا، ونكون شهادة عملية له.

بساطة مباركة؛ شبع مبارك؛ في زحام الفوضى التي نعيش فيها، في وسط الخرائب التي خلفتها كبرياء الإنسان وأنانيته، في وسط عداة الشيطان وأحاييله الماكرة، في وسط اغراءات العالم؛ نعم في هذا جميعه كم هو بسيط بساطة مباركة؛ ومشبع شبعًا مباركًا أن يكون في مقدورنا أن نشد القول:

صوت الحبيب سمعتُ	فلا أريدُ سواه
وجه الحبيب رأيتُ	طاب لنفسي سناه

هل قنعنا به يا حبيبي؟ أهو ملء النفس؟ هل يمتلكنا؟ هل نسلك في شركة معه؟

إن فعلنا، وبرغم الخراب المحيط، وبرغم عبء التزامنا الثقيل؛ فلنا القوة التي تعيننا على

ملاقاة الأعداء، كل واحد منهم - القوة هي المسيح، والمسيح وحده. لا شيء سوى المسيح يسوع؛ لا شيء سواه شخصيًا؛ هو، كلمته، مشيئته، رياسته، سلطانه، كرامته؛ كله يتركز فيه، يشع منه؛ المسيح منعكسًا من حياة منكسرة، من ذات منكسرة. أَوْ ترنو إلى شرف تمثيل المسيح؟ إلى أن تكون مليئًا بالمسيح؟

«لي الحياة هي المسيح» (في ١: ٢١).

«آمين تعال أيها الرب يسوع» (رؤ ٢٢: ٢٠).

هذا الكتاب

سفر القضاة هو أكثر أسفار الكتاب المقدس ظلمة، وهو يتحدث عن حال الشعب في أرض الموعد بعد موت يشوع. وإن كان سفر يشوع هو سفر الامتلاك، فسفر القضاة هو سفر الارتباك. نقرأ فيه عن فشل وعبودية وخسارة. لكن بين الفينة والفينة كان الرب يتنازل من فيض رحمته فيفتقد شعبه، وهو عين ما حدث في تاريخ المسيحية. ورجل الله الفاضل، مقدّم هذه المحاضرات، يعلم عن يقين أن "هذه الأمور جميعها أصابتهم مثلاً وكُتبت للإنذارنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور". ليس بالنسبة لرحلة الفشل في البرية فحسب، بل بالنسبة لفشلهم في أرض الموعد أيضاً. فهذا السفر، رغم أنه من أهم الأسفار التاريخية، ويغطي حقبة من أطول الحقب مقارناً بباقي الأسفار التاريخية في الوحي؛ لكنه ليس مجرد تسجيل لدروس تاريخية، بل إن الله يتكلم إلينا الآن من خلاله.

والكاتب، الذي يتميز أسلوبه بالروحانية والعمق مع الوضوح والبساطة، يتوقف عند كل اسم لمكان أو لشخص، ويستخرج من الأسماء الكثيرة الواردة في هذا السفر العديد من الدروس الروحية، فعنده لا شيء في كلمة الله خال من المعنى. كما أنك ستلاحظ تقديره الشديد للحق الذي أنار الرب به رجال النهضة الفيلاذلفية، ولا سيما الاجتماع إلى اسم الرب. لذا فإنك إذا قرأت هذه المحاضرات بذهن مفتوح ستجد أنها تتضمن الطعام الوفير لشعب الله، وستحصل منها على بركات جزيلة. وستجني العديد من الدروس الأدبية والروحية التي نحن في أمس الاحتياج إليها.